صريع الغواني

دراسة أخباره وأشعاره

صريع الغواني

دراسة اخباره واشعاره

« واما صريع فكلامه مرصع، ونظامه مصنع، وغزله مستعذب وجملة شعره صحيحة الاصول، قليلة الفضول . »

« ابن شرف القيرواني

بقلم
محمد جميل سلطان
مجاز في الحقوق
و
ب . ف

عنيت بنشره
مكتبة عرفة بدمشق

١٣٥١ هـ مطبعة الترقي بدمشق ١٩٣٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ انعمت فزد

عرض الكتاب

كان اول معرفة كاتب هذه السطور بصريع الغواني معرفة حقيقية منذ اربعة اعوام خلت ، يوم ذكرت لصديق لي بيتين لابن الوليد ما ادري اين وجدتهما فاعجب بهما ذلك الصديق واخذ يرددهما ترديداً ممتزجاً بالنفس وهما :

ذاك ظبي تحير الحسن في الار — كان منه وحل كل مكان
عرضت دونه الحجال فما يلـــقاك الا في النوم او في الاماني

وقد راقته اذ ذاك حيرة الحسن في ذلك الظبي ، وكيف حل الجمال في كل مكان منه ، ثم حجب حتى ان المرء لم يعد يراه الا في النوم طيفاً جوالاً ، او في الاماني خيالاً رائعاً

ولم يكن صديقي آنئذ باوفر حظاً مني في معرفة صريع وشعره ، وكان مقدماً على فحص ملجئ الى الالمام بهذا الشاعر ، فعكفت قليلاً على قراءة شعره ، اعلق عليه بعض الملاحظات ثم دفعت بذلك الى صديقي

وما ادري اي شيء دعاني الى استقصاء البحث عن هذا الشاعر بعدئذ غير ما وجدته في شعره من رقة وجزالة ، وسحر وفتنة فاخذت اقرأ منه شيئاً فشيئاً ، وانتهز الفرصة احياناً لتدوين ما يخطر بالفكر

دون متابعة في الدرس حتى مضى عام كامل واذا عندي منه شيءٌ غير قليل ، واعقب ذلك فترة مترعة بضروب الاعمال والنصب ، نجوت منها الى صيف عام ١٩٣٠ فكتبت هذه الفصول في اوقات مختلفة وظروف خاصة لا سبيل الى الاطالة فيها . وقد استقصيت اخبار الشاعر واشعاره ولم آل جهداً في الاشارة الى الكتب التي اعتمدت عليها؛ وقد كابدت من تناقض الاخبار في بعضها شيئاً غير قليل . ثم القيت بذلك المجهود في درجي وكاد يصبح نسياً منسياً لو لا ما دعاني اليه الصديق الاديب ناشر هذا الكتاب ، فكان من اكبر العوامل على اظهاره ، وعلى الرغم من الجهد الذي بذلته في التصحيح شتاء هذا العام ، ومن حالتي الصحية حينئذ ، ومما بذله الصديق الناشر من التصحيح ايضاً ، فان الكتاب لم يخل من خطيئآت مطبعية كبرى ، وقد يعجب القاريءُ لخطيئآت قد تخل بقاعدة او تغير معنى مقصوداً ، ولكنه يعذر اذا عرف شيئاً لا سبيل اليه .

واعتماداً على هذه الفكرة في المعذرة نرجو القاريءَ الكريم تصحيح ما نبهنا عليه قبل البدء بقراءة الكتاب ، وقد يكون في تضاعيفه شيءٌ اكثر من ذلك مطبعياً كان او غير مطبعي ، ولكن العصمة لله وحده ، وله الكمال لا يشاركه فيه احد .

دمشق : ١٩٣٠/٥/١٠ م . جميل سلطان

فهرس الكتاب

القسم الاول

حياة مسلم بن الوليد

من

اخباره واشعاره

وطن الشاعر

الكوفة

خد العذراء المدينة الورعة الفاضلة القائمة على بعد مائة وار بعين كيلو متراً من بغداد في الجانب الجنوبي منها والجانب الغربي من الفرات ، كانت مهبط وحي الشعر ومبعث العبقريات والنبوغ بين احضانها نشأ دعبل الخزاعي وابو العتاهية ومطيع بن أياس وحماد عجرد رأبو دلامة ومسلم بن الوليد من الشعراء ؛ والكسائي والفرّاء وابن السكيت وغيرهم من النحاة ؛ والمفضل الضبي وحماد الراوية وابو عمرو الشيباني وابن قتيبة وابن الاعرابي من علماء اللغة : عظماء خالدون ، تبلى الايام والحديث عنهم مستجد طريف

تلك هي الكوفة التي بناها سعد بن ابي وقاص زمن خلافة عمر بن الخطاب .

وقد قصد العرب المدينة الفتية وحط العلماء فيها رحالهم حتى كان عليها رداء ديني اوحى الى سلمان الفارسي ان يقول : « اهل الكوفة اهل الله وهي قبة الاسلام يحن اليها كل موءمن . »

وقال سفيان بن عيينة : « خذوا المناسك عن اهل مكة وخذوا القراءة عن اهل المدينة وخذوا الحلال والحرام عن اهل الكوفة »

هكذا كانت الكوفة اول تمصيرها ومضت برهة من الزمن

ولعليّ كرم الله وجهه فيها من الأمل الواسع ما تطيب له نفسه حينما يقول : « الكوفة كنز الإيمان وحجة الاسلام وسيف الله ورمحه يضعه حيث شاء ؛ والذي نفسي بيده لينصرنّ الله بأهلها في شرق الارض وغربها كما انتصر بالحجاز . » ولكن شدّ ما كان عليه الالم كبيراً حينما رأى امله الواسع الناشط بهم يتضاءل ويهمد فلا ينفر اهلوها معه فيقول حينئذ لهم : اذا « تركتكم عدتم الى مجالسكم حلقاً عزين تضربون الامثال وتتناشدون الاشعار ، تربت ايديكم وقد نسيتم الحرب واستعدادها واصبحت قلوبكم فارغة من ذكرها وشغلتموها بالاباطيل والاضاليل : » ذلك انهم تغيروا بتغير الازمان وانصرفوا الى الجهة الادبية يتطارحون الاشعار في مجالسها ويقضون ايامهم بين لهو وطرب يثنيهم عن الحرب واهوالها .

كيف يتركون المدينة الطريفة الجديدة الى النار المستعرة الملتهمة ؛ وهم شعراء ، واكثر ما ترى حب الحياة وكره الموت فعند الشعراء والادباء ؟!

نقرأ للشاعر قطعة يتمنى فيها لو ان الموت يداهمه على اسرع من لمح البصر حتى اذا لاح له كان كالحطاب الهرم اليائس الذي القى عبئه وجعل ينادي الموت لينجيه من آلامه ولم يكد الموت يظهر له

سائلاً عن بغيته حتى قال : « بربك حملني هذا العبء من الحطب وشد وثاقي واقصد سواي فليس بي من حاجة اليك بعد ذلك »

هكذا كان شأنهم فكيف يدعوهم ابن أبي طالب رضي الله عنه الى الموت وهم يتمتعون بنعيم الحياة والسعادة · وسيان لديهم أحكمهم معاوية ام علي ما دام الشعر شعراً والحياة الطيبة تنفحهم بانواع اللذات ·

وكيف يتركون ذخيرتهم الشعرية الموروثة عن عظماء الجاهليين من قحطان وعدنان ؟ انه الكنز الشعري الذي امر بتدوينه النعمان بن المنذر في كراريس فنسخوا له اشعار العرب ودفنوها في قصره الابيض في الكوفة حتى اذا وثب المختار بن ابي عبيد الثقفي على ابن الزبير احتفر فأخرج الاشعار ، فكان اهل الكوفة من ثمّ اعلم الناس بالشعر يعقدون له المجالس الخالدة يحضرها ابو نواس ، ومسلم بن الوليد ودعبل بن علي الخزاعي وابو الشيص حتى يكون للكؤوس سلطان على العقول ·

كذلك كانت الكوفة في تلك الايام تفيض بالشاعرية العذبة وتترقرق صفاءً وسروراً

واذا لم يكن للوراثة تأثير في نبوغ الشخص — ونحن لا نعتقد بذلك — فان محيطاً كهذا وزمناً كزمن شاعرنا مع استعداد نفسي يخلق

من الرجل شاعراً كبيراً يكون جوهرة في عقد الزمان .

في هذا المحيط نشأ مسلم وفي هذه البيئة شب حتى كان من صف الخالدين من الشعراء .

عصر الشاعر

عاش مسلم في عصر تنوعت اشكاله واختلفت الوانه فاعجبه الزاهي واسكره ، واعرض عن الكامد ونبذه ، عصر امتدت آفاقه وترامت اطرافه . تجلت فيه الحرية باجلى معانيها ونريد بهذه الحرية صفة كل ما كان غير مقيد من تفكير او عمل

وقد يكون من الاسراف ان نطلق هذه الكلمة اطلاقاً لا نقول بعدها ان الحرية كانت مقيدة بعض التقيد في ازمنة قليلة كالضرب على ايدي الزنادقة وتقتيلهم ولكنها اخيراً ابت الا ان تتسيطر وابى التفكير الحر الا ان يظهر

في عصر مسلم كثرت الفرق والمذاهب الاسلامية كثرة كان من العوامل فيها نقل الكتب اليونانية والسريانيه الى العربية ، وتقدم العمران البشري وامتداد ظلاله ، وكثرة البحث والتعمق في التفكير . فكان العلم بالغاً مبلغاً كبيراً في الامة حتى اصبحت مجالس الخلفاء عامرة بالعلماء ، يدعوهم الخليفة ليناظرهم في آرائه فيسألهم ويسألونه ، وتقوم بينهم سوق المحاورة والجدال العلمي حتى ارتقى المستوى الفكري في الامة العربية واتخذ كلٌّ وجهةً يتولاها

ولم يقتصر الامر على الاختلاف الفكري في الدين ونشوء

مذاهب مختلفة بسبب دخول الفلسفة اليونانية والمعقدات الفارسية التي نشطت الزندقة والالحاد ، بل كانت هنـاك نزعات سياسية يعمل في سبيلها العلويون وغيرهم من اعداء الدولة العباسية

وكان من نتائج الزندقة والالحاد والرقي الزمني كثرة المجون والخلاعة وائتلاف الاخوان جماعات يقطعون الايام لهواً وسروراً ؛ فكان في الشعراء من يجتمع مع اخوانه في دار يسكنونها ، فاذا اصاب الواحد منهم مالاً اتى به اليهم فجعله مشاعاً بينهم يأكلون منه ويشربون ويطربون في الطابق السفلي من الدار ، فاذا نفد ما عندهم اوقلّ صعدوا الى شرفة الدار واذ ذاك يعلم الناس انّ مالهم قد قل اونفد ، ولكنهم غالباً ما كانوا يتداركون سواه بقصيدة ينظمها احدهم لأمير او خليفة فيجود عليه ، فيعود الشاعر الى اخوانه ، وهؤلاء يرجعون الى سيرتهم الاولى

وكانوا احياناً يقصدون مجالس القيان [1] وكن على الأغلب ماهرات يحسنّ الشعر والغناء ؛ فيجلسون اليهن متناشدين فاذا حان وقت العصر وارادوا الانصراف دعا كل منهم اخوانه الى داره وانشدهم شعراً يحبب اليهم ان يقصدوه لان عنده ما يحبون وما يشتهون فيحكمون القينة فتقول :

---

(١) المحاسن والاضداد للجاحظ ص ١٤٩

لا تطمعوا بسوائي من البرية كلا
يا سادتي خبروني اجاز حكمي ام لا ؟

فيقولون جميعاً : قد اجزنا حكمك ، ويقيمون عندها ·

وما من تثريب عليهم في غشيان مجالس القيان مادام الخلفاء لا يتحرجون من وجود القينات في قصورهم بل كن يهدين اليهم فيسر الخليفة ببديهتهن الشعرية ، ويطلب لهن الاصمعي او سواه لفحصهن بالأدب والشعر واللغة او لتعليمهن (١) وكان الخليفة يجد فيهن سلوى وعزاء لهمومه واعماله المتعبة في سبيل الرعية ·

كانت هذه السيرة الشعرية وتلك النزعة السياسية تقضي على الشاعر ان يكون هواه مع حزب من الاحزاب ان فاز غنم وان خسر حرم ·

ولكني لا اعتقد ان شعراء هذا العصر : عصر الرشيد والمأمون كانوا من النزعة الحزبية بحيث يستسهلون العذاب في سبيل مبادئ احزابهم حتى اذا عرض لاحدهم العسف والضيم ظل كالصخرة العاتية · وماذا عليه في فراره اذا ولى من الأذى ؟ هل من عار ؟

ان معظم شعراء تلك الأيام كانوا يدينون بالمذهب القائل :

---

(١) المحاسن والاضداد للجاحظ ص ٢٩٠ — ٢٩٢

« الغاية تبرر الواسطة » وغايتهم هي اللذة في الدنيا والتمتع بنعيمها فسوائي لديهم اجاء هذا النعيم وهذه اللذة عن طريق الخليفة او عن طريق اعداء الخليفة ، فانهم يريدون المال ... وهو زينة الحياة الدنيا .

هكذا كان عصر صريع فكيف وقف منه هذا الشاعر ؟ وهل كان مصوراً ماهراً لعصره ؟

اذا كان معيار النبوغ الادبي في شاعر ما هو تصوير الحياة تصويراً فنياً ، والاتيان على دقائقها في وصفه وتصويره ، وكون شعره مرآة صافيه تتجلى فيها الوان عصره ، اذا كان كل ذلك فان شاعرنا كان نابغة في وصف شطر من زمانه وصفاً دقيقاً .

تقرأ شعره من اوله الى آخره فيروقك منه لذة جعلت هدفاً للحياة ومجون وخلاعة سادت تلك الايام فطبعت شعر صريع بطابعها الخاص .

ولا نقيم لذلك البيت او البيتين دليلاً على ما ذهبنا اليه فهاك ديوانه انه ينبئك عن مصور عرف ما يصوره حق المعرفة .. وخبر الناحية التي كتب فيها فوفاها حقها وما هي غير المجون والاهواء والخمور .

وما احسب ان ابا نواس يفوق صريعاً في وصف هذه الجهة من الحياة ويعلو عليه علواً كبيراً بل كانا فرسي رهان وانما لم يرزق شاعرنا ما رزق ابو نواس من الشهرة الواسعة كما سترى ذلك بعد حين .

الان شعر صريع لم يكن مرآة للناحية العلمية والحزبية الحكومية في تلك ايام ومعظم ما فيه من ذلك انه كان يتشيع فاذهب حقد الرشيد عنه ببيتين قالهما منتصراً للعباسيين على الفاطميين كما سنذكر لك ذلك في مكانه الخاص . وليس لهذين من قيمة كبرى تدل على مذهبه السياسي فهو اقرب لان يكون بعيداً عن الحزبيات الحكومية من ان يكون مناضلاً عن فرقة معينة . ونقول الحزبيات الحكومية تفريقاً لها عن العصبية فقد كان هواه مع طائفة من العرب وسترى ذلك في موضعه ايضاً

وخلاصة ما يقال في شعر صريع انه لا يكاد يمثل عصره وبيئته من جميع وجوههما ، لان عصراً كعصره وبيئة كبيئته انتشرت فيهما الفلسفة والعلوم على اختلاف انواعهما ، يصعب على شاعر يحلق في سماء العواطف ان يكون شعره صورة صادقة لهما وفهرساً لانواع العلوم من هندسة وطب وقواعد وو ... ليمثل تلك البيئة اكمل تمثيل .

يقول الاستاذ العقاد : « ليس من الضروري للشاعر المجيد ان يفيد المؤرخ في استقصاء احوال العصور واستخراج الوقائع والاسانيد اذ ربما اجاد الشعراء في عصر واحد وهم مختلفون في الاجادة اختلافهم في الملكة والمذهب والمزاج ، فتمثيل البيئة ليس من شرائط الشاعرية لان البيئة الجاهلة المقلدة يمثلها الشعراء الجاهلون المقلدون ولان الشاعر المتفوق قد يخالف بيئته وينقطع ما بينه وبينها فلا تشبهه ولا يشبهها

الا في معارض لا يصح بها الاستدلال . وقد يوجد من الشعراء من يشبه تلك البيئة في هذه المعارض وبينها و بينه مئآت الفراسخ ومئآت السنين بل قد يكون هذا الشاعر اشبه بها من ذلك الشاعر المتفوق الذي يعيش فيها و ينقطع ما بينه و بينها .»[1]

---

(١) ساعات بين الكتب ص ١٢٥

نشأة الشاعر

من الامور التي يشكوها الباحثون غموض بعض نواحٍ من ادبنا العربي ، وعبثاً يحاول المرء في بعض الاحيان ان يجلو هذا الغموض ٠

من ذلك ما نكابده اليوم من معرفة نشأة صريع ومولده فان مؤرخي الادب عندنا اكتفوا بالغموض ولم يدونوا — على ما نعلم — ما يطمئن اليه البحث ٠

اما مولده وفي اي عام كان فقد توصلنا الى جلائه بطريقة غير مباشرة ، بعد استقراء وقياس ، ونزعم انه ولد سنة ١٦٠ للهجرة ٠

وسترى الطريقة التي اهتدينا اليها في البحث عن سنة ولادته وقد وافاه الاجل عام ٢٠٨ على مايقول صاحب الفهرست

ولكن ما يهمنا من عامين نجدهما ما دمنا نجهل كثيراً من النواحي التي تؤثر في شخصية الشاعر ونفسيته ؟

اولها نشأته الاولى ٠٠٠ اين نشأ مسلم وعلى من تخرج و كيف كانت نشأته الاولى ، ومستهل حياته ؟؟ ٠٠ ذلك ما اغفل بعضه الزمن وسلم البعض الآخر من يديه ٠

يقول صاحب الاغاني: «هو مسلم بن الوليد ، ابوه الوليد مولى الانصار

ثم مولى ابي امامه اسعد بن زرارة الخزرجي ... منشؤه ومولده الكوفة .»

ثم يحدثنا عن بعض اهوائه ولذاته واجتماعاته مع الشعراء ثم يخبرنا بتهاجيه مع ابن قنبر اذ يقول هذا مشيراً الى مسلم .

فما بال هذا العلج ضل ضلاله ٭ يمد اليهم كف اجذم اعسم

يسامي قريشاً مسلم وهم هم ٭ بمولى يماني وبيت مهدم

ومنها :

وما مسلم من هؤلاء ولا الأُلى ٭ ولكنه من نسل علج ملكّم

تولى زماناً غيرهم ثمة ادعى ٭ اليهم فلم يكرم ولما يكرّم

وفي هذا ما يدلنا على ان مسلماً كان فارسي الاصل ولا يخفى ان للامزجة والوراثه دخل كبير في العبقرية ولكن كيف كانت نشأته الأُولى ؟ ان مما يرجح لدينا انه لم يكن احسن من اخوانه الشعراء في نشأتهم ، فقد كان خاملاً فقيراً يدلنا على ذلك ما حدثونا به عن دعبل الخزاعي انه كان غلاماً لمسلم يبيتان في ثوب واحد ليس عندهما سواه .

ولكن الايام دارت دورتها فانقلب الشقاء الى هناء ولذة واخذ صريع الغواني شاعرنا وابو نواس ومن عاصرهما في منبثق العصر العباسي واوج عظمته — اخذ هؤلاء ينالون من الحياة كأسها العذب ويترشفون من نعيمها ما شاءت الاهواء لهم ان يترشفوا فكانت اهواؤهم سائرة مع المدنية في رقي .

واذا قيل ان الخلاعة توافق المدنيــة على نسبة مضطردة فقد كان شباب صريع يصاحب المدنية في اسنى ضياء لامع مشرق منها ولم يكن مسلم ذلك الذي يحسب في الحياة حساباً لغير اللذات والاهواء وما العيش عنده الا سكرتان سكرة الأعين النُّجل وسكرة حميا الكأس ، يقول :

هل العيش الا ان تروح مع الصبىٰ
صريع حميــا الكأس والأعــين النجل

واذا تعمدنا ان نذكر لك منتخبات من اشعاره في ذلك فليس علينا الا ان نقدم اليك ديوانه باجمعه فتحتار في التفضيل ثم تكتفي بنتيجة واحدة هي ان الحياة عنده في شبابه حياة نعيم وهوى يحمل فيه لواء اللذة ويتشيع لها وتعتقد انه لم يخلق الا للشرب واللذة فاذا صحا من لذة اوطرب عاوده سواهما وهكذا دواليك يقول

لم اصح من لذة كلا ولا طرب
وكيف يصحو قرين اللهو واللعب
نفسي تنــازعني اللذات دائبــة
وانما اللهو واللذات من اربي

وكان لا يترك مجلساً للهوى واللذة الا قصده ولكنه يربأ بنفسه ان يذهب دون ان يدعى فان لم يدع لم يذهب

كم ليلة بتُّ مسروراً ومغتبطاً   جذلان منغمساً في اللهو والطرب
اذا دعيت الى لهو اجبت وان   لم ادعَ للهو واللذات لم اجب

يقولون ان الذي يغب من اللذات لا يجد مجالاً للقول ؛ اما من كانت نفسه وثابة الى اللذات وهو لا يملك تأميناً لرغباته فانه يملأُ الدنيا اقوالاً واشعاراً ٠

الا وان في ذلك لحقيقةً لا تنسى ؛ وكثيراً ما شـاهدنا ذلك بام اعيننا ولـكن صاحبنا كان على عـكس ذلك ٠

كان اذا اقفر عنده الهوى فتش عن هوى آخر ولو كان كذباً وتكلفاً لينظم فيه شعراً فينال ما يشتهي ، وكثيراً ما كان يأتي بالابيات من الشعر يصف لك ما جرى له وصفاً كانك ترى فيه الموصوف ولا يعدم في ذلك معنىً رائعاً او نـكتة بديعة يطربك بها كما ترى ذلك فيما يأتي من اخباره

قالوا ان مسلماً علق جارية ذات خطر وشرف وكان منزلها في مهب الشمال من منزله وفي ذلك يقول :

احب الريح ما هبت شمالاً   واحسدها اذا هبت جنوبا

وكانت له جارية يرسلها الى تلك ويبثها سره فتعود اليه باخبارها ورسائلها فطال ذلك بينهما حتى احبت جاريتهُ الجاريةَ التي علقهامسلم

ومالت اليها وكلتاهما في نهاية الحسن والكمال وكان مسلم يحب جاريته هذه محبة شديدة ولم يكن يهوى تلك لغاً كان يريد التغزل او المجون والمراسلة وان يشيع له حديث بهواها وكان يُرى ذلك من الملاحة والظرف والأدب كما يذكر صاحب الاغاني كأنما كانت (المودة) عند الشعراء الاقدمين ان يشيع عن الشاعر شيءٌ من غرام وهوى!!

قالوا ولما رأى مودتيهما هجر جاريته مظهراً لذلك وقطعها عن الذهاب الى تلك وفي ذلك قوله .

احب الريح ما هبت شمالا ... واحسدها اذا هبت جنوبا

اهابك ان ابوح بذات نفسي ... وافرق ان سألتك ان اخيبا

واهجر صاحبي حبَّ التجني ... عليه اذا تجنبت الذنوبا

ايصبر عاشق هجر الحبيبا ... اجنَّ فؤاده شوقاً عجيبا

ولو حملت نفسي الصبر عنها ... لكان الصبر في قلبي غريبا

وراسلها مع غير جاريته الاولى وفي ذلك يقول :

تدعي الشوق ان نأتْ ... وتَجنَّى اذا دنت

واعدتنا واخلفتنا ... اساءت واحسنت

سرني لو صبرت عنها ... فتجزى بما جنت

ان سلمى لو اتقت ... ربها في ما انجزت

زرعت في الحشا الهوى ... وسقته حتى نبت

وكانت هذه الابيات سائرة غنّى بها المغنون ٠

واخباره في الهوى كثيرة جداً اودع شطراً كبيراً منها ديوان شعره: يذكر الحادثة مفصلة حتي يخيل اليك انك تقرأ عمر بن ابي ربيعة بل ان مسلماً اشد انغماساً في حمأة الاهواء فهو لا يكاد يعرف من الحب الا الشهوة والا خلع العذار وهو برأيه المذكور يدين بنظرية القائلين ان الحب شهوة مترقية فاذا سبر الدهر غور ذلك الحب ظهر شهوة باجلى المظاهر ، وهذا مايبدو في شعره اذ يقول

خليلي لست ارى الحب عارا   فلا تعذلاني خلعت العذارا
وكيف تصبّرَ من قلبه   يكاد من الحب ان يستطارا
لقد ترك الوجد نفسي بها   تموت مراراً وتحيي مراراً
كلانا مجد ولكنني   على لهجر منها اقل اصطبارا
اذا قلت اسلو دعاني الهوى   فالهب في القلب للشوق نارا

* * *

واحور وسنان ذي غنة   كأن بوجنته الجلنارا
شربت ونادمني شادن   صغير «واني احب الصغارا»

ارأيت مذهبه في الحياة ٠٠٠٠ ثم يقول بعد ابيات :

نهضت اليه فقبلته   وعانقته وحللت ٠٠٠

يقول احد المتصدين لشعره ان كلمة (حللت) من وضع الراوية اما الشاعر فلا يقولها بل يقول : (تركت) الازار

نحن لا نعلم المستند في هذا التغيير ولا نرى في ذلك اللفظ مايتنافى مع سرد الحادثة التي يرويها الشاعر ونذهب الى ان مجرى القصيدة يقتضي هذا اللفظ فهلا ترى ذلك ؟

ثم انا لا نريد ان نلقي على الشاعر هذه التهمة ولا ان ندافع عنه ونعتقد كما يعتقد الكثيرون ان الدفاع عن الشاعر لا يكون في السكوت عن قصائد طويلة والتحدث في كلمة واتخاذها مجنا ... ولكنه مجن يثقبه الهواء !!

وبعد فيظهر ان شاعرنا كان في حياته يخلص الحب لغانية اسمها (سحر) شغلت قسما عظيما من حياته، خصها بالقصائد الطوال وذكرها في كل مناسبة ... من ذلك قوله

يا سحر قد جرعتني غصص الهوى　　كدرت بالهجران صفو مشاربي
اشعبت قلبي بالهوى وصدعته　　بالهجر منك فماله من شاعب
صبراً عليك فما ارى لي حيلة　　الا التمسك بالرجاء الخائب

ويقول في قصيدة غيرها اودعناها بحث الغزل وتطوره :

فتنا للشقاء بحب سحر　　كما فتن النصارى بالصليب

وله فيها قصيدة جيدة يدلك بها على مذهبه في الحب ونزعته غير العذرية او غير الافلاطونية اذ يقول :

ويح المحبين كيف ارحمهم　　اقد شقوا في طلابهم وعنوا

هذي الحمامات ان بكت ودعت اسعدها في بكائهـا الفنن
فمن على صبوتي يساعدني اذا جفاني الحبيب والسكن

ويقول فيها :

اذا دنت للضجيع لذَّ له منها اعتناق ولذ مُحتضن
كحلاء لم تكتحل بكاحلة وسنانة الطرف ما بها وسن
ففي فؤادي لحبها غصن في كل حين يورق الغصن
قيل لهـا انه اخو كلف بحبكم هائم ومفتتن
فاعرضت للصدود قائلة يقول ماشاء شاعر لسن
ما كان فيما مضى بمؤتمن على هوانا فكيف يؤتمن
حبان غضان في الفؤاد لها فمنهما ظاهر ومندفن
اوطن يا سحر حبكم كبدي فليس للحب غيرها وطن

* * *

وا بابي مَن يقول لي بابي ومَن فؤادي لديه مرتهن
يطلبني حبـه ليقتلني وليس بيني وبينه احن

* * *

وقائل لست بالمحب ولو كنت محباً هزلت مذ زمن
فقلت روحي مكاتم جسدي حبي والحب فيه مختزن
شف الهوى مهجتي وعذبها فليس لي مهجة ولا بدن

أحبّ قلبي ومادرى جسدي ولو درى لم يقم به السمن

لو وزن العاشقون حبهمو لكان حبي بحبهم يزن

لاعيب ان كنت ماجناً غزلا فقبلي الاولون قدمجنوا

هذا شيء من حياة شاعرنا قد تجد فيه صورة صغيرة له ، ولكنا لا نقنع بهذا المقدار دون ادراك الكثير من نواحي حياته وسنوضح ذلك في الفصول التالية

الشعراء المعاصرون

لم تكن الصنعة الواحدة حيناً من الدهر باعثة على الوئام بين عدد من محترفيها ؛ لأن التنافس على الرزق والتكالب على الشهرة حربتان تطعنان السلام بين الناس طعنات دامية ·

وكثيراً ما شاهدنا الشيء الفظيع من العداوات القائمة بين العلماء والأدباء ومن الحزازات المنشبة اظفارها في قلوبهم فلم تكن آلامهم الا لتزيدهم بلاءً وشراً ولم تكن معارفهم واقدارهم الا لتفتق لهم سبل الحيلة في الكيد : يلقى به بعضهم بعضاً ·

وحيث توجد المطامع الذاتية والمدنية فهناك تشاهد ما ينقلب على النفوس شراً ونصباً ·

وقد كان ذلك موجوداً في بدء العصر العباسي وفي كل عصر من عصور العربية وعلى الاخص عهود المدنية العربية لان المدنية على الاطلاق تنمي في النفوس الاثرة وحب الذات والمطامع الاشعبية تلك المطامع التي تفكك عرى الاخاء بين ابناء الانسانية ؛ وكلما تأخر الانسان في المدنية والرقي وجدته اقل اعتناءً بذاته ومن ثم تشاهد عرى الارتباط متينة بين افراد ذلك المجتمع الضيق ·

ولعل شعراء ذلك الزمن : زمن مسلم بن الوليد اقل اثرة مما نتصوره في عصور المدنية لأن اللهو كان يستر وراءه نزعات النفوس ونعتقد ان الاثرة لا يمكن ان تموت في مثل هذه المجتمعات ؛ والشعر الهجائي بين اولئك الشعراء دليل على ذلك ·

كانت اجتماعاتهم لا تفتر طرفة عين وهم في اخاء فمن مجلس طرب الى آخر اكثر طرباً ومن معهد لهوٍ وأنس الى مغنى احسن منه لذة ونعيماً ، وما كانوا يتألمون لذهاب يوم بلذاته ايماناً منهم بقدوم ايام احلى مذاقاً وهناءً · وكانوا في مجالسهم يتطارحون الاشعار والاخبار ويجمعون الى لذة الجسم لذة الروح من ذلك ما حدث به صاحب العقد[1] قال :

اجتمع الحسن بن هانئ وصريع الغواني وابو العتاهية في مجلس بالكوفة فقيل لأبي العتاهية انشدنا فأنشد :

اسيدتي هاتي فديتك ما جرمي   فأنزل فيما تشتهين من الحكم
كفاك بحق الله ما قد ظلمتني   فهذا مقام المستجير من الظلم

وقيل لصريع الغواني أنشدنا فأنشأ يقول :

قد اطلعت على سري واعلاني
فاذهب لشأنك ليس الجهل من شاني

---

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ٤

ان التي كنت ارجو قصد سيرتها
اعطت رضىً واطاعت بعد عصيان

ثم قيل للحسن بن هانئ (ابي نواس) أنشدنا فأنشد :

يا ابنة الشيخ اصبحينا ما الذي تنتظرينا
قد جرى في عوده الما ء فاجري الخمر فينا

قيل هذا الهزل فهات الجد فقال :

لمن طلل عاري المحل دفين عفا عهده الارواح وهو جرون
كما افترقت عند المبيت حمائم غريبات ممسى ما لهن وكون
ديار التي اماجنى رشفاتهـا فحلو واما مسهـا فيلين
وما انصفت: اما الشجون فظاهر بوجهي واما وجهها فمصون

فقام صريع الغواني يجر ذيله وخرج وهو يقول: ان هذا مجلس ما جلسته ابداً ٠

هكذا كانوا يقطعون الزمن صفواً وحبوراً واذا ثارت بنفوسهم عزتها تألماً مما قد يرتكبه احدهم فقد كانوا يأتون اليه يعاتبونه على ما فرط منه حتى اذا اعتذر — وكان مسيئهم يعتذر دوماً — صفحوا وعادوا ادراجهم اخوان صفاء ٠

وكثيراً ما كانوا يتشاغبون دون ان يثمر ذلك ثمرة مرة او يورث قلوبهم نفوراً من بعضهم

من ذلك ما تشاغب به مسلم مع ابي نواس فقد اجتمع الاثنان فقال مسلم للحسن ما اعرف لك بيتاً الا وفيه سقط فقال له ابو نواس فما تحفظ من ذلك قال مسلم قل انت ما شئت حتى اريك سقطك فيه فأنشد ابو نواس :

ذكر الصبوح بسحره فارتاحا وأمله ديك الصباح صياحا

فقال له مسلم فلمَ امله وهو الذي ذكره به ؛ وبه ارتاح فقال ابو نواس فانشدني شيئاً من شعرك ليس فيه خلل فانشده مسلم

عاصى الشباب فراح غير مفند واقام بين عزيمة وتجلد

فقال له ابو نواس قد جعلته رائحاً مقيماً في حال واحدة وبيت واحد فتشاغبا ساعة ، وكلا البيتين صحيح المعنى ولكن من طلب عيباً وجده ومن طلب له مخرجاً لم يفته .

واجتمع ابو نواس ومسلم في مجلس فتلاحيا على نبيذ فقال مسلم لابي نواس والله ما تحسن الاوصاف فقال ابو نواس والله ما احسن ان اقول

مُلَّت فَمَلَّت ثم مَلَّ سليلها فاتى سليل سليلها مسلولا

والله لو رجمت الناس في الطرق لكان احسن من هذا

وما كان تشاغبهم هذا ليدفعهم الى الحط من مقاماتهم فقد قال ابو نواس لصحبه في مجتمع بعد ما كادت النبيذ تأخذ من العقول

قد اتفق اجتماعنا فلم لا نتمم يومنا هذا بما يذكرنا به المتأدبون فقالوا له انه ليوم ذاك فالتفت الى مسلم فقال هات فلله احسانك في الاجابة اذا نوديت فاختر من شعرك ما شئت فليس من شاعر الا وهو يعرف حبة القلادة من شعره فاستوى مسلم جالساً وقال ليست بك حاجة الى مكاثرتنا فقد علمنا ان معك من الكلام دره وخالص جوهره واذا اردت اقرارنا لك بذلك فقد سلمناه لك فقال ابو نواس ما لهذا قصدت ولكنك تريد ان تفخر علينا بجودة شعرك فامض لما اجتمعنا عليه فلن ندع مشاركتك في ذلك لما تقدم من بقاء ذكر هذا اليوم بين الادباء على مر الايام فابتدأ مسلم يقول :

اجررت حبل خليع في الصبى غزل　　وشمرت همم العذال في العذل

فلما انتهى الى قوله

موف على مهج واليوم ذو رهج　　كانه اجل يسعي الى امل

قال ابو نواس ما اراه يجيء بعد هذا الكلام بما يفي بوزنه

ولم يكن شعراء تلك الايام يقصرون في اقتناص الضحك حتى في الصلاة فقد خرج مسلم والعباس بن الاحنف والحسين الخليع وابو نواس وكلهم من تعرف في الشعر وقوته الى متنزه ومعهم فتى يقال له يحيى بن المعلي فقام يصلي بهم حينما حضرت الصلاة فنسي الحمد ? !

وقرأ (قل هو الله احد) ثم ارتج عليه في نصفها فقال ابو نواس وهو في الطاعة ! !

اكثر يحيى غلطاً في قل هو الله احد
فقال العباس : قام طويلاً ساهياً حتى اذا اعيا سجد
فقال مسلم : يزحر في محرابه زحير حبلى للولد
فقال الخليع : كانما لسانه شد بحبل من مسد

واذا ذكرنا احاديث خلاعة الشعراء المعاصرين فيجب الاّ ننسى اخاً من اخوان صفائهم هو اسماعيل بن معمّر القراطيسي فقد كان مألفاً للشعراء وكان شاعرنا وابو نواس وابو العتاهية ومن في طبقتهم يقصدون منزله فيلهون عنده ويقصفون وهو يدعو لهم القيان وغيرهن من الغلمان ؟ !

وكان مسلم نفسه كريماً فاذا اتاه مال دعا اخوانه يلهون معه ولاستقصاء احاديثهم في الخلاعة نحتاج الى زمن طويل قد يورث الملل ، وبطون الكتب اوسع واشفى

وقد عزفت نفس مسلم عن اللهو قبل ان تعزف نفس ابي نواس فلامه يوماً على تماديه في الشراب وانغماسه في الغي فانشده ابو نواس ارتجالاً :

فاول شربك طرح الازار وثانيه من بعد طرح الازار

وما هنأتك الملاهي بمثل   اماتة مجد واحياء عار
ومـا جاد دهر بلذاته   على من يضن بخلع العذار

قال مسلم فوليت عنه وقلت جواب حاضر من شيخ فاجر .

وكان بين مسلم وابي العتاهية شيء من النقد ولكنه لم يكن ليعكر صفو الايام .

وسرعان ما دار الزمن دورته فاذا بشاعرنا يتولى جرجان وقالوا يتولى البريد بجرجان فكان بينه وبين اخوان صفائه جبال وصحارى تحسر دونها الابصار ، وتحجبه عن عصبته الطيبة ! !

وقبل ان نطوي صفحة الشعراء المعاصرين لا بد من ذكر خبرين شغلا شطراً كبيراً من حياة شاعرنا مع الشاعرين دعبل بن علي والحكم بن قنبر .

مسلم بن الوليد و دِعْبل بن علي الخزاعي

نشأ دعبل بن علي الخزاعي نشأة لا يغبط عليها فقد كان ايام ترعرع خاملاً لا يوءبه له وكان ينام هو ومسلم بن الوليد في ازار واحد لا يملكان غيره ومسلم استاذه حينئذ ودعبل غلام امرد يخدمه ولا يقول شعراً يفكر فيه الا ان الاستاذ كان يقوم بارشاد تلميذه الى مواطن الضعف والخطأ ليجعل منه شاعراً فحلاً وما زال دعبل يشب ومسلم يخلص له في الاصلاح حتى كانا بعد زمن صديقين حميمين ؛ وكان دعبل شأن بعض الناشئين يخالط الشعراء ويجلس في مجالسهم ويتحدث عن مسلم بما يملأ سمعته ارجاً فياحاً وطيباً منتشراً كما كان يشيد بذكر ابي نواس لمسلم فطلب هذا منه ان يجمع بينه وبين ابي نواس وكان ابو نواس قد طلب ذلك ايضاً . وكان اذا حضر هذا تخلف مسلم واذا حضر مسلم تخلف ابو نواس الى ان اجتمعا فانشد الحسن :

اجارة بيتنا ابوك غيور وميسور ما يرجي لديك عسير

وانشد مسلم :

لله من هاشم في ارضه جبل

وانت وابنك ركنا ذلك الجبل (١)

---

(١) من قصيدة يمدح بها يزيد بن مزيد .

وانقضى مجلسهم على احسن ما يكون ·

و يروى ان دعبلاً سأل ابا نواس بعد ذلك عن مسلم فقال هو اشعر الناس بعدي وسأل مسلماً عنه فقال هو اشعر الناس وانا بعده ·

وفي هذه الشهادة نظر وخاصة اذا علمنا ان دعبلاً انقلب على مسلم بعد مدة كما سنقصه عليك وقد ذكر عن مسلم مرة قصة بخل والمأثور عنه غير ذلك ·

يؤيد ذلك ما ستقروءه بعد حين

هذا وقد توالت بعد ذلك الاجتماعات الشعرية بين ابي نواس ومسلم وابي العتاهية وسواهم في الكوفة وغير الكوفة كما رأيت وكان يحضر هذه الاجتماعات دعبل ولكنه لم يكن ليقول الشعر : حكمة تلقاها من مسلم وكان لا يزال ينظم الشعر ويعرضه على استاذه فيقول له اياك ان يكون اول ما يظهر لك ساقطاً فتعرف به ثم لو قلت كل شيءٍ حسن كان الاول اشهر عنك وكنت ابداً لا تزال تعير به ·

وقصد دعبل وقد تقدم في الشعر والعمر استاذه يوماً ومعه ابيات رائعة هي :

اين الشباب واية سلكا ام اين يطلب ضلّ ام هلكا
لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

يا ليت شعري كيف صبر كما   يا صاحبيَّ اذا دمي سفكا
لا تطلبا بظلامتي احداً   قلبي وطرفي في دمي اشتركا

فلما سمع مسلم هذه قال أظهر الآن شعرك كيف شئت .

ولم يمض قليل من الزمن حتى اجتمع دعبل وقد اصبح شاعراً فحلا ومسلم وابو الشيص وابو نواس وكل منهم من علمت في الشعر وقوة اسره فقال لهم ابو نواس : ان مجلسنا هذا قد اشتهر باجتماعنا فيه ولهذا اليوم ما بعده فليأت كل واحد منكم باحسن ما قال فانشد ابو الشيص :

وقف الهوى بي حيث انت فليس لي   متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذيذة   حباً بذكرك فليلمني اللوم
واهنتني فاهنت نفسي صاغراً   ما من يهون عليك ممن يكرم
أشبهت اعدائي فصرت احبهم   اذ كان حظي منك حظي منهم

فجعل ابو نواس يعجب من حسن الشعر حتى ما يكاد ينقضي عجبه ، ثم انشد مسلم ابياتا من شعره الذي يقول فيه :

فأقسم انسى الداعيات الى الصبى
يميناً وقد فاجأت والستر واقع
فغطت بايديها ثمار نحورها
كايدي الاسارى أثقلتها الجوامع

قال دعبل : فقال لي ابو نواس هات ابا علي وكأني بك قد جئتنا بام القلادة فانشدته :

اين الشباب وأية سلكا ....

الى آخر الابيات ·

ثم استنشدوا ابا نواس فانشد :

لا تبك هنداً ولا تطرب الى دعد
واشرب على الورد من حمراء كالورد
كاسا اذا انحدرت في حلق شاربها
أجدته حمرتها في العين والخد
فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة
في كف جارية ممشوقة القد
تسقيك من عينها خمراً ومن يدها
خمرا فمالك من سكرين من بد
لي نشوتان وللندمان واحدة
شيء خصصت به من بينهم وحدي

فقاموا كلهم فسجدوا له فقال افعلتموها اعجمية لا كلمتكم ثلاثا ولا ثلاثا ولا ثلاثا ثم قال تسعة ايام في هجر الاخوان كثير وفي هجر بعض يوم استصلاح للفساد وعقوبة على الهفوة ثم التفت

فقال أعلمتم ان حكيماً عتب على حكيم فكتب المعتوب عليه الى العاتب يا اخي ان أيام العمر أقل من ان تحتمل الهجر (١)

هكذا كانت مجالسهم يتناشدون فيها الاشعار و يطربون و يلهون كما يشتهون وكان لدعبل ومسلم مكانان عاليان في قمة الشعر على صداقة متينة بينهما رافقت عمر دعبل منذ نشأته حتى صار شاعراً كبيراً فالقت هذه الصداقة عنهما التكاليف التي اعتاد اولو الشهرة اتخاذها فكانا يعلمان سر بعضهما حتى انهما لم يتقاعسا عن اتيان المنكر متصاحبين يقود التلميذ فيه لاستاذه !!....

فقد زعموا انه بينما كان دعبل جالساً بباب الكرخ ببغداد اذ مرت به جارية لم ير احسن منها وجهاً ولا قداً تتثنى في مشيتها وتنظر في اعطافها فقال متعرضاً لها

دموع عيني لها انبساط ونوم عيني به انقباض

فاجابته بسرعة :

وذا قليل لمن دهته بلحظها الاعين المرض

فادهشته وعجب منها فقال :

فهل لمولاي عطف قلب وللذي في الحشا انقراض

فاجابت غير متوقفة :

---

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ٢ — ٣

ان كنت تهوى الوداد منا   فالود في ديننا قراض

قال دعبل: فما دخل اذني قط كلام احلى من كلامها ولا رايت انضر وجها منها . ثم انه عدل بها عن ذلك الوجه وقال

اترى الزمان يسرنا بتلاق   ويضم مشتاقاً الى مشتاق

فاجابت مسرعة :

ما للزمان وللتحكم بيننا   انت الزمان فسرنا بتلاق

ولما رآى دعبل ان الامر قد تم مضى امامها يؤم بها دار استاذه مسلم بن الوليد وهي تتبعه حتى صار الى منزله فصادفه على عسر وفقر ولكنه لم يخيب امله اذ دفع الى دعبل منديلاً وقال اذهب فبعه وخذ لنا ما نحتاج اليه وعد فمضى دعبل مسرعاً ولما رجع وجد مسلماً قد خلا بها في سرداب فلما احس بدعبل وثب اليه وقال عرّفك الله ابا علي جميل ما فعلت ، ولقاك ثوابه وجعله احسن حسنة لك فغاظ هذا القول دعبلاً وجعل يفكر في اي شيء يغمه به ولكن مسلماً التفت اليه وقال بحياتي يا ابا علي اخبرني من الذي يقول :

بت في درعها وبات رفيقي   جنب القلب طاهر الاطراف

فاجابه دعبل على الفور :

من له في حرامه الف قرن   قد انافت على علو مناف

وجعل يشتمه و يثب عليه فقال له مسلم يا احمق منزلي دخلت ومنديلي

بعت ودراهمي انفقت على من تجرد ؟ واي شيء سبب حردك يا قواد فقال له مها كذبت علي في شيء فما كذبت في الحمق والقيادة

هذا ما حدث به الحسين بن دعبل الشاعر عن ابيه وسواء أكان هذا الخبر صحيحاً يميل البعض الى تصديقه لما يعرف عن شعر القيان وبديهتهن ام كان كذباً وسواء أكانت هذه الحادثة هي الموقعة الاولى التي حركت قلب دعبل وكادت وحدها تغيره على استاذه ام انه انضم اليها شيء آخر فإن دعبلاً لم يعد التلميذ البار ولا الصديق المخلص لشاعرنا

ومضى على تلك القصة زمن ليس بقليل ، حتى كان للفضل ابن سهل بمرو في خراسان من الصولة والجاه شيء عظيم ، فقصده مسلم وعليه هيبة الكهولة لينشده شعراً . فقال له الفضل ايها الكهل اني اجلك عن الشعر فسل حاجتك قال بل تستتم اليد عندي بان تسمع ثم انشده :

دموعها من حذار البين تنسكب

وقلبها مغرم من حرها يجب

جد الرحيل به عنها ففارقها

لبينه اللهو واللذات والطرب

يهوى المسير الى مرو ويحزنه

فراقها فهو ذو نفسين يرتقب

فقال له الفضل اني لاجلك عن الشعر قال فاغنني بما احببت من عملك فولاه البريد بجرجان

وسمع دعبل خبر (الوظيفة) الجديدة التي تولاها استاذه فشد الرحال وصار الى مروٍ فكتب الى الفضل بن سهل :

لاتعبأنْ بابن الوليد فانه يرميك بعد ثلاثة بملال
ابن الملول وان تقادم عهده كانت مودته كفيءِ ظلال

فدفع الفضل الرقعة الى مسلم وقال انظر يا ابا الوليد الى رقعة دعبل فيك فلما قرأها قال له هل عرفت لقب دعبل وهو غلام امرد يفسق به قال لا قال كان يلقب بمياس ثم كتب اليه :

مياّس قل لي اين انت من الورى لا انت معلوم ولا مجهول
اما الهجاء فدق عرضُك دونه والمدح عنك كما علمت جليل
فاذهب فأنت طليق عرضك انه عرض عززت به وانت ذليل

ثم جفاه مسلم وهجره ، فكتب اليه :

ابا مخلد كنا عقيدي مودة هوانا وقلبانا جميعاً معاً معا
احوطك بالغيب الذي انت حائطي واجزع اشفاقاً من ان تتوجعا
فصيرتني بعد انتكاثك متهماً لنفسي عليها ارهب الخلق اجمعا
غششت الهوى حتى تداعت اصوله بنا وابتذلت الوصل حتى تقطعا
وانزلت من بين الجوانح والحشا ذخيرة ود طالما قد تمنعا

فلا تلحيني ليس لي فيك مطمع　　تخرقت حتى لم اجد لك مرقعا
فهبك يميني استأكلت فقطعتها　　وجشمت قلبي صبره فتشجعا

ثم تهاجرا بعد ذلك وارخى الزمان والمنصب سبل العفاء على تلك الصداقة و بدل وصلها هجراناً فما التقيا حتى ماتا ·

فيا لك منصباً اقل ما فيك من شؤم وقبح نكث العهود وتقليب القلوب

ولا يعزى هذا الانقلاب الى مسلم بل الى دعبل ذي النفس الوثابة الطماحة دعبل التلميذ المخلص لأستاذه والمستقي من بحره الفياض المعترف باستاذيته والمتعصب له المائل اليه يرد على الفضل ليزيح استاذه وصديقه عن منصبه فيناله هو؛ ولكنه يقع في شر اعماله وكان خيراً له ان يبقى صديقاً لمسلم من ان يكون بينهما الهجران ·

هكذا تفعل الوظائف وهذه هي الحياة

واذا سجل الزمان على دعبل هذه الهفوة ·· الهفوة الشائنة ففي كل يوم نرى باعيننا ونسمع بآذاننا اموراً هي اشد هولاً على البشرية من تلك بل ان عمل دعبل لا يكاد يذكر امام فظائع الاثرة والشره واهوال المطامع البشرية الجبارة ·

مسلم بن الوليد الانصاري والحكم بن قنبر المازني

في يوم جمعة من ايام المجد الشعري كان المتجول بعد الصلاة في مسجد الرصافة يرى الحكم بن قنبر المازني ومسلم بن الوليد الانصاري آخذين بتلابيب بعضهما : كلٌ يود ان يزيد صاحبه لكماً وصفعاً حتى تكاثر الناس وحجزو بينهما فتفرقا ونفساهما على احر من النار غيظاً وحقداً ·

ذلك انه كان بين الاثنين من الهجاء ما حرك الانصار وما كاد يؤدي الى ما لا تحمد عقباه ·

وقد وقف في ذلك اليوم مسلم وقبض على ابن قنبر وقال له اسمع :

انا النار في احجارها مستكنة ... فان كنت ممن يقدح النار فاقدح

فاجابه ابن قنبر :

قد كنت تهوى وما قوسي بموترة ... فكيف ظنك بي والقوس في الوتر

فوثب اليه مسلم ولو لا ان حال الناس دونهما لما قنعا لبعضهما بغير الشرّ والاذى ·

وسبب المهاجاة التي كانت بينهما ان الطرِمّاح بن حكيم كان قد هجا بني تميم بقصيدته التي يقول فيها :

لاعز نصر امرئ اضحى له فرس ... على تميم يريد النصر من احد

اذا دعا بشعار الأزد نفرهم　　كما ينفر صوت الليث بالنقد
لو حان وِرْد تميم ثم قيل لهم　　حوض الرسول عليه الأزد لم ترِد
او انزل الله وحياً ان يعذبها　　ان لم تعد لقتال الازد لم تعد

وقد اجابه الفرزدق التميمي ثم ان ابن قنبر رد عليه قائلاً :

يا عاو يا هاج ليثاً بالعواء له　　شثن البراثن ورد اللون ذا لبد
اي الموارد هابت جمّ غمرته　　بنو تميم على حال فلم ترد
ألم ترد يوم (قنداييل) مُعلمةً　　بالخيل تصبر نحو الازد كالأسد
بقتية لم تنازعها فتطعنها　　بلؤمها طيّ ثدياً ولم تلد
خاضت الى الازد بحراً اذا غوارب من　　سمر طوال وبحراً من قنا قصد
فأوردتها منايها بِرُهفةٍ　　مُلس المضارب لم تُفْلِل ولم تكد

وهي طويلة ...

وهجا الطرماح تميماً مرة ثانية فقال :

تميم بطرق اللؤم اهدى من القطا　　ولو سلكت سبل المكارم ضلت
ارى الليل يجلوه النهار ولا ارى　　عظام المخازي عن تميم تجلت

فأجابه الفرزدق ايضاً وقال ابن قنبر ينقضها :

لعمرك ماضلت تميم ولا جرت　　على اثر اشياخ عن المجد ضلت
ولا جبنت بل اقدمت يوم كسرت　　لها الازد اغماد السيوف وسلت
بغائط قنداييل والموت جائل　　عليها بآجال لها قد اظلت

فما برحت تسقى كؤوس حمامها ... اذا نهلت كروا عليها فعلت
الى ان ابادتهم تميم وكذبت ... امانيَّ للشيطان عنها اضمحلت
وحان فراق منهم كلّ خدلةٍ ... مفارقةٍ بعلاً به ما تملت

وهي طويلة ايضاً ...

قيل ان هجاء ابن قنبر للأزد وطيٍّ ورده على الطرماح بعد موته بلغ كل ذلك مسلماً فغضب وقال ما المعنى من مناقضة رجل واثارة الشر بذكر القبائل لا سيما وقد اجابه الفرزدق عن قوله فأبى ابن قنبر الا تمادياً في مناقضته .

وهذا الغضب الذي ثار في نفس سريع دفعه لأن يهجو ابن قنبر ففعل ولم يجبه ذاك بل جاء بيته صريع وتعاتبا واعتذر كل واحد منهما الى صاحبه

ولكن الزمن لم يهنأ بهذا السلم بينهما وكلا الشاعرين من علمت في القدرة على الشعر فقد فكر مسلم بهجاء ابن قنبر ثانية فهجاه وكان من ذلك قوله :

حلم ابن قنبر حين اقصر جهله ... هل كان يحلم شاعر عن شاعر
ما انت بالحكم الذي سميته ... غالتك حلمك هفوة من قاهر
لولا اعتذارك لارتمى بك زاخر ... مرجُ العباب يفوت طرف الناظر
لا ترتعن لحمي لسانك بعدها ... اني اخاف عليك شفرة جازر

واستغنم العفو الذي اوتيتـه　　لا تأمننّ عقوبة من قادر

وظل مسلم يعرّض بابن قنبر فلا يجيبه هذا بشيءٍ حتى قال مسلم قصيدتة التي يفخر فيها بالانصار على قريش و يهجوها بها وهي

قل لمن تاه اذ بنا عز جهـلاً　　ليس بالتيـه يفخر الأحرار

ومنها

فاخرتنا لما بسطنا لهـا الفخـــر قريش ونخرها مستعار (١)

وكان مسلم قد نظم هذه القصيدة واخفاها لكنها وقعت الى ابن قنبر فوجد فيها مجالاً رحباً للنيل والانتقام فأغرى السلطان ليبطش به وقال :

الا أمثُلْ امير المؤمنين بمسلم　　واشف به الاحشاء من كل مجرم

ولا ترجعن عن قتله باستتابة　　فما هو عن شتم النبي بمُحرم

ومنها

و يفخر بالأنصار جهلاً على الذي　　بنصـرته فازوا بحظٍ ومغنم

و سُمُّوا به الانصار لا عزّ قائل　　اراد قريشـاً بالمقام المذمَّم

ومنهم رسول الله ازكى من انتمى　　الى نسب زاكٍ ومجد مقـدّم

وما كانت الانصار قبل اعتصامها　　بنصر قريش في المحل المعظم

ولـكنهم بالله عاذوا ونصـرهم　　قريشاً ومن يستعصم الله يعصم

---

(١) انظر بحث الهجاء في القسم الثاني من هذا الكتاب

ومنها وهي طويلة :

سأحطم من سلمى النبي تطاولاً عليه وا كوي منتماه بميسمي
أَيُبْدَلُ بيتٌ يثربي بكعبة ثوتها قريش في المكان المحرم
قريش خيار الله ، والله خصهم بذلك فانعس ايها العلج وارغم
ومن تدعى منه الولاء مؤخر اذا قيل للجاري الى المجد اقدم

في هذا المأزق الحرج لم يكن عند مسلم جواب اكثر من الانتفاء من القصيدة ونسبتها الى ابن قنبر والادعاء عليه انه الصقها به ونسبها اليه ليعرضه للسلطان فقال ينتفي منها ويهجوه :

دعوت امير المؤمنين ولم تكن هناك ولكن من يخف يتجشم
والك اذ تدعو الخليفة ناصراً لكالمترقي في السماء بسلم
كذاك الصدى تدعوه من حيث لا ترى وان تتوهمه نمت في التوهم
هجوت قريشاً عامداً ونحلتني رويدك يظهر ما تقول فيعلم
فان قريشاً لا يغادر ودها ولا يستمال عهدها بالترجم

ومنها :

فاصبحت ترميني بسهمي وتتقي يدي بيدي اصليت ثارك فاضرم

ولم تكن ردود مسلم لتخرج عن حيز الادب ومكارم الاخلاق ولكن ابن قنبر عاد فاسف في القول ولم يكن صحيحاً ما قاله عن نفسه في قصيدة جديدة يهجو بها مسلماً :

أفأرضى ومنصبي منصب العـــز و بيتي في ذروة الاحساب
ان أحط الرفيع من سمك بيتي بمهاجاة أوشب الاوشاب

اذ لا يكون طيب النفس من يقول مثل هذين البيتين :

قل لعبد النضير مسلم الوغــد الدني اللئيم سنخ النصاب
اخس يا كاب اذ نبحت فاني لست ممن يجيب نبح الكلاب

فلم يجبه مسلم عنها بشيء لما رآه من تدني ابن قنبر واسترسل هذا في الهجاء وانقلبت الآية ، فبينما كان مسلم يهجو وابن قنبر ساكتاً اذ صار ابن قنبر يقول ما يشاء ومسلم صامتاً فكان مما قاله ابن قنبر :

لست أنفيك ان سواي نفاكا عن ابيك الذي له منتماك

وهي طويلة فلم يجبه مسلم أيضاً

وقد يكون اغضاؤه عنه ترفعاً شأن الشعراء الكبار ، ولكنه لم يكن مصيباً في سكوته طويلا حتى طغى ابن قنبر وتمادى وحتى لم يجد من يردعه عن الهجاء فسار غير هياب احداً يقذع في هجاء الانصار انما اقذاع وليس لاولئك من شاعر يذب عنهم غير مسلم الساكت

قالوا ان ابن عم لمسلم جاءه بعد ان امسك عن هجاء ابن قنبر فقال له انك عند الناس فوق ابن قنبر في عمود الشعر وقد

بعثت عليك لسانه ثم امسكت عنه بعد ان امكنته من اعراضنا وارعيته لحومنا !!. .. فقال له مسلم ان لنا شيخاً وله مسجد يتهجد فيه وله بين ذلك دعوات يدعوبهن ونحن نسأله ان يجعله من بعض دعواته فانا نكفاه . فاطرق الرجل ساعة ثم قال :

غَلب ابن قنبر واللئيم مُغَلَّب   لما اتقيتَ هجاءه بدعاء

مازال يقذف بالهجاء ولذعه   حتى اتقوه بدعوة الاباء

فقال له مسلم وكاد يموت غماً والله ما كان ابن قنبر يبلغ مني هذا كله فامسك لسانك عني وتعرّفْ خبره بعد هذا

قالوا فحميَ صريع وبعث والله على ابن قنبر من لسانه ما أسكته ومزقه وهتكه زمناً قليلاً

ولكن مسلماً كان في آخر الامر ساكتاً أيضاً حتى ضج من ذلك الانصار

والمدى الذي انتهى اليه هذا الهجاء ان ابن قنبر نظم قصيدة الفحش في معناها يهجو بها مسلما وقومه وكان فيها غاية الاقذاع منها :

فخر العبد عبد قن اليهود   بضعيف من فخره مردود

فاخر الغر من قريش باخوا   نِ خنازير يثرب والقرود

فلما تجاوز الحد في القول ومسلم ممسك عنه ممتلئ حلما لا يجيبه بشيء

مشى اليه قومه من مشايخ الانصار واستعانوا بمشيخة من قراء تميم وذوي الفضل والعلم منهم فقالوا له الا تستحيي من ان تهجو من لا يجيبك الم تره قد كف وعاودت انت ذكر اعراض الانصار التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحميها ويذب عنها ويصونها لغير حال احلت لك ذلك منهم؟ فما زالوا به يعظونه ويقولون له كل قول حتى امسك .

قال صاحب الاغاني : « حدثني بخبر مناقضة ابن قنبر جماعة وذكروا قصائدهما جميعاً فوجدت في الشعر الفضل لابن قنبر عليه لان له عدة قصائد لا نقائض لها يذكر منها تعريده عن الجواب وقصائد يذكر فيها ان مسلما نخر على قريش وعلى النبي صلى الله عليه وسلم ورماه باشياء تبيح دمه فكف مسلم عن مناقضته خوفاً منها وجحد اشياء كان قالها فيه » .

فالاقصار اذن وعدم ذكر نقائض والفخر على قريش هو الذي جعل مسلما أقل من ابن قنبر في الهجاء عند ابي الفرج ولكنا نميل الى ان مسلما كان يستطيع اسكاته لو جاراه بالشعر وقد تركه ترفعاً لا عجزاً وقد رأيت ، وتستطيع ان ترى اكثر من ذلك في الاغاني نفسها ان ابن قنبر استعمل من الالفاظ والمعاني في التهاجي مع مسلم ما تشمئز منه النفوس وهذا هو السبب في اقصار شاعرنا على ما اعتقد .

صريع الغواني

عند الخليفة الرشيد

المدح الذي كان يحرك الشعراء لنيل الجوائز والعيش برفاه — جعل لمسلم اهدافاً من الامراء يمدحهم فينيلونه العطاء وكانت اهدافه كلها في مدح من هو دون الخليفة ولم يكن ينظم فيه وكان يساوره من عدم مدحه الخليفة ونواله جوائزه ألم كبير فكان يقول : « ارى نفسي تذوب حسرات من ان يحوي جوائز الخلفاء من لا يوازيني في ادب ولا يماثلني في نسب ولا يصلح ان يكون شعره خادماً لشعري ».

وكان يرضى بما يناله على كره منه فيجمع اخوانه في داره ولا يظهر الا وقد افتقر كما سترى في الابحاث الآتية .

وظهر ذات يوم فلقي منصور بن زيد بن منصور الحميري بباب الرشيد فسلم عليه فتحفى به المنصور واكرمه ثم دعاه الى ان يقوم بشأنه عند الرشيد فسأله عن احواله فأخبره بما يصنع لكونه كاليائس من قرب الخليفة او ان يعد في مادحيه وفيمن يجري عليهم ارزاقه وانه جعل يسليه ذلك الشرب واللهو ومحادثة الاخوان فقال له الحميري اني سأتأتى لوصولك الى الخليفة بعد ان اقرر

عنده من وصفك وقريب نسبك وما يجب لسبقك وتقدمك في الصناعة ما يكون كافياً عن شعرك ومغنياً عن ذكر فضائلك ·

فدخل فصادف امير المؤمنين قد اشتمل عليه الفكر فقال له يحيى ما بك يا امير المؤمنين قال الفكر في ساعة تقضى امور الدنيا واسنا نتشبث منها بشيء الا صار كالظل الزائل فقال له جعفر يا امير المؤمنين افتظن هذا الفكر يحبس عنك الايام او يمنعك مما تستمتع به انما هو زائر عارض وقد كان كيومرد يقول وكان من أجلّ ملوك العجم : الهمّ مدهشة للقلب ومضلة للفهم ومفسدة للنفس ومن اعظم الخطأ التشاغل بما لا يمكن دفعه ومع الهمّ تمني الموت ، وقد قالت الحكماء بالسرور يطيب العيش · وقال له سليمان بن ابي جعفر يا امير المؤمنين يروى عن القس انه قال من يملك يستأثر ومن لا يستشر يندم والهم نصف الهرم والفقر الموت الاكبر

عند ما سمع الخليفة ذلك كله بدا كأنه نشيط وطلب دفع ما عراه من ذلك الفكر فتقدم الحميري فقال يا امير المؤمنين خلفت بالباب آنفاً رجلاً من اخوالك الانصار متقدماً في شعره وادبه وظرفه وان كان قد أخر عنك فقد انشدني قصيدة يذكر فيها صبوته وانسه ولعبه ومجالس اتصلت له بابلغ قول واحسن

وصف واقرب رصف تبعث والله يا امير المؤمنين على الصبابة والفرح وتباعد عن الهم والترح وكأنه قد وفق بيمن امير المؤمنين وسعادة جده ان يكون مبرئاً لهذه الشكوى وزائداً في سرور الخليفة ومستدعياً منه صلة رحمه والتجمل بخدمته

فاستفز الخليفة السرور في دخوله واستماع قصيدته وجعل يتبع الرسل اليه بعضهم وراء بعض حتى دُخل به في وقت كان قد خرج من الشباب ونزقه ولم يكن في عداد من اضطرب حياةً وكان له فهم وتجربة وتمييز ومعرفة ، فأُمهل حتى تراجع ثم اذن له في الجلوس والانبساط واستدعى منه ان يزيد في الانسة فانبرى ينشد والرشيد يتطاول اليه ويستحسن ما يقول من وصف شراب ولهوٍ ودماثة وغزل ثم امر له بمال وافر وان يتخذ له مجلس خلوة ثم تحول اليه . وجعل الخليفة واصحابه يتناشدون قصيدة مسلم وكان مطلعها :

اديرا عليَّ الكأس لا تشربا قبلي ولا تطلبا من عند قاتلتي ذحلي (1)

وفيها :

هل العيش الا ان تروح مع الصبى صريع حميا الكأس والاعين النجل

---

(١) الذحل طلب الدم

فسماه يومئذ الرشيد بهذا البيت صريع الغواني

وسأله رجل بعد ذلك لم تدعى صريع الغواني فانشأ يقول :

ان ورد الخدود والاعين النجـــل وما في الثغور من اقحوان

واسوداد الصدغين في واضح الخد وما في الصدور من رمان

تركتني لدى الغواني صريعاً فلهذا ادعى صريع الغواني

ولكنه مل اخيراً هذا اللقب وحينما نظم قصيدته التي مطلعها

لا تدع بي الشوق اني غير معمود (١)

سأله دعبل وكان صاحبه عن معنى هذا الشطر فقال لا تدعني صريع الغواني فلست كذلك واصبح يكره هذا اللقب لبلوغه سناً لا تحسن معها القاب الخلاعة والهوى .

(١) وتتمة الشطر : نهي النهى عن هوى الهيف الرعاديد

انقطاع مسلم عن الخليفة

مذهبه السياسي

لم تكن عصور العربية الاولى تخلو من خصومة سياسية يصلى بنارها كبار الناس من زعماء وادباء . وكان الشاعر في تلك الايام يقوم مقام الصحافة في هذا اليوم ، فقد كان لسان الحزب الناطق وعلى لسانه تجري مبادئ طائفته ومشايعيه في رأيه . وقد كان حسان بن ثابت رضي الله عنه شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الاخطل شاعر بني امية وما كانوا يحبسون خيرهم عن سواه من الشعراء .

اما العباسيون فيظهر انهم لم يتخذوا شاعراً واحداً يكرس كل حياته للذب عنهم بل اكرموا كل من قصدهم من الشعراء وقلما كان يتأخر شاعر عن ان يقصدهم او ان يحعل دون بلوغه اليهم من يمهد له السبيل من عظماء الدولة .

وكانت العصبية العباسية زمن الرشيد بالغة اشدها وكان الضغط السياسي على العلويين ابناء فاطمة عظيماً جداً ، فلم يقتصر الأمر على مقاومة الحريات الشخصية بل تعداه كما روى صاحب العقد الفريد

الى قتل المتشيعين لغير المبدأ العباسي ثم ازداد الرشيد في التنكيل حتى وصل الى قتل ابناء فاطمة مع شيعتهم ٠

قالوا وكان مسلم بن الوليد قد رمي بالتشيع عند الرشيد فامر بطلبه فهرب عنه ثم وجد هو وانس بن ابي شيخ عند قتيبة ببغداد فلما اتي بهما قيل له يا امير المؤمنين أتي بالرجلين قال اي الرجلين قيل انس بن ابي شيخ ومسلم بن الوليد فقال الحمد لله الذى اظفرني بهما ٠٠٠ يا غلام ٠ ٠ احضرهما ٠٠٠ فلما دخلا عليه نظر الى مسلم وقد تغير لونه وقال يا مسلم انت القائل :

أَنِسَ الهوى ببني عليٍّ في الحشا
واراه يطمح عن بني العباس

قال بل انا الذي اقول يا امير المؤمنين :

أَنِسَ الهوى ببني العمومة في الحشا
متوحشاً من سائر الأُناس
واذا تكاملت الفضائل كنتمُ
اولى بذلك يا بني العباس

فعجب الرشيد من سرعة بديهته وقال له بعض جلسائه استبقه يا امير المؤمنين فانه من اشعر الناس وامتحنه فسترى منه عجباً فقال له قل شيئاً في انس فقال يا امير المؤمنين أفرجْ روعتي افرجَ

الله روعتك يوم الحاجة الى ذلك [1] ثم انشأ يقول :

تلحَّظَ السيف من شوق الى انس ... فالموت يلحظ والاقدار تنتظر

فليس يبلغ منـــه ما يؤمله ... حتى يؤامر فيه رأيك القدر

امضى من الموت يعفو عند قدرته ... وليس للموت عفو حين يقتدر

فاجلسه هرون وراء ظهره لئلا يرى ما هم فيه حتى اذا فرغ من قتل انس قال له انشدني اشعر شعر لك فكلما فرغ من قصيدة قال له زد حتى قال له انشدني التي تقول فيها « الوحل » فانشده قصيدته التي يقول في مطلعها :

اديرا عليّ الراح لا تشربا قبلي ... ولا تطلبا من عند قاتلتي ذحلي

حتى انتهى الى قوله :

اذا ما علت منا ذؤابة شارب ... تمشت بنا مشي المقيد في الوحل

فضحك هرون وقال اما رضيت ان قيدته حتى يمشي في الوحل ؟

وخرج بعد ذلك مسلم كانما كان في غابة الاسد وقنع بامرائه بمدحهم مبتعداً عن ابهة الملك وجلاله خشية وشاية ثانية تذهب بحياته على انه اذا ابتعد عن الملك فهو لم يعمل على تقويضه ولا كان

---

(١) وفي رواية الاغاني زيادة على ما تقدم قوله : «فاني لم ادخل على خليفة قط» ولا يخفى ما في هذا من التباين مع رواية الاغاني نفسها من ان مسلماً كان اتصل بالخليفة كما رأيت ذلك في الفصل السابق .

ممن لهم رأي صريح في ذلك لان شبح السيف والنطع ، وتلمظ السيف المشتاق الى انس كان لا يبرح مخيلته . وماله ولهذا الموضوع الطويل العريض لا يعلم ما هي نتيجة وربما كان هناك الحتف المحتوم او العيش المشؤوم وهو في غنى عن هذا كله .

وانت اذا ذكرت التعصب على قريش لاستئثارها بالخلافة وعلى العباسيين خاصة لتصرفهم بالملك والتفاف المتشيعين للعلويين مع من يناصرهم من اليمانيين المناهضين ابناء عدنان ، والشعوبين القائلين بتفضيل العرب على العجم وفيهم الشعراء والعلماء ، والمسترين برداء التشيع ، واذا رأيت مساعي هؤلاء كلهم تتوحد في نضال بني العباس خاصة وقريش عامة — ادركت حينئذ حرج موقف الشاعر في تلك الايام وهو اللسان الناطق وعلمت ان الخليفة صنع جيداً بتهديده صريعاً والعفو عنه وجعله اداة صامتة لا تدعو الى جهة من الجهات ابقاءً على نفسه

ولم يكن صريعٌ ذلك الذي يهمه من الحياة تملك العلويين وسجال العباسيين وما كان بالمتعصب لرأيه والمناضل عنه جهاراً على ما يظهر بل كان كل العيش عنده ان يعيش عيش لذة وهناء وهذا كل شيءٍ لديه :

هل العيش الا ان اروح مع الصبى　　　صريع حميا الكأس والاعين النجل

ذلك هو معتقده الذي يذهب اليه ، وقدماً كان طمع المرء في الحياة والعيش سبباً في ازوراره عن بعض معتقداته السياسية .

ولكن هل تبرأ صريح من تشيعه تبروءاً صحيحاً ؟

نحن لا نطمئن الى ذلك ابداً ولو ظهر لنا بمظهر البريء النقي لأن سابقة مسلم في التشيع ومعاشرته الفضل بن سهل السرخسي — وكان يتشيع أيضاً — وملازمته اياه يمكن ان يحمل على ان مسلماً صادف عنده مجالاً رحباً للتحدث عن مذهبه وان معتقدهما الواحد في التشيع جعل منهما صديقين صميمين قبل تولي الفضل الوزارة عند المأمون وبعدها .

وتشيع مسلم للبيت الفاطمي لم يكن ليجعل منه رجلاً ميالاً الى الفرس دعاة الشيعة ولا الى محبة الفرس وتفضيلهم فيصبح شعوبياً

ولقد كان يجري بمدح قريش طمعاً بارضاء الخلفاء كما جرى بهجوها قبل اتصاله بهم ولما ادرك ان العيش يقتضي التعصب لقريش ليغدق عليه الخليفة انعامه فيؤمن لذاته لم يتأخر عن مدحهم فنال مما في ايديهم خيراً كثيراً .

يقول اذ مدح محمداً الامين :

حلت قريش العلى في كل مكرمة   وحل بيتك في اعلى اعاليها

وفي مدح محمد بن المنصور بن زياد :

الملك في قريش لهاشم منقاد

ومن مدح داود بن حاتم بن خالد بن المهلب

الى بني هاشم ادي ركائبنا خوض الدجى وسرى المهرية القود

ولو لا ما قاله في تهاجيه مع ابن قنبر عن قريش :

فاخرتنا لما بسطنا لها الفخـر قريش وفخرها مستعار

لقلنا انه يتعصب لقريش ... على ان لسان الشاعر يقول ....

وهو مع ذلك لم يخرج عن كونه متعصباً للأنصار على قريش متشيعاً في رأيه السياسي لأبناء فاطمة عليها السلام ولكن ... ولكن كأس نبيذ عنده تعقبها لذة رائعة خير من قصيدة سياسية يتبعها اذى فتلقي به في العذاب الأليم .

صريع الغواني

عند عظماء الدولة

يدهش المرء للمبالغ الطائلة التي نالها شاعرنا في حياته والتي انفقها على اهوائه ولذاته فمن نفحه بتلك الدنانير الوهاجة والدراهم الوضاءة ؟

لم يتبذل مسلم في السؤال من الناس شأن سواه من الشعراء بل صرف وجهه الى الخواص من الامراء والقواد والوزراء البرامكة ولم يتأخر عن مديح الخليفة فكان قليلاً عدد الذين مدحهم اذ لم يكن يطمع في الحياة بغير اللذة (كما تعلم) وهو يؤمنها بلا عدد كبير ينفق وقته في استقطاره ولو شئنا استقصاء اخباره مع ممدوحيه لمللت ومللنا ولكننا نقتصر على نتف قد نستفيد منها في مواضع شتى ٠

فكان ممن انقطع شاعرنا اليهم الفضل بن سهل وهو من تعرف مكانته في الدولة العباسية حتى نقل امره على المأمون فارسل اليه من قتله بسرخس في الحمام على حين غرة سنة ٢٠٢ او ٢٠٣ وعمره ٤٨ او ٤١ على ما يذكر ابن خلكان ٠

كان مسلم صديقاً للفضل ، صداقة ممرعة مخلصة فلما تولى الفضل الوزارة اتاه صديقه مسلم فلم يجد منه ما تغير المناصب من نفوس الناس بل سر به وقال له هذه الدولة التي يرفع فيها حالك الحال [1] ، وامر له بثلاثين الف درهم وقلده أعمالاً بجرجان اكتسب منها الف الف درهم فلما حصل المال عده لزم منزله وكان كريماً سمحاً فاتلف جميع ما اكتسبه ثم صار الى الفضل بن سهل بعد ذلك مستجدياً فقال له الم اغنك فقال ما غناي في الف الف والف الف الف ولا هي قدرك ولا قدري فقال له الفضل ان بيوت الاموال لا تقوم على هذا الفعل ثم قلده الضياع باصبهان وضم اليه رجلاً يأخذ مرافق العمل ويطلق له منها شيئاً يحتاج اليه بقدر نفقته ويبتاع له بالباقي ضياعاً فاكتسب الف الف درهم ابتيع له بها ضياع وولاه الفضل البريد بجرجان ايضاً ٠

وقد قالوا انه كان منقطعاً للبرامكة قبل انقطاعه للفضل ٠

واتصل بيزيد بن مزيد قبل ذلك وكان هذا يؤثره ويقدمه ويجزل صلته ٠

واول ما كان من معرفته به ان البيدق الراوية دخل دار

---

(١) اشارة الى قول مسلم :

فاصبر مع الدهر الى دولة   تحمل فيها حالك الحال

يزيد بن مزيد يوماً وفيها خلق كثير واذا فتى شاب جالس في افناء الناس ولم يكن يزيد قد عرفه بعد واذا هو مسلم بن الوليد فاقترب الراوية وتعارفا فقال الشاعر ما في نفسي ان اقول شعراً ابداً فقال البيدق ولمَ قال لاني قد مدحت هذا بشعر ما مدح بمثله قط ولست اجد من يوصله فقال انشدني بعضه فانشده منه :

موفٍ على مهج واليوم ذو رهج كانه اجل السعى الى امل

فاخذ الراوية بيتين ثم قال له انشدني ايضاً مالك فانشده قصيدة اخرى ابتداؤها :

طيف الخيال حمدنا منك الماما داويت سقماً وقد هيجت اسقاما

وفيها يقول :

كالدهر لا ينثني عمن يهم به قد اوسع الناس انعاماً وارغاما

فانشد الراوية هذه الابيات يزيد بن مزيد فامر لمسلم بخمسمائة درهم فذكره له بالرقة وقال هذا الشاعر الذي قد مدحك فاحسن نقتصر به على خمسمائة درهم فبعث اليه بخمسمائة درهم اخرى فأتته هذه الدراهم ووقعت منه على احسن موقع اذ كان قد رهن طيلسانه لفقره وكرمه .

وتوالى بعد ذلك احسان يزيد الى مسلم فقد حدث شاعرنا عن نفسه فقال : « كنت يوماً جالساً بازاء منزلي في دكان خياط اذ رأيت

طارقاً ببابي فقمت اليه فاذا هو صديق لي من اهل الكوفة قد قدم من « قم » فسررت به و كأن انساناً اطم وجهي لانه لم يكن عندي درهم واحد انفقه عليه فقمت فسلمت عليه وادخلته منزلي واخذت خفين كانا لي اتجمل بهما فدفعتهما الى جاريتي و كتبت رقعة الى بعض معارفي في السوق اسأله ان يبيع الخفين و يشتري لي لحماً وخبزاً بشيء سميته له فمضت الجارية وعادت اليَّ وقد اشترى لها ما قد حددته له وقد باع الخفين بتسعة دراهم فكأنها انما جاءت بخفين جديدين فقعدت انا وضيفي نطبخ وسألت جاراً لي ان يسقينا قارورة نبيذ فوجه بها اليّ وامرت الجارية ان تغلق باب الدار مخافة طارق يجيء فيشركنا فيما نحن فيه ليبقى لي وله ما نأكله الى ان ينصرف٠

فانا لجالسان نطبخ اذ طرق الباب طارق فقلت لجاريتي انظري مَن هذا فنظرت من شق الباب فاذا رجل عليه سواد وشاشية ومنطقة ومعه شاكري فخبرتني بوصفه فانكرت امري ثم رجعت الى نفسي فقلت لست بصاحب دعارة (!?) ولا للسلطان علي سبيل ففتحت الباب وخرجت اليه فنزل عن دابته وقال أانت مسلم بن الوليد قلت نعم قال كيف لي بمعرفتك قلت الذي دلك على منزلي يصحح لك معرفتي فقال لغلامه امض الى الخياط

فسله عنه فمضى فسأله عني فقال نعم هو مسلم بن الوليد فاخرج الي كتاباً من قفة وقال هذا كتاب الامير يزيد بن مزيد اليّ يأمرني ان لا افضه الا عند لقائك فاذا فيه :

«اذا لقيت مسلم بن الوليد فادفع اليه هذه العشرة آلاف درهم التي انفذتها وادفع اليه ثلاثة آلاف درهم نفقة ليحمل بها الينا .»

فاخذت الثلاثة والعشرة ودخلت الى منزلي والرجل معي فأكلنا ذلك الطعام وازددت فيه وفي الشراب واشتريت فاكهة واتسعت ووهبت لضيفي من الدراهم ما يهدي به هدية لعياله واخذت في الجهاز ثم صرت اليه وكان في الحمام فجلس معي الحاجب قليلاً ثم خبرّ انه قد خرج من الحمام فادخلني اليه واذا هو على كرسي جالس وعلى رأسه وصيفة بيدها غلاف مرآة وبيده هو مرآة ومشط يسرح به لحيته فقال لي يا مسلم ما الذي أبطأ بك عنا فقلت ايها الامير قلة ذات اليد قال فانشدني فانشدته قصيدتي التي مدحته بها وهي :

اجررت حبل خليع في الصبى غزل وشمرت همم العذال في العذل

فلما صرت فيها الى قولي :

لا يعبق الطيب خديه ومفرقه ولا يمسح عينيه من الكحل

وضع المرآة في غلافها وقال للجارية انصرفي فقد حرّم علينا مسلم الطيب فلما فرغت من القصيدة قال لي يا مسلم اندري ما الذي حداني

على ان وجهت اليك فقلت لا والله ما ادري قال كنت عند الرشيد منذ ليالٍ اغمز رجليه اذ قال لي يا يزيد من القائل فيك :

سل الخليفة سيفا من بني مطر   اقام قائمه من كان ذا ميل [1]

فقلت لا والله ما ادري فقال لي الرشيد يا سبحان الله انك المقيم على اعرابيتك !! يقال فيك مثل هذا الشعر ولا تدري من قائله ! فسألت عن قائله فأخبرت انك انت هو فقم حتى ادخلك على امير المؤمنين

قال مسلم : فدخل على الرشيد فما علمت حتى خرج علي الاذن فأذن لي فدخلت على الرشيد فانشدته ما لي فيه من الشعر فأمر لي بمائتي الف درهم .

ثم افضت بي الامور بعد ذلك الى ان اغضبني يزيد فهجوته فشكاني الى الرشيد فدعاني وقال اتبيعني عرض يزيد فقلت نعم يا امير المؤمنين فقال لي بكم فقلت برغيف فغضب حتى خفته على نفسي وقال قد كنت ارى ان اشتريه منك بمال جسيم ولست افعل ولا كرامة فقد علمت احسانه اليك وانا نفي عن ابي والله ثم والله لئن بلغني انك هجوته لانزعن لسانك من بين فكيك فامسكت عنه بعد ذلك وما ذكرته بخير ولا شر . » هذا ما حدثنا به عن نفسه

---

(١) و يروى الشطر الثاني « اقام قائم من قد كان ذا ميل » ولعله اوفق .

ثم ان شاعرنا اتصل بابن يزيد محمد ومدحه كما مدح اباه من قبل فلم يصنع اليه خيراً ولم يرضه ما فعله به فهجره وانقطع عنه فكتب اليه يستجفيه و يلومه على انقطاعه و يذكره حقوق ابيه عليه فكتب اليه مسلم :

لبست عزاءً عن لقاء محمد   واعرضت عنه منصفاً وودودا
وقلت لنفسٍ قادها الشوق نحوه   فعوضها حب اللقاء صدودا
هبيه امرءاً قد كان اصفاك وده   فمات والا فاحسبيه يزيدا
لعمري لقد ولّى فلم الق بعده   وفاءً لذي عهد يعد حميدا

ولعل مسلماً كان نادماً على ما فرط منه في هجاء يزيد بن مزيد اذ يعترف بآخر ما اوردناه لك ان يزيد كان على جانب حميد من الوفاء والكرم يدلك على ذلك البيتان اللذان سنأتي على ذكرهما في الرثاء ايضاً اذ يقول:

لتبكك قبة الاسلام كما   وهت اطنابها ووهي العمود
و يبكك شاعر لم يبق دهر   له نشباً وقد كسد القصيد

وكان ممن مدحهم مسلم ، داود بن يزيد بن حاتم وفي هذه القصة التي سنذكرها لك دليل على طابع مسلم الخاص في شعره وقد عرف به

كان داود بن يزيد بن حاتم المهلبيّ يجلس للشعراء في السنة

مجلساً واحداً فيقصدونه في ذلك اليوم و ينشدونه فوجه اليه مسلم راويته بشعره الذي يقول فيه :

جعلته حيث ترتاب الرياح به   وتحسد الطير فيه اضبع البيد

فقدم عليه يوم جلوسه للشعراء ولحقه بعقب خروجهم عنه فتقدم الى الحاجب وحسر لثامه عن وجهه ثم قال له استأذن لي على الامير قال ومن انت ؟ قال شاعر . قال قد انصرم وقتك وانصرف الشعراء وهو على القيام ، فقال له ويحك اني قد وفدت على الامير بشعر ما قالت العرب مثله وكان مع الحاجب ادب يفهم به ما يسمع فقال هات حتى اسمع فان كان الامر كما ذكرت اوصلتك اليه ، فأنشده بعض القصيدة فسمع شيئاً يقصر الوصف عنه فدخل على داود فقال له قد قدم على الامير شاعر بشعر ما قيل فيك مثله فقال ادخل قائله فأدخله فلما مثل بين يديه سلم وقال قدمت على الامير اعزه الله بمدح يسمعه فيعلم به تقدمي على غيري ممن امتدحه فقال هات : فلما افتتح القصيدة وقال :

لا تدع بي الشوق اني غير معمود   نهي النهى عن هوى الهيف الرعاديد

لو شئت لا شئت راجعت الصبى ومشت   فيّ العيون وفاتتني بمجلود

استوى الامير جالساً واطرق حتى اتى الرجل على آخر الشعر ثم رفع داود رأسه اليه فقال : اهذا شعرك؟ ! قال نعم اعز الله الامير قال

في كم قلته يا فتى قال في اربعة اشهر ابقاك الله قال لو قلته في ثمانية اشهر لكنت محسناً وقد اتهمتك لجودة شعرك وخمول ذكرك فان كنت قائل هذا الشعر فقد انظرتك اربعة اشهر في مثله وامرت بالاجراء عليك فان جئتنا بمثل هذا الشعر وهبت لك مائة الف درهم والاَّ حرمتك فقال او الاقالة اعز الله الامير ؟ قال قد اقلتك ، قال الشعر لمسلم ابن الوليد وانا راويته والوافد عليك بشعره فقال انا ابن حاتم ، انك لما افتتحت الشعر فقلت :

لا تدع بي الشوق اني غير معمود   نهي النهى عن هوى الهيف الرعاديد

سمعت كلام مسلم يناديني فأجبت نداءه واستويت جالساً ثم قال يا غلام اعطه عشرة آلاف درهم واحمل الساعة الى مسلم مائة الف درهم ·

ومدح شاعرنا محمد بن منصور بن زياد بقصيدة كان مطلعها سبب تشاغب مسلم وابي نواس كما رأيت ذلك في بحث الشعراء المعاصرين ·

ومدح الخليفة واتصل به كما رأيت ذلك ايضاً ·

ونقتصر بعد على هذا الجزء اليسير من اخباره مع ممدوحيه ففيه بيان لما كان لمسلم من المكانة بسبب شعره ·

غنى الشاعر وفقره وكرمه

يحسن بنا بعد ان حدثناك بشيء عن اخبـاره ان نذكر لك شيئاً عن غناه وفقره وسبب ذلك

ولا بد ان نفعم هذا الفصل قصصاً منتخبة نكتفي بجزء منها لنرى شيئاً من الاموال الضخمة التي نالها مسلم في حياته والتي انفقها وبددها شأن المبذرين الخليعين ·

تعلم ولا شك ان غاية شاعرنا من الحياة هي اللذة وان كل فلسفته قائمة عليها كما سترى ذلك ولم تكن الاموال عنده الا واسطة لغايته فاذا كدح ومدح فمن اجل مال يساعده على طغيانه ودعارته وخمرته وقيناته وما انقلب في يوم من الايام من حب جمع المال الى حب المال نفسـه وما كان يطمع في مدح عظماء الناس كالخليفة والامراء الا طمعاً بالمال مبعث اللذة اللهم الا ما كان من مدحه بعض الاخوان اخاءً ووفاءً

وكان كسوباً وهوباً لا يبقي على المال ولا يذر · اذا كسب مالاً جمع جمعاً من اصحابه فلم يخرج من بيته ، اكلاً وشرباً ولعباً ولهواً حتى يبقي مما كسب قوت شهر فيظهر ·

وما يكاد يبدو وقد رهن طيلسانه ليأكل حتى يأتيه الخير لان

الجواد مرزوق ابداً وقد عرف مسلم بذلك فكان ظهوره ظهور خلته وفقره . ورآه الناس ذات يوم جالساً في دكان خياط بازاء منزله وليس عنده مال ابداً فجاءه صديق ثم اعقبه بعد برهة رسول يزيد بن مزيد واعطاه ثلاثة عشر الف درهم كما قرأت ذلك في الفصل السابق ثم دخل به على الرشيد فامر له بمائتي الف درهم وامر له يزيد بمائة وتسعين الفاً واقطعه اقطاعات تبلغ غلتها مائتي الف درهم .

هذه الصفقة الرابحة وحدها تغني عن كل مديح ولكنها ذهبت هباء لما كان عليه من كرم .

وانت اذا ذكرت كثرة النقود في تلك الايام وان كثرتها تكون سبباً في غلاء الاسعار لان الرخص دليل الفقر كما قرر ذلك علماء المالية والاقتصاد اذا ذكرت ذلك اعتقدت ان المائة كانت تعطي اكثر من عشرة ريعاً فيكون ثمن الضياع التي دخلت في ملك شاعرنا مليوني درهم واذا قلت ان كل ثمانيــة دراهم تعادل ديناراً والدينار يعادل ليرة افرنسية ذهباً تقريباً فيكون ثمن الضياع خمسين ومائتي الف دينار .

هذا وقد امر له يزيد ذات يوم بخمسين الف درهم وطلب منه العذر فخرج الحاجب فقال لمسلم قد امرني ان ارهن ضيعة من ضياعه

على مائة الف درهم خمسون الفاً منها لك وخمسون الفاً لنفقته فاعطاه اياهـا . و بلغت هذه القصـة الرشيد فامر ليزيد بمائتي الف درهم وقال اقض الخمسين التي اخذها الشاعر وزده مثلها وخذ مائه الف لنفقتك . فافتك ضيعته واعطى مسلماً خمسين الفاً اخرى .

واول ما احتاز مسلم من يزيد الف درهم في بدء اتصاله به .

ونال من داود بن يزيد بن حاتم المهلبي مائة الف درهم ونال راويته ايضاً عشرة آلاف درهم غيرها كما مر .

وكان يزيد بن مزيد قد سأل مسلم بن الوليد عما يكفيه ويكفي عياله فاخبره فجعله له جراية ثم قال ليس هذا بدلاً مما تحاسب به من جائزة او ثواب مديح .

ولكن مـا هو المبلغ الذي يكفي مسلماً وعياله وكرمه ومجونه . ؟

اذا علمنا ان الفضل كان قد اكرمه بتقليده اعمالاً اكتسب منها الف الف درهم ثم اهلكها فجاءه مستجدياً ولم يمض عام على ذلك . واذا اضفنا الى ذلك ما نعرفه من مجونه وكرمه وغلاء الاسعار في تلك الايام رأينا اننا غير مكثرين اذا قدرنا الجراية في كل عام بالف الف درهم (ميليون) ولنفرض انه تناولها خمس سنين فقط فيكون قد تناول منه خمسة ملايين درهم جراية تدخل فيها الجوائز

وثواب المديح وقد كان ذلك منفصلاً عن الجراية

ثم انك تذكر ولاشك انه اكتسب من توليه الضياع الف الف درهم ابتاع بها ضياعاً خلا مصروفه وتبذيره . ولا تنس ايضاً ثلاثين الف درهم نالها من الفضل اول توليه الوزارة

ودخل عليه مرة فانشده من قصيدة لم نعثر عليها في ديوانه :

لو نطق الناس اواثنوا بعلمهم ونبأت عن معالي دهرك الكتب
لم يبلغوا منك ادنى ما يمد به اذا تفاخرت الاملاك وانتسبوا

فامر له عن كل بيت بالف درهم ولنفرض انه لم ينل الا الفين . وجلس الفضل بن جعفر للشعراء ذات يوم وقد كان اتاه خبر سره فمدحوه واثابهم ونظر في حوائج الناس فقضاها وتفرق الناس عنه وجلس للشرب ومسلم بن الوليد غير حاضر لذلك وانما بلغه حين انقضي المجلس فجاءه فادخل اليه فاستأذن في الانشاد فاذن له فانشده قوله :

اتتك المطايا تهتدي بمطية عليها فتى كالنصل يؤنسه النصل

ويقول فيها :

وردت رواق الفضل فضل بن جعفر فحط الثناء الجزل نائله الجزل

فطرب الفضل طرباً شديداً وامر بان تعد الابيات فعدت فكانت ثمانين بيتاً فامر له بثمانين الف درهم فقال لو لا انها اكثر

ما وصل به الشعراء لزدتك ولكنه شأو لا يمكنني ان اتجاوزه ٠
— يعني ما رسمه الرشيد لمروان بن ابي حفصه — ثم امره بالجلوس معه والمقام عنده لمنادمته فاقام عنده وشرب معه ٠ وكانت على رأس الفضل وصيفة تسقيه كانها لؤلؤة فلمح الفضل مسلماً ينظر اليها فقال وحياتي يا ابا الوليد اعجبتك ، فقل فيها ابياتاً حتى اهبها لك فانشده :

ان كنت تسقين غير الراح فاسقيني
كاساً الذ بها من فيك تشفيني
عيناك راحي وريحاني حديثك لي
ولون خديك لون الورد يكفيني
اذا نهاني عن شرب الطِلا حرج
فخمر عينيك يغنيني ويجزيني
لو لا علامات شيب لو اتت وعظت
لقد صحوت ولكن سوف تأتيني
ارضى الشباب فان اهلك فعن قدر
وان بقيت فان الشيب يسليني

فقال خذها بورك لك فيها وامر بتوجيهها مع بعض خدمه اليه ٠
ونكتفي الآن بهذا القدر من عظم المبالغ التي وصلت لشاعرنا

ولو لم يتداركه الله تعالى بالتوبة آخر حياته لقضى فقيراً معدماً ولكنه كان آخر عمره يستغل ضياعه ويعيش منها عيشةً طيبةً نقيةً .

كل هذا يكرهنا على القول بكذب دعبل حينما يقول :

« كان مسلم بن الوليد من ابخل الناس فرأيته يوماً وقد استقبل الرضى عن غلام له بعد موجدة فقال له رضيت عنك وامرت لك بدرهم »

ويزيدنا اعتقاداً بكذبه وافترائه انه بات عدواً له كما رأيت ذلك من قبل .

وبعد فلا نجشمك مؤونة جمع هذه المبالغ الطائلة البالغة (٩٩٧١٦٦٠٠٠) درهم .

ولا بأس ان تقول عشرة ملايين لان انقطاعه الى البرامكة الكرماء مدة طويلة وعدم ذكر شيءٍ عنهم في العطاء يجيز لك ان تقول عشرين مليوناً .

هذا بعض ما جمع مسلم بشعره عدا القيان والهدايا والمنزلة الرفيعة والرتب التي تمتع بها في جرجان .

ولم يكن شعره جالباً له الخير فحسب بل كان جالباً ذلك لمن يحفظه فقد قال محمد بن الجهم البرمكي قال لي المأمون يوماً يا محمد

هات بيتاً من المديح جيداً فاخراً عربياً لمحدث حتى اوليك كورة تختارها قلت قول علي بن الخليل :

فمع السماء فروع نبعتهم ومع الحضيض منابت الغرس
متهللين على اسرتهم ولدى الهياج مصاعب الشُمس

فقال احسنت قد وليتك الدينوَر فانشدني هجاءً على هذه الصفة حتى اوليك كورة اخرى فقلت قول الذي يقول :

قبحت مناظرهم لحين خبرتهم حسنت مناظرهم لقبح المخبر

وهو لمسلم .

فقال احسنت قد وليتك همذان فانشدني مرثية على هذا حتى ازيدك كورة اخرى فقلت :

ارادو ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دل على القبر

قال قد احسنت .. وليتك نهاوند فانشدني بيتاً من الغزل على هذا الشرط حتى اوليك كورة اخرى فقلت قول الذي يقول :

تعالي نجدد دارس العهد بيننا كلانا على طول الجفاء ملوم

قال احسنت قد جعلت الخيار اليك فاختر فاخترت السوس من كور الاهواز فولاني ذلك اجمع ووجهت الى السوس بعض اهلي .

هكذا كان يعيش الشاعر العبقري ومن يحفظ شعره ولا

تقل بعد اننا نقص عليك احاديث الاحلام فاننا في عصر بني العباس : عصر الرفاه والمال ، عصر المجد والعظمة ، عصر المدنية والحضارة وعصر اللذة والمجون ٠

اراء مسلم في الحياة واللذة

فلسفة صريع — غايته من الحياة

قبل ان نأتي على طماح مسلم وغايته يحسن بنا ان نذكر شيئاً عن غايات السعي الانساني نقارن به فلسفة شاعرنا وآراءه :

كان اليونان الاقدمون مثل ارتستيب Aristppe وكورجياس Gorgias وكاليكلس Callicles وما زالت العامة تعتقد معهم حتى اليوم ان الغاية من الحياة هي اللذة لان ميولنا تتطلب الخير ، واللذة خير ولا شك ، على انهم كانوا يعتقدون ان الخير الاسمى هو اللذة بعينها وان الالم الاليم هو الشر نفسه

ثم انهم كانوا يرجعون الى انفسهم فيسألونها « متى تكون نهاية الحياة ؟؟ » فلا يقعون الا على الجهل بزمن هذه النهاية ...

واذن فيجب ان ننتهب العيش انتهاباً قبل ان يذوي الغصن وقبل ان يفقد رونق الحياة

على ان هذا الرأي في غاية الحياة مثلوم شائن في نظر الفلاسفة الاقدمين والمحدثين فقد قال افلاطون : « ان حياة اللذة والفضلية هي حياة اسمى واشرف من حياة لذة دون فضيلة . » وهو رأي لا يتنازع

فيه اثنان على ما نعتقد فليست اللذة وحدها هي السامية وانما هناك الفضيلة فماذا نقول بها ؟

نحن نتطلب الفضيلة في هذا الكون ، فلا يكون هناء الانسان وسعادته في اللذة فقط ، كما يزعم ارباب مذهب اللذة بل في الفضيلة ايضاً ، يقول ارسطو « لو كانت غاية الحياة والميول هي اللذة فيجب ان تقطع اللذة عند تأمينها ، ولكن العكس من ذلك يجري في هذه الحياة ، فالميول والرغائب لا يحصي عددها ، وكلما قنع المرء بتأمين شيء منها ظهرت له اشياء تستحثه وتدعوه الى تحقيقها . » فاللذة اذن كما يقول ارسطو لا تقوّم الفعل بل تضاف الى فاعلية الانسان كقائد يعلمنا اننا نسير في الجادة الواضحة والطريق الحسنة .

واذا سعى الانسان في سبيل اللذة وولى وجهه شطرها فماذا يحدث بعد ذلك ؟

ان نفسه لتعزف حينئذٍ مللاً قتالا ، فلا يعود واجداً ما كان يريد ، يسأمها كما سئمها مسلم بن الوليد بعد أن اترع كأسه منها وبعد ان غمر فؤاده بها ، وجرى له مالا يخطر على الفكر الزهد بهأ بداً .

وهناك رأي آخر قوامه ان تكون المنفعة غاية الانسان في هذه الحياة الدنيا . والمتفقون على المنفعة انقسموا شطرين فقال قوم بالمنفعة الشخصية ووجوب كونها غاية السعي الانساني ، وقال آخر

بالمنفعة العامة فكان ممن دافع عن الشطر الاول ايبكور وهوبس ودولباخ فان هؤلاء ومن ذهب مذهبهم لم يتخذوا اللذة غاية الحياة كما شاع خطأ عن ايبكور وانما جعلوا المنفعة الشخصية غاية لها ٠ ان هؤلاء الفلاسفة اكثر حنكة ودراية من فلاسفة اللذة كما يظهر لنا ، فانهم قد عرفوا بالتجربة ان اللذة وان كانت خيراً ، والألم وان كان شراً ، فان نتائجها قد تكون عكس ذلك : قد تكون لذة دقائق قصيرة سبباً في آلام طويلة ، وقد يكون في الألم نفسه خير عميم واذن فيحق القول العظيم : (عسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم)

امام هذه النتيجة الناصعة ، والحقيقة الراهنة ، يجب ان ننظر الى الحياة كلها ، والى مجموع اللذات الممكنة في الازمنة الممكنة ، ثم نطلع على النتيجة من هذا الحساب ٠ فاذا لم يكن هناك خطر على المنفعة فيجب ان نقدم والا فلنحجم ، وهكذا يصبح الانسان انانيا يؤثر نفسه ونفعه على كل شيء ويحكم عليه بالنسبة الى نفسه وحدها ، ومن ثمَّ يظن نفسه انه مركز الدنيا ٠

هذا هو مذهب المنفعة الشخصية و بين رجاله ايبكور الفيلسوف الذي قال باللذة النافعة ، اللذة المعتدلة التي لا يعقبها الم ، وقد فهم البعض من الناس اقواله على عكس ما اراد فجعلوا يلقبون كل

خليع ماجن (ابيكوريّاً) وابيكور بريء مما ينسبون اليه ٠

ان هذه الاَثرة (الانانية) المفرطة غير معقولة ابداً ويتجلى ذلك بوضوح تام حينما نفكر بالمثل الاعلى والمطمح الاسمى في الحياة فلا تراه غير الشخص الاناني والمنفعة الذاتية ٠

ومعنى الشخص الاناني هو الشهواني الذي لا يفتأ يحول الخير الى ذاته ، ويود ان يبتلع كل ما يمكن ان يوجد من نعيم في هذا الكون ، يمنع الحياة من النمو الا لأجله ، ويستثمر غيره في سبيل بقائه

الا وان الاثرة قاسية فظيعة ، لا تنفذ الى اعماق الاخاء العام بل تغاير العواطف البشرية والعقل السامي ، ولذلك فقد قام بنتام بنظرية النفعية العامة التي تخفف من وطأة النفعية الخاصة ٠

في هذه النظرية نعمة للمجموع ، اذ على الانسان ان يفتش عن منفعته الخاصة — ومن الحمق ان نقول له لا تفتش عنها — وانما عليه ان يوفقها مع المنفعة العامة لان الشيء الجيد هو النافع لنا ولسوانا كما يقول بنتام ٠

ان سعادتنا لن توجد منفردة عن سعادة الناس واذا كنا نسعى لسعادتنا وحدها ، فلن نجدها منفردة عن سعادة الناس ، واذا سعينا لسعادة الناس وجدنا سعادتنا ؛ يقول استوارت ميل : « ان اعظم واسطة يكون الانسان بها سعيداً هي ان يحب سواه ٠ »

بعد ان علمنا وجوب التوفيق بين المنفعة الشخصية والمنفعة العامة ليصبح الانسان سعيداً ، لا بأس ان نفتش عن النافع لنا ، وان ننال كل ما نستطيع من لذة على مايرون ، وقد وضع بنتام حساباسماه حساب اللذات نظر فيه الى مدة اللذة والى شدتها والى صفائها و بالجمع بين هـذه الاعتبارات الثلاثة ننتخب اللذة الفضلى ، ففي السكر والاعتدال ننظر الى مجموع اللذات بمدتها وشدتها وصفائها في كلتا الحالتين ثم نفضل حالة على سواها ٠

ومما وضعه بنتام نرى انه اعتبر اللذات متساوية فهو لم ينظر الا الى الكمية ولكن استوارت ميــل قال بوجوب النظر الى الكيفية لأن في الحياة لذات سامية وغير سامية ، وفي كل طبقة درجات غير متساوية ٠ يقول : « ان من الخطأ ان نعدل بين لذات الجسد ولذات النفس ٠ »

يؤخذ على هذه النظرية (نظرية النفعية العامة) ان مفهوم السعادة عند اربابها مبهم ٠ لأن السعادة كما رأيت تابعة لـكميــة اللذات وكيفيتها وهاتان متحولتان لا يمكن تعيينهما ٠ ثم ان المنفعة الشخصية لا تتفق مع المنفعة العامة تماماً كما يظنون ؛ وتناقضهما في بعض الاحيان بديهي ظاهر للعيان وان الذين اثروا بطريقة غير مشروعة في الحرب العظمى وفي غيرها يعلمون ان منفعتهم الخاصة كانت

بامتصاص دماء سواهم ، وانها لم تتأمن لو لم تكن لهم افئدة قاسية جبارة

ولكن يجب ان يسعى المرء للتوفيق بينهما جهد الطاقة والامكان وان يعين سواه ولو اقتضى الامر تضحية قسم من منفعته الشخصية في سبيل سعادة غيره ؛ يقول استوارت ميل :

« . . ولم اعتقد ان السعادة حجر الزاوية في كل قاعدة من قواعد الانسان ، وانها مطمح الحياة الاسمى ، ولكني فكرت في ان الواسطة الوحيدة للوصول الى السعادة هي الاّ يجعل الانسان السعادة غاية الحياة : ما اسعد اولئك الذين يتجه فكرهم نحو شيء غير سعادتهم ، كاتجاههم نحو سعادة سواهم ، ونحو تحسين شروط الانسانية ، فانهم ولاشك عندما يتجهون نحو شيء آخر غير السعادة يجدون السعادة في طريقهم . ان لذات العيش كافية لأن تجعل الحياة ملائمة جيدة اذا لم يتخذ الانسان تلك اللذات موضوع الحياة الاساسي ومقصدها الاعلى . جرب ان تجعل اللذة غاية الحياة فانك تجد آنئذٍ ان اللذات غير كافيـة للسعادة ، واسأل نفسك عن السعادة فوشيكاً ما تضيعها . فليس للانسان من واسطة للسعادة الا ان يجعل غاية الحياة سعادة الآخرين »

هذه هي غايات السعي الانساني اسهبنا بها بعض الاسهاب كمقدمة نزن بها نفس شاعرنا واهواءه ولذاته وكل ما في شبابه من نزعات

اما فلسفته فقد كانت تقوم على اللذة ولكنه لم يكن كاپيكور مفتشاً عن اللذة التي لا يعقبها الم والتي سببت زهد الفيلسوف بهذه الحياة الدنيا ، بل كان شاعرنا على العكس منه ، فانه كان يحب العيش ليتملى فيه من اللذة ، وكان يحب الحياة ولكن لأجل اللذة ، ويحب كل شيء تكون فيه اللذة ، ويتجلى حبه ذلك فيما اوردناه وسنورده

وقد كان مسلم يمقت الشيب لأنه نذير اللذات ، ولكنه يوده من جهة ثانية لأن فيه الحلم والأناة اللذين يساعدان على الحياة الهادئة . يقول :

اهلاً بوافدة للشيب واحدة ... وان تراءت بشخص غير مودود
لاجمع الحلم والصهباء قد سكنت ... نفسي الى الماء عن ماء العناقيد

وهو يود الشيب و يتمنى بقاءه حباً بالحياة للذاتها التي فيها فاذا ذهب الشباب فلا بد من ان يعقبه زمن المشيب ولكن اذا مضى زمن المشيب فماذا يتلوه ؟ .

العدم ... الموت .... واذن فان المشيب ممقوت لانصرام زمن الشباب ، ومودود البقاء كي لا يعقبه الموت ... يقول :

الشيب كره وكره ان يفارقني ... اعجب لشيء على البغضاء مودود
يمضي الشباب وقد يأتي له خلف ... والشيب يذهب مفقوداً بمفقود

ويعيد هذا المعنى بقوله :

لا يرحل الشيب عن دار اقام بها ... حتى يرحّل عنها صاحب الدار

وانك لتشعر بعاطفة الخوف من هوة العدم بعد المشيب حينما يقول:

عاود عزاءك لا تعنف بك الذكر　　ماذا الذى بعد ذاك الشيب تنتظر
هذا الشباب له في شرة انف　　دون الثلاثين مجلوب به الشرر

ثم يريك الخوف بادياً والرأي صريحاً في ان المشيب مصيبة المصائب فيقول:

سلاه لمَ استبقى وصال الكواعب　　وقد دب ريع الشيب بين الذوائب
بدت شيبة في رأسه فكأنما　　بدا لحلول الشيب احدى المصائب
وما أُزيع حتى لاح للشيب عارض　　عليه وشاقته اكف الخواضب

ولا غرابة في ان يرى شاعرنا المشيب هو المصيبة العظمى، مادام الشيب نذير اللذات وطلائع العدم، ولكنه كان من جهة ثانية يحفزه و يدعوه الى اغتنام اللذة قبل الرحيل ...

طماح صريع الغواني

كانت نفس مسلم طماحة الى المناصب العالية والحظوة المشتهاة ولكن الزمن لم ينوله ذلك في شبابه ·

وقد كان يتألم ألمًا شديداً حينما يرى البعض من الشعراء الذين لا يوازونه في ادب ولا يماثلونه في نسب ، ينالون جوائز الخلفاء فيقول « ارى نفسي تذوب حسرات من ان يحوي جوائز الخلفاء من لا يصلح ان يكون شعره خادماً لشعري ·» ولكنه يتأسى بالدخان يعلو النار وهو اقل قيمة منها ، وبالغبار يسمو فوق عمائم الفرسان في ساحة الحرب وموضعه تحت الاقدام :

ان يقعدوا فوقي بغير نزاهة وعلو مرتبة وعز مكان

فالنار يعلوها الدخان وربما يعلو الغبار عمائم الفرسان

وهو شأن الزمن يخفض الاعلى ويعلي من سفل ، ولكن ان فاته مدح الخليفة باديء الامر فانه مدح الامراء ، والوزراء ونادمهم حتى وصل بعد حين الى الرشيد بسعيٍ منه ومن القدر ايضاً ؛ ثم نكس عليه الامر فعاد الى من انفق الشطر الاعظم من الشعر في مديحه ، ذلك هو الفضل بن سهل ·

ولعل السبب في عدم رواج سوقه عند الرشيد هو

خوف الشاعر من بطش الخليفة ، كما رأيت ذلك في الكلام عن اتصاله به ، لا ما كان عليه مسلم من خلاعة ومجون لا يتسع لهما وقت الخليفة لان وقته اتسع لابي نواس وغيره ·

لم يكن طموح مسلم في سبيل الشهرة ، بل في سبيل الغنى وحسبه ان ينفق الآلاف المؤلفة من الدراهم بين صباح ومساء على اخوانه حتى يعود الى سواها غير ملتفت لشهرة ينالها ؛ ومن ثم كان ابو نواس ذا حظ كبير من الشهرة لم يرزقه مسلم ولكنه رزق عنه مالاً جسيماً ·

وفي سبيل الشهرة يغادر العظماء من الكتاب والشعراء ، ومن غيرهم وطنهم ضاربين في منا كب الارض · وقلما تقرأ حياة شاعر من العظماء الا وتجد له رحلات واسعة يجني بها صيتاً ذائعاً وتجارب عديدة ، وفوائد جمة ، واذا لم يكن للشاعر غير الشهرة في تجشمه الصعاب لهان عليه كل شيء ·

يترك وطنه ترك عائد بعد حين ، ترك من يفتش عن افق آخر ينشر فيه رايته ، لا تثنيه اهوال الرحيل ومضض الاغتراب ، فهو يعيش في السحاب تتقاذفه الخيالات الجوالة ؛ والشهرة من هذه الخيالات الضاحكة المكفهرة · ونرى في الشعراء والادباء من تكلفهم الشهرة اثماناً باهظة ومع ذلك فهم فرحون مثابرون على الانفاق ·

اما مسلم بن الوليد فما كان بالرجل المتيم في طلب الشهرة ولم يكن

الساعي في سبيلها ، فما اغترب عن العراق إلا قليلاً ونحن لم نعثر على خبر رحلته الى الشام اذ يقول :

الم ترَ أني بارض الشآم　　اطعت الهوى وشربت العقارا
لقد كنت من حب خمرا لبليخ　　ان اجعل الشام اهلاً ودارا

ولكن عثرنا على خبر ذهابه الى جرجان قاصداً صديقه الفضل هناك طلباً لحق صداقته لا للشهرة ، فولاه البريد هناك .

وكان جل ما يبتغيه الاَّ يكون مغموط الحق هضيم الجانب ، وان يكون غنياً ومن ثم كريماً ، وفي الناس من يسعى في جمع المال حباً بالجاه الذي يتمتع به الغني ، وفيهم من يعتقد ان المال يوءمن له العيش الرافه ، ولكنهم ان اصبحوا مسيطرين على المال رأيت المال مسيطراً عليهم ، يتحكم بعزة نفوسهم فلا ترفاً نالوا ولا بجاه تمتعوا ، بل يمسون ويصبحون له خاضعين ، حتى انك لتعتقد حين تراهم انه لو لم يكن الانفاق في الطعام سبباً في جمع المال لما انفقوا درهماً واحداً على مطعم او مشرب .

ان صريعاً كان غير ذلك ، كان يجمع المال لينفقه ولم يكن ينفقه ليجمعه ، واذا اصابه قحط في جيبه اوتأخر عنه ما ينفق ، ظن نفسه مغموط الحق فيتألم ، وليس من حقه ان يتألم لو لم يكن كريماً ؛ وقد رأيت انه جمع مقدار عشرة ملايين درهم ، وحينما مات لم يكن عنده شيء لشدة كرمه .

آخر حياة ابن الوليد

حزنه ، تنسكه ، وسنه

ذكرنا في بحث تقدم ان مسلماً كان اسرع من ابي نواس الى التوبة ، وانه لامه مرة على تماديه في الشراب فاجابه بابيات ولىّ منها مسلم وهو يقول : « جواب حاضر من شيخ فاجر . »

وقد تضافرت اسباب عديدة عملت على اقتلاع حب اللهو والخلاعة من قلب مسلم ؛ اولها واعظمها على ما اعتقد الملل والسأم ، فان مسلماً كان يؤثر اللذة واللهو على كل شيء ، لانه كان يرى سعادته فيهما كما رايت ، ولكن هذه السعادة المنشودة لم تكن ليبقى لها الرونق مع الالفة والاطّراد ، لأن اللذة الواحدة التي يتمتع بها الانسان كل يوم ليست لذة حقيقية ، واللهو الذي يمنحه المرء شطراً كبيراً من عمره لا يبقى زمناً حتى تشرئب النفس الى غير افقه من الآفاق .

فالسأم والملل من اعظم المغريات بالتوبة عند مسلم ، ثم اضف الى ذلك انه اصيب بفقد زوجة من اهله كانت تكفيه مؤونة امره وتسره ، وحينما قضت جزع عليها جزعاً شديداً وتنسك مدة طويلة وعزم على ملازمة ذلك فاقسم عليه بعض اخوانه ذات يوم ان يزوره ففعل فاكلوا وقدموا الشراب فامتنع منه مسلم واباه وانشأ يقول :

بكاءٌ وكأس كيف يتفقان سبيلاهما [1] في القلب مختلفان
دعوني وافراط البكاء فانني ارى اليوم فيه غير ما تريان
غدت والثرى اولى بها من وليها الى منزل ناءٍ لعينك دانِ
فلا حزن حتى تنزف العين ماءها وتعترف الاحشاء [2] للخفقان
وكيف بدفع اليأس والوجد بعدها وسهماهما في القلب يعتلجان

وزد على هذا وذلك انه لم يكن كبقية الشعراء الذين يغادرون الوطن الى آخر يجدون فيه ملهىً وملعباً جديداً ، فتتجدد نفوسهم وما حدثتنا الكتب بشيء عن ذلك الا بما تقدم في الفصل السابق

ثم لا تنس فوق هذا كله انه تقدم بالسن فلم يعد من المروءة ان يبقى خليعاً مسترسلاً مع احلام الشباب الضالة وطيشه الفاسق ، فكان اول ما ظهر عليه من انابته ان مقت لقبه « صريع الغواني » فقال

لا تدعُ بي الشوق اني غير معمود نهى النهي عن هوى الهيف الرعاديد

وانك لتعلم ان دعبلاً سال صريعاً عن معنى الشطر الاول فقال له مسلم : لا تدعني صريع الغواني فلست كذلك

والقصيدة في مدح داود بن حاتم ويقول بعد البيت الاول :

لو شئت لاشئت راجعت الصبى ومشت فيَّ العيونُ وفاتتني بمجلود
سل ليلة الخيف هل امضيت معظمها بالراح تحت نسيم الخرد الغيد

---

(١) وفي ديوان الحماسة مقيلاهما (٢) وفي ديوان الحماسة ايضاً : بالخفقان

شججتها بلعاب المزن فاعتزلت ... نسجين من بين محلول ومعقود
كلا الجديدين قد اطعمت خبرته ... لو آل حي الى عمر وتخليد
اهلاً بوافدة للشيب واحدة ... وان تراءت بشخص غير مودود
لاجمع الحلم والصهباء قد سكنت ... نفسي الى الماء عن ماء العناقيد
لم ينهني فند عنها ولا كبرٌ ... لكن صحوت وغصني غير مخضود
اوفى بي الحلم واقتاد النهى طلقاً ... شأوي وعفت الصبى من غير تفنيد

واذن فقد تاب عن لهوه وخلاعته وفي جسمه قوة من الشباب كما ترى في هذه الابيات ، فهو يتوب من الخمر والخلاعة توبة شاب عاقل .

وامتد به ذلك ازماناً حتى رأى اغصان الحياة من اخوانه وممدوحيه تتكسر ، فرثاهم ، فمرت الحكمة على اسانه ، وكانت قليلة على ما لدينا منها .

ثم قتل الفضل آخر اخ منعم عليه فجزع جزعاً دفعه في النسك الى الابد ولم يمتلئ اذ ذاك قلبه توبة من الدعارة فحسب ، بل توبة من الشعر ايضاً ، فبينما كان زمن الفضل بن سهل يترفع بشعره عن مدح سواه اذا به بعد مقتل الفضل يعلو بقلبه الطاهر وروحه الناصعة عن الشعر ، لا عن الشعر الموبوء ، بل عن الشعر النقي ايضاً ، واذا به يكافح قصائده في كل مكان ، فاذا علق بقصيدة أحرقها

ولم يبق له من الشعر الا ما كان بايدي الناس وعند راويته، وقد يكون مما دفعه لذلك عدا ما مرّ كون شعره مطواعاً له زمن الصبوة، رفيقاً لأهوائه ولذاته، فاذا تركها وجب عليه ترك الشعر معها ايضاً

ولعلك تستغرب اذا قلنا لك ان نفسه قد عزفت اللذات منذ السابعة والعشرين من عمره، اذ يقول من قصيدة مدح بها الفضل ابن جعفر ولم نعلم عليه كذباً :

تعزَّ فقد مات الهوى وانتهى الجهل ... فرد عليك الحلم ما قدم العذل
احين طوى عن شرة اللهو شرة ... يطيع سواد الرأس ان قال لا تسل
حماه على سبع وعشرين حجة ... شباب فتيٌّ الغيب شاهده كهل

ومما يذكر عن عزوف نفسه عن الشعر ان راويته جاءه وهو في جرجان بعد ان تاب ليعرض عليه شعره فتغافله مسلم ثم اخذ منه الدفتر الذي في يده (وهو الديوان) فقذف به في البحر !!

ولم نر في كتب الادب ولا في سواها ان مسلماً هو الذي دعا الراوية ليستعرض شعره، ولكننا نرجح هذه الفكرة، ونستبعد جداً ان يكون الراويه على جانب عظيم من الغباوة فيأتي الى مسلم ليعرض عليه شعره وقد تاب منه .

وسواءٌ اكان هذا ام ذاك، فقد كان القاء الدفتر في البحر خسارة ادبية عظمي، فقلَّ بذلك شعر مسلم، وليس في ايدي الناس منه

الا ما كان من مدائحه عند بعض الممدوحين ، وما كان في العراق على قلة ، وعاش مسلم آخر عمره من دخل الضياع التي ابتيعت له ، وحينما توفى كان يتقلد عملاً بجرجان قيل البريد وقيل المظالم ، و يروى انه لما احتضر نظر الى نخلة لم يكن بجرجان مثلها فقال :

الا يا نخلة بالسفـــــح من اكناف جرجان

الا اني وإياك بجرجان غريبان

ثم اسلم النفس الأخير عند آخرهما رحمه الله رحمة واسعة . وكانت وفاته سنة ٢٠٨ للهجرة وله ديوان جمعه الصولي ورجل آخر معه ، وقالوا ان الديوان بمأتي ورقة وهو مطبوع بمصر بما يقرب من المائة صحيفة وفي ليدن بما يقرب من ٢٣٠ وفي الهند ١٥٢

اما عمره ، وكم سنـــة عاش ، وفي اي سنة ولد ، فلم يذكر لنا المؤلفون من متقدمين ومتأخرين عن ذلك شيئاً .

ورغم ما بذلناه من جهد فانا لم نتوصل الا الى شيء قد يفيدنا في استنتاج عمره ، ونحن نورد لك احسن ما استنتجناه لعلك واجد في ذلك جهداً مفيداً :

ذكر مسلم عن نفسه حين مدح الفضل بن جعفر ان عمره كان سبعاً وعشرين عاماً ، واذا علمت ان نكبة البرامكة ابتدأت عام ١٨٦ هـ وان جعفر بن يحيى قتل عام ١٨٧ وان الشعراء ـ والناس

ايضاً ـ تهيبوا سخط الرشيد فلم يعد في استطاعة الشاعر ان يمدح برمكيـاً خشية الحتف المريع ـ اذا علمت كل ذلك ايقنت ان مدحه الفضل كان قبل حدوث تلك النكبة ، ولنفرض انه كان عام ١٨٥ ـ اذ لم نعثر على زمن كتابة تلك القصيدة شـأن الشعر العربي القديم

وبما ان مسلماً توفي عام ٢٠٨ فيكون الزمن الممتد بين وفاته وتاريخ قصيدته بالغاً ٢٣ سنة واذا اضفت لهذا العدد ٢٧ عاماً وهو مبلغ عمره حين نظم القصيدة وجدت ان لمسلم من العمر خمسين ربيعاً تقريباً ولا نكتمك انها محاولة في معرفة عمره ، ولكنها محاولة شريفة كما ترى ، اذ وجدنا من النقص في دراسة الشخص الاّ نعرف كم سنة عاش ٠

والذي رجح عندنا هذا الحساب من الحسابات التي عثرنا عليها في معرفة عمره ، هو جمع الوقائع في حادثتين مختلفتين قد لا يرى الانسان لهما في بادئ الامر نفعاً في هذا السبيل ، ثم الاستنتاج الصحيح في ذلك ٠

فقد قالوا ان ابا العتاهية ومسلماً وابا نواس جاؤوا ابا عمرو الشيباني فانشده ابو العتاهية ابياتاً منها :

وحكت لك الساعات عن ساعات ايـات بغت

وانصرفوا وبعد ايام عاد مسلم وابو نواس فأنشداه شعراً وكان مما انشده صريع :

ينال بالرفق ما يعيا الرجال به   كالموت مستعجلاً يأتي على مهل

فقال له ابو عمرو احسنت الا انك اخذت قول ابي العتاهية

وحكت لك الساعات عن   ساعات أبيات بغت

وبيت مسلم من قصيدة رائعة متينة يمدح بها يزيد بن مزيد وهي من خير ما قاله في المديح ومطلعها :

اجررت حبل خليع في الصبى غزل   وشمرت همم العذال في العذل (١)

وانك اذا قرأت هذه القصيدة ثم اذا علمت ان ناظمها كان ينافس بها الشعراء ، فهو نظيرهم في ملء اذان الناس وقلوبهم وابصارهم ، واذا ذكرت تصريحه في القصيدة اذ يقول عن توبته وهو شاب لم يكبر :

قد كان دهري ومابي اليوم من كبر   شرب المدام وعزف القينة العطل

واضفت الى ذلك ان البيدق الراوية دخل دار يزيد بن مزيد يوماً وفيها خلق كثير واذا فتى شاب جالس في افناء الناس ولم يكن يزيد عرفه بعد وهو مسلم بن الوليد فيقترب الراوية منه فيجعله الشاعر واسطة ليصل بها الى يزيد كما رأيت ذلك من قبل — اذا

(١) وعن ابن خلكان : وقصرت همم العذال في عذلي

كان كل ذلك فلا نشك في ان الشاعر حينما قال قصيدته تلك في مدح يزيد كان له من العمر خمسة وعشرون او ثلاثون ربيعاً على اقل تقدير ، لما تراه من قوة الشعر ، ولما يقتضيه مقام مباراة الشعراء الكبار ومديح القواد والامراء في عصر كالعصر العباسي (١)

ثم ان يزيد بعد مدة سأله عما يكفيه فجعل له جراية تغنيه عدا الجوائز والمكافآت وهذا يدل على ان قصيدته قالها قبل وفاة يزيد بأعوام ، ولكن فلنفرض الان احترازاً من الخطأ أنه قالها سنة وفاة يزيد

فاذا اضفت الفرق بين سنة وفاة يزيد هذا وهي (١٨٥) وبين سنة وفاة مسلم وهي (٢٠٨) [الفرق (٢٣) عاماً] الى ٢٥ — وهو مبلغ عمره المفروض لنظم تلك القصيدة واعتقد انه قالها وسنه اكثر من ذلك — اذا اضفت الفرق الى مبلغ سنه رأيت عمره بالغاً ٤٨ عاماً هذا اوضح ما اهتدينا اليه في معرفة سنه والله تعالى اعلم ·

---

(١) وكان مسلم يرى الا ينشر الشاعر شيئاً من شعره بادئ امره حتى يجيد فاذا اجاد نشر فلم يعبه احد وهذه نصيحته لدعبل ولعل مسلماً نفسه قد عمل بها فلم يظهر شعره الا بعد ان تقدم في العمر والشعر

خلقة الشاعر واخلاقه

قبل ان نحدثك باخلاق شاعرنا — وهو ماله اهمية عظمى في التعرف اليه نذكر لك شيئاً عثرنا علية في التعرف الى خلقه

لم يكن مسلم في شبابه قبيح المنظر دميم الخلقة بل كان جميل الطلعة ترنو النساء اليه وتذهب بخلده كما تمضي بهواه ... يقول :

لو شئت — لا شئت — راجعت الصبى ومشت
في العيون وفاتتني بمجلود

ولم يكن نحيلاً بل كان ممتلئ الجسم فهو صادق حينما يحدثك عن نفسه فيقول :

احبَّ قلبي وما درى جسدى ولو درى لم يقم به السمن

فمسلم صادق على العكس من بشار اذ يكذب حين يحدثنا عن نفسه وعن جسمه الضخم فيقول

ان في بردتي جسماً ناحلا لو توكأت عليه لانهدم

ولم يكد الشيب يفد على شاعرنا حتى كساه وقاراً وهيبة وحتى صار بعض العظماء — كالفضل بن سهل — يجله عن انشاد الشعر اجلالا واحتراماً .

وكان من فضل الايام عليه ان ذابت تلك الضحة فيما بعد فاصبح

هزيلاً نحيلاً كالسيف ... يقول للفضل بن جعفر :

أتتك المطايا تهتدي بمطية　　عليها فتى كالنصل يؤنسه النصل

وهكذا فان شاعرنا يصف لك جسمه في شبابه وبعد شبابه ويصدقك الحديث في قوله .

اما السجايا التي تحلى بها والتي كانت سبباً في نوال مسلم تلك المكانة السامية فهي الكرم اولاً ، وهو لا شك مجلبة للصداقة والاخاء فقد كان مسلم على جانب كبير منه : يجمع الثروة اليوم وما يلبث عشية او ضحاها حتى يبدد ما جمعه وحتى يعود فيمدح لنوال جديد .

وكان كما قرأت في حديث فقره وغناه يجمع الاخوان من حوله يقيمون اياماً على الشرب واللهو حتى يكاد المال ينفد ، واذ ذكرت الاحصاء الذي اوردناه عن ثروته تبينت عظم كرمه حتى انه كان تبذيراً في حكم الكثير من الناس

وكان لا يندم على ما انفق وانما كان يندم على ما يبدر منه من خطأ في الفعل او خطل في الرأي .

نعم كان يندم ويتحسر فيسكب نفسه اذ ذاك في ابيات رائعة تريك الفؤاد كيف يتفطر ، ويتبين لك كل ذلك حينما تقرأ

الابيات التي سنوردها لك ، وقصتها انه تزوج فتاة اتت منه بمولود ثم طلقها فقال من قصيدة :

اجارتنا ما في فراقك راحة ولكن مضى قول فانت به بسل
فبيني فقد فارقت غير ذميمة قضاءً دعانا للقطيعة لا الختل
اما واغتيال الدهر خلة بيننا لقد غال إلفًا ساكنًا بهم الشمل
فما بي الى مستطرف العيش وحشة وان كنت لامال لدي ولا اهل
بنا لا بك الامر الذي تكرهينه اتى الحلم بالعتبى وقد سبق الجهل
فلا شوق ان اليأس اعقب سلوة سواءٌ نوى من لا يراجع والثكل
عليك سلام لا تحية ذي قلى حلا بعدك العيش الذي كان لا يحلو

واما ذلك المولود فلم نقف له على اثر في الحياة وما رأينا عنه اكثر مما قرأت فلعله مات في المهد طفلاً ،

على ان هذا الندم لم يكن على ما اعتقد غير نوع من الاخلاص يتغالب عليه عقله وطبعه ، وتفكيره واهواؤه

والاخلاص يتجلى بمظاهر شتى : يتجلى في الندم كما يبدو في الذكريات ايضاً . والذكريات عند مسلم تشغل شطراً كبيراً من نفسه فاذا قرأتها شعرت انها في فؤادك ، ولم تشعر كيف سلكت اليه السبيل ، يقول :

واهًا لأيام الصبي وزمانه لو كان اسعف بالمقام قليلا

سل عيش دهر قد مضت ايامه   هل يستطيع الى الرجوع سبيلا
لو عاد آخره كأول عهـده   فيما مضى لم اشف منه غليلا

ويقول ذاكراً العتيك :

ان العتيـك لحيٌّ ما مررت به   الا رجعت وروحي فيه مستلب
عند الخربة غيد قد صبون بها   مثل المهى في رياض حولها العشب

ويقول في الاطلال :

قفا نلبس الاطلال منا تحيـة   ونؤذن بتسليم وان لم تجاوب
اذا عرس الركبان غب سراهم   رمتنا بها ام النجـا والسباسب
هوى كان ميعاد الصفاء تقاذفت   به عن هوانا نيه لم تقارب

وانظر الى هذه الذكرى والى ما فيها من ذهول والتماس للسلوى حين يقول :

واني لاخلو مذ فقدتك دائباً   فانقش تمثالاً لوجهك في الترب
فاسقيه من عيني واشكو تضرعاً   اليه بما القاه من شدة الكرب
فوالله ما ادري بما انا مذنب   اليك سوى الافراط في شدة الحب

ولا نكثر من الذكريات ففي شعره الغرامي شطر عظيم مترع بها .

وهذا الاخلاص البادي في الذكريات يظهر على مقياس اضيق في المديح ، اذ لا حاجة في الذكريات الى الرياء والقول

خلاف معتقد الشاعر ، واما المديح فقلما يكون صافياً خالياً من الشوائب ، ولذا فان الشعراء يعمدون غالباً الى الضخم من الالفاظ المجلجلة مع جهد في ايراد ذلك باسلوب رائع ليذهبوا بفكر القارئ الى غير ناحية الاخلاص في المديح ، ولكن من الظلم ان نحكم على كل مديح قاله مسلم حكماً جائراً كهذا ، فنصمه بعدم الاخلاص ، وسترى ذلك في مكانه بعد حين .

أما مديحه للقيان ووصفهن فكان فيه اخلاص روح وفن ، فترى الشعر في ذلك رائعاً مترعاً بالشعور الدقيق السامي .

وكان مسلم فوق اخلاصه هذا حليماً جداً ، يتبين لك ذلك من اغارة الشعراء على شعره ، واخذهم معانيه وكثيراً من تراكيبه وعدم تعرضه اليهم بخير او شر ، على العكس من معظم الشعراء فان دون ذلك الهجاء الفظيع .

وانك تذكر ولا شك سخط بشار على سلم الخاسر وتهاجيهما من اجل بيت قاله بشار هو :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته ... وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

فأخذ معناه سلم الخاسر فقال :

من راقب الناس مات غماً ... وفاز باللذة الجسور

فكان بينهما ما كان من هجاء وعداوة .

ويتجلى لك حلم شاعرنا ايضاً في تهاجيه مع ابن قنبر واقصاره عنه بينما كان الحكم يقذع ايما اقذاع ·

وكان شاعرنا فوق ذلك كريم الخلق فاذا هجا تنكب عن طريق الفحش لأن نفسه كانت تمقت ذلك ·

وكان صادقاً في شعره وقد مر بك شيء من ذلك ، وكان حاضر البديهة وديع النفس لا يفخر على اخوانه ·

ولم نر انه فخر على احد منهم ، الا انه كان مستخفاً بشعر ابي العتاهية استخفاف حق ، ولكنه حينما سمع له شيئاً جديداً عاد فقال : « والله يا ابا اسحاق ما يبالي من احسن ان يقول مثل هذا الشعر ما فاته من الدنيا » فهو يقر بالفضل لأربابه كما اقر لأبي نواس بتقدمه عليه ايضاً

فمسلم اذن لم يعرف الحسد ، ولا وجد الغل الى قلبه سبيلاً فهو سليم القلب طيب السريرة مثل الشاعر المسالم لا عن عجز ولكن عن اناة وحب بالسلام ·

وقد كان لا يحب العزلة الا اذا افتقر فانه اذ ذاك يميل اليها ، وهو يهوى عشرة اصدقائه فيلازمهم صدوقاً مخلصاً تأبى عليه نفسه ان يصرم حبل الاخاء لذنب جناه رفيقه ويقول :

عزمت على صرم فلما ابى الهوى   رجعت الى قلب عليك شفيق
فلا تمكن الهجران من ذات بيننا   فيغني صديق عن لقاء صديق

فهو بذلك عالي النفس طيب السجية يعامل اخوانه احسن معاملة ويقول :

اخ لي مستور الطباع جعلته   مكان الرضى حتى استقل بي الود
وتحت الرضى لو ان تكون خبرته   ودائع لا يرضى بها الهزل والجد
فأعطِ كل الرضى من خبرتَه   وقف بالرضى عنه اذا لم يكن بد

ويقول :

وصاحب لم يخيرني المنى ابداً   الا جعلت له من امره العذرا
مرت به هفوات الانس في سبب   لم يترك للرضى عيناً ولا اثرا
لم اعطه مهلة العتبى فيعتبني   ولا تعتبت حتى ضيع العذرا

ويقول لمن اساء اليه :

فأقسمت لا اجزيك بالسوء مثله   كفى بالذي جازيتني لك جازيا

أرأيت هذه الروح الطيبة التي لا تجازي الاخوة الا بالخير على اساءتهم ، فاذا احب ان يصرم حبال ودادهم عاد الى قلبه ، وقلبه المخلص لا يطاوعه ، فصفح وسالم فهو مسالم مع الاخوان ومع الناس جميعاً .

واذا علمت بكل هذا من اخلاق صريع فأضف اليه انه كان صريحاً لا يعرف الختل ولا الرياء فهو اذا ناجى احداً لم يظهر له خلاف ما يبطن ولو كان كبيراً ... يقول :

اعافك ان لم يصفُ عندك مشربي وارعاك ان امرعت في جانب سهل

ويقول

سخاءك انى لم اناجك بالمنى فترجعني الا بنائلك الجزل

ثم اضف الى اخلاقه حنكته ودرايته اذ يقول :

وترجعني اليك — وان نأت بي دياري عنك — تجربة الرجال

وقد ذكروا ان من صفات مسلم التوقر والتقبض وانه كان صاحب روية وفكرة على ما يقول صاحب العمدة ·

* * *

وبعد فاذا جمعت هذه الصفات الى بعضها مع ما تقدم من اخباره رأيت صريع الغواني ، ماثلاً امامك تعاشره ويبثك بعض مكنونات صدره ·

وانا لنرجو ان نكون قد وفقنا لهذا الغرض فيما تقدم لأنا نعتقد ان دراسة شعر الشاعر وحده ، او دراسة حياته وحدها ، لا يمكن ان تظهر حقيقة الشاعر ، فطالما كذب الشعراء في اشعارهم ، وكثيرا ما اختلق على الشاعر في الاخبار ما لم يكن ، فاذا اقتصرنا على عنصر واحد دون النظر الى العنصر الاخر ، لم نأمن الخطل في الحكم والزلل ، ومع ذلك فالعصمة لله وحده ، ولذلك فسنعكف على دراسة شعر شاعرنا وبذلك تتم لنا صورة صادقة عن حياته وشعره معاً

خلود الشاعر ومقياس شهرته

الشهرة ولا شك من بعض مكاسب الدنيا ، يقتنصها المرء على مقياس غير منتظم ، وما من صلة تامة بينها و بين العظمة ؛ اذ لو كانت الشهرة هي العظمة الحقيقية لكان الكثير من المضحكين المشهورين اعظم من عظماء الفلاسفة الذين لا تعرف عنهم الطبقة العظمى من الناس شيئاً مذكوراً بينما ترى هؤلاء ، يرددون و يلهجون باسماء ابطال السينما والمضحكين .

ومن هنا تجد أن مقياس الشهرة غير مقياس العظمة الحقيقية .

و يزيدنا اعتقاداً بهذا الرأي ان شهرة الانسان زمن حياته تجعل بين تقدير صاحبها التقدير الصحيح ، و بين شهرته الطائرة حجاباً لا يهتدي معه المعاصرون الى اعطاء الآراء بعظمة الشخص اعطاء روية وامعان ، لأن الجلبة والضوضاء قد تعكر على الانسان صفو آرائه .

ولا ننسَ ان عصرنا هذا يساعد كثيراً على ذيوع الشهرة في أمد قليل . فقد قالو ان اسم ليندنبرغ الطيار المعروف عرفه في ليلة واحدة (٥٠٠) مليون شخص ، وتم شبه ذلك للكثيرين

الشهرة اليوم مفتحة الابواب سهلة القياد ، دعمتها المدنية الحديثة فيما خدمت به الانسان ، فمن من العوام لا يسمع اليوم بـ (ايدي بولو) و(شابلن)

وغيرهما بينما تجد الكثيرين من الدارسين لا يعرفون من هو ابن رشد ولا من هو الحلاّج ولا (بركسون) ولا (سبينوزا)، وغيرهم كثير، وهما كثر قراء المتنبي ونيتشه والبحتري والمعري، فان في قاعات السينما عدداً اوفر، وفي ملاعب الابطال رواداً اكثر.

« وقد عجبت احدى صحف فرانسا من الحفاوة التي قوبل بها شارلي شابلن في لندن وقارنت بين فتور الجماهير قبَل اصحاب الفضل عليها من المخترعين والمصلحين، و بين شغفها بالمضحكين وتهليلها لهم واقبالها العظيم عليهم، وضربت الصحيفة مثلاً بالطبيب فنسان صاحب لقاح التيفوس وقالت وهي تستغرب ما تقول : ترى لو كان هذا الطبيب بين الجموع المهللة لشارلي شابلن اما كانوا ينحونه عن الطريق و يزورون عنه ليقبلوا على بطلهم العزيز ؟

نقول ذلك ليس ببعيد ... ولعمري ان الانسان ليرى سيئاً من العدل في هذه الاطوار التي نشاهد في الجماهير فان الممثل الهزلي لن يظفر بعد موته بكثير ولا قليل من الاعجاب الذي هو حقيق به فمن الانصاف أن يكافأ في حياته هذه المكافأة على اضحاك الناس مع ان ذكر فنسان وامثاله لا ينسى بعد موتهم، والاعجاب بهم يبقى زماناً وهم تراب في لحودهم [1] »

---

(١) الفصول

وعلى هذا فلا يكون من نال شهرة واسعة في حياته سعيداً بشهرته أبد الدهر ، بل يسعد السعادة الخالدة حينما تحكم الاجيال على عبقريته وخلوده ، وحينما تصحح الأحكام التي يصدرها الناس جزافاً منقادين الى العواطف ، مأخوذين بالأهواء .

وهكذا فقد شاء الدهر أن نثير مسلماً من رقاده وأن نعيد ذكر هذه الجوهرة المكنونة التي لم تنل من الشهرة حظّاً وافراً

فقد ذكر ان في الادباء من يقول ان ابا نواس لم يجر في ميدان مسلم قط ، ولكن له من الشهرة ما ليس لمسلم .

وكان شاعرنا قد كان آسفاً على ضالة شهرته كما مر بك ذلك من قبل

ولعل السبب في ضآلة شهرة صريع ، كونه غير مسف بالهجاء المقذع ، وبقول صريح انه كان على اعتقاد البعض غير مجيد في الهجاء لان هذا الفن من القول ، كان في تلك الايام يقتضي القول الهجر والمعنى الفاحش ، وهو مما تعزف عنه نفس شاعرنا ، اضف الى ذلك انه لم يتعرض الى جماعة كثيرين في الهجاء ، وانه لم يكن من الخلاعة بدرجة ابي نواس ، بل كان أعف منه نفساً وأنقى ذيلاً ، وانه لم يجنح الى مساجلة الشعراء ومطاحنتهم بشدة بل كان يقصر ويتعفف ويتوقر .

ولا ننسى نقطة هامة نضيفها الى ذلك كله هي ان شعره كان يعجب الخاصة دون العامة ، وانت تعلم ان الشعر الذي يستهدف الطبقة العليا يخلو في الغالب من الاسفاف الذي يستهوي الطبقة الدنيا . والشهرة الذائعة المنتشرة بشدة انما هي ابنة الطبقة الدنيا وقلما تعمد الطبقة السامية الى القاء الدعاية .

ثم ان اسلوبه واكثاره من البديع جعل له شهرة خاصة عند الشعراء ، حتى اقتفوا اثره في ذلك فكان لمذهبه في البديع فضل في شيء من شهرته

هذه الصفات كلها اجتمعت لمسلم فكانت سبباً في نواله شهرة اضيق من شهرة ابي نواس .

ولو ان مسلماً خلع عذاره بشدة والحاح ، كأبي نواس ، ولو تأخر بالتوبة فظل سادراً زمناً طويلاً في الغواية ، ولو تعرض بالهجاء المقذع الى العلماء والرجال البارزين ، لكان له من الشهرة حظ اوفر ومن بعد الصيت افق اوسع .

القسم الثاني

شعر صريع الغواني

دراسة

حرة مستقلة

نشأة الشعر

تزعم طائفة من العلماء أن شعر العرب لم يكن عريقاً في القدم يذهب الى ما قبل أزمنة التاريخ ، وهم يدعون أن هذا الضرب من القول حديث العهد ، قريب الميلاد ، ومن هذه الطائفة كاتب العرب الاكبر ، ابو عثمان الجاحظ اذ يقول [1] :

« وأما الشعر فحديث الميلاد صغير السن اول من نهج سبيله وسهل الطريق اليه امرؤ القيس بن حجر ، ومهلهل بن ربيعة وكتب أرسطاطاليس ومعلمه افلاطون ثم بطليموس وذي بقراط وفلان وفلان قبل بدء الشعر بالدهور وقبل الدهور ، والاحقاب قبل الاحقاب ... ويقول

« فاذا استظهرنا الشعر وجدنا له الى ان جاء الله بالاسلام خمسين ومائة عام واذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام » اهـ

ونحن نرى في قوله هذا شيئاً جديراً بالبحث ، ذلك ان الكاتب الكبير يرى زمن الشعر ممتداً الى ماقبل الاسلام بمائتي عام ، وهو من جهة ثانية يعتقد ان ممن سهلوا طريق الشعر ارسطاطاليس ومعلمه افلاطون ، فهلا ذكر الجاحظ — رحمه الله — ان ارسطاطاليس توفي

---

(١) ص ٧٧ ج ١ كتاب الحيوان

قبل الميلاد بمائتين وعشرين وثلاثمائة سنة وان بين البعثة المحمدية والميلاد ما يقرب من ستمائة عام فيكون عمر الشعر الى زمن الاسلام الف عام تقريباً على زعم الجاحظ نفسه .

هذا اذا كان الجاحظ يريد من الشعر الشعر العالمي لانه أطلق قوله الثاني في عمر الشعر اطلاقاً ،

واما اذا كان يريد بقوله الشعر العربي خاصة ، فمن انبأه ان امرأ القيس كان قبل الاسلام بمائتي عام أو باقل من ذلك ، ومن الذي زعم ان اول من نهج سبيل الشعر امرؤ القيس والمهلهل ؟؟ انهم يقولون في كتب الادب ان اول من قصّد القصائد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبي فهو اول من رويت له قصيدة تبلغ ثلاثين بيتاً ثم تبعه امرؤ القيس وسواه ، ولم يقولوا ان المهلهل كان اول من قال الشعر ، يؤيد هذا ان امرأ القيس كان من المجددين في عصره « فقد كانوا يقولون [1] أسيلة الخد حتى قال امرؤ القيس أسيلة مجرى الدمع ، وكانوا يقولون : تامة القامة وطويلة القامة وأشباه هذا وجيداء وتامة العنق ، حتى قال امرؤ القيس : بعيدة مهوى القرط ، وكانوا يقولون في الفرس السابق يلحق الغزال ويسبق الظلام وامثال هذا حتى قال :

---

(١) اعلام الكلام ص ١٠٦

« بمنجرد قيد الاوابد هيكل »

ومثل هذا له كثير، ولم يكن قبله من فطن لهذا وبنى من بعده على هذه الاشارات والاستعارات فحسنت به اشعارهم جداً وسلكوا منهاجها قصداً، فتطرزت اقوالهم، وكانت الاشعار قبلها سواذج، فبقيت هذه جدداً وتلك نواهج، وكل شعر بعدها خلا منها فغير رائق النسج، وان كان مستقيم النهج . »

ويقول امرؤ القيس مشيراً لمن تقدمه من الشعراء وانه يقتفي أثرهم :

عوجا على الطلل المحيل لأننا نبكي الديار كما بكى ابن جذام

وابن جذام هذا على ما قالوا رجل من طيئ بكى الديار قبل امرئ القيس، ولم يروَ له شيء ولا سمعوا عنه تنويهاً غير هذا البيت .

ويقول عنترة وفي قوله ما يدل على أنه محدث بالنسبة للشعراء الغابرين .

هل غادر الشعراء من متردَّم أم هل عرفت الدار بعد توهم

ويشير زهير بن أبي سلمى الى ان ما يقولون من الشعر ليس الا أقوالاً تعاد مراراً :

ما ارانا نقول الا معاراً او معاداً من لفظنا مكرورا

كل هذا يدل على ان الشعر العربي لا ينتهي زمنه عند المهلهل او امرئ القيس بل يتجاوزهما الى عصور سابقة مطوية في ظلمات الزمان، وعبثاً نحاول معرفة تلك المطويات الا اذا استنطقنا الاحجار الصامتة وساعدنا في ذلك علم الاحافير، وهذا شيء ليس من السهل الوصول اليه ٠

على ان علم الاحافير نفسه يدلنا اليوم على حضارة بلاد العرب الجنوبية ، وانها كانت ذات مدنية قديمة ، ترجع الى ما قبل الميلاد بثلاثة عصور ، فهل يعقل الا يكون لتلك الحضارة شعر يسير معها ، والشعر يتمشى مع الحضارة و يزدهر بازدهارها ٠

نحن لا نشك بوجود شعر قديم عفى الزمان عليه ، و يزيدنا تمسكاً بهذه العقيدة ان اقدم شعر وصل الينا لا يختلف في قواعده العربية والفاظه عن الشعر الاسلامي ، نريد ان نقول ان هذا الشعر الذي وصل الينا مصقول تام كامل لا نجد عليه اثر ضعف النشأة ، فهو لم يبلغ اشده الا بعد ان جاوز اطواراً نمى فيها حتى بلغ سن الكمال و يزيدنا تمسكاً بهذا الرأي أيضاً ان لغة اليمن الجاهليين هي نفس لغة الحجازيين ونحن نعلم ان ابا عمرو بن العلاء كان يقول :

« ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا »

فكيف تم هذا الامتزاج ، وهلا يحتاج الى زمن طويل تنسى فيه لغة اليمن وتتسلط لغة الحجاز ؟ ؟

الا ان تسلط لغة على لغة اخرى والتعفية عليها لا تتم بعشرات السنين ، بل ان ذلك يحتاج الى الوف الاعوام ، فهل كانت اللغتان المتطاحنتان : لغة اليمن ولغة الحجاز ، خاليتين من الشعر ، والشعر وليد العاطفة ، وجزيرة العرب مجلى كبير لهذه العاطفة ؟

نحن لا نطمئن الى خلوهما من الشعر اصلاً .

كل ذلك يدل على اعراق الشعر في القدم ، فهل كان هذا الشعر الا كالآثار التي ورثناها عن ابائنا واجدادنا تراثًا كريمًا ، فيه مجلى عواطفهم وخاجات نفوسهم ، هل كان هذا الشعر الا كتلك الآثار وصلت الينا منقوصة غير كاملة ، عدا عليها الزمن فأذهب قسطًا وافرًا منها ؟

يقول ابن سلاّم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال : (١)

« كان الشعر علم قوم لم يكن اصلح منه فجاء الاسلام فتشاغلوا عن الشعر وروايته ، فلما كثر الاسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالامصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يئلوا الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم منه اكثره ، وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه اشعار الفحول وما مدح فيه هو واهل بيته فصار ذلك الى بني مروان أو ما صار منه . قال

---

(١) طبقات الشعراء ص ١٧

يونس بن حبيب قال ابو عمرو بن العلاء : ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير .»

وبديهي ان اعراق الشعر في القدم ليس معناه التقدم على النثر ، لان المقيد لا يمكن ان يسبق المطلق ، وسواء أ كان النثر المسجع كنثر الكهان قد انقلب الى رجز ومنه الى غيره من ضروب الشعر ، ام كان غير ذلك ، فان الشعر ليس حديث الميلاد صغير السن على ما نعتقد ولكنه وهو ابن العاطفة وربيب اللحن ، قديم بقدمها ، فمذ خلق الله في الناس عاطفة ، وفي الطير لحناً ، وجد الشعر ونمى معهما ، فطاب منشأً واصلاً .

تطور الشعر العربي

زمن الجاهلية وبني أُمية وبني العباس

قضية التجدد في الادب ، وفي الشعر خاصة ، قضية كتب فيها الاقدمون ، ولا يزال لها شيء من الدوي يقرع الاسماع ، ولعل السبب في بعث هذه القضية كل عصر ، هو ما تقتضيه الايام من تطور ، وهذا شيء لا بد منه للخلود ، واما البقاء على حالة دون سواها فمعناه الجمود ، او الموت .

وقديماً تطورت الآداب العالمية ، والادب العربي والشعر منه خاصة ، حتى قال العلماء ان امرأُ القيس كان مجدداً في عصره ، وقد مر معك شيء من تجدده في الفصل السابق ، ثم اصبح قديماً بالنسبة الينا ، وكانوا يقولون عن جرير والفرزدق والاخطل انهم محدثون ، ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم ، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا[1]

وقد قال ابن شرف القيرواني[2] :

قل لمن لا يرى المعاصر شيئاً ... ويرى للاوائل التقديما
ان ذاك القديم كان جديداً ... وسيغدو هذا الجديد قديما

وقد كان هذا التطور او التجدد في الشعر يظهر لأعين المحافظين

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢ (٢) اعلام الكلام ص ٢٨

بغيضاً ممقوتاً ، وربما حمل المرء على استصغار شأن معاصره حتى قال ابن شرف : « وتحفظ من شيئين أحدهما اجلالك القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تسمع له ، والثاني ان يحملك اصغارك المعاصر المشهور على التهاون بما أُنشدت له ، فان ذلك جور في الاحكام ، وظلم من الحكام ، حتى تمحص قوليهما فحينئذ تحكم لهما او عليهما ، فهذا باب في اعتلاقه استصعاب ، وفي صرف العامة و بعض الخاصة عنه اتعاب ، وقد وصف الله تعالى في كتابه الصادق تشبث القلوب بسيرة القديم ونفارها عن المحدث الجديد فقال حاكياً قولهم : « انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون » . وقال تعالى : « واذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » .

***

ثم أورد ابن شرف هذين البيتين :

اغري الناس بامتداح القديم و بذم الجديد غير ذميم
ليس الا لأنهم حسدوا الحي — ورقوا على العظام الذميم »[(١)]

وقال ابن قتيبة في كلامه عن الشعراء : « ... ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت

(١) من اعلام الكلام ص ٢٨ وقد وردت الآية الشريفة الثانية على غير ما ذكرناه ، وذلك خطأ

بعين العدل الى الفريقين وأعطيت كلاً حقه ووفرت عليه حظه فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه موضع متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا انه قيل في زمانه ورأى قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مقسوماً بين عباده ، وجعل كل قديم منهم حديثاً في عصره . . .[١] »

من كل ذلك يظهر لنا ما يشعر به المحافظون قديماً وحديثاً من جهة التطور .

ولكن كيف كان هذا التطور في الجاهلية وصدر الاسلام حتى زمن شاعرنا ؟؟

ان مما لا سبيل الى تعرفه جيداً تطور الشعر في الجاهلية ، فنحن نجهل المذاهب التي كان يذهب اليها الشعراء قبل امرئ القيس ، ولا نعلم الا اليسير مما كانوا يقولون حتى جاء امرؤ القيس باساليب جديدة .

ولعل الشيء الذي يمكن ان يقال بهذه المناسبة هو ان اللغة اليمانية العريقة في العروبة قد اضمحلت بما فيها من ادب وشعر ، وقامت مقامها اللغة الحجازية بأدبها وشعرها ، حتى أن الشعراء اليمانيين كانوا ينظمون بلغة قريش لما كان لها من الرونق ولأنها كانت ملتقى لغات العرب وصفوتها .

---

(١) الشعر والشعراء ص ٢

وهذا امرؤ القيس رأس شعراء الجاهلية ، يماني الاصل والنشأة ، لا تجد فرقاً بين لغته ولغة قريش .

ويزيدنا تمسكاً بهذا الرأي قول ابن العلاء الذي سردناه لك في البحث المتقدم اذ قال : « ما لسان حمير واقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا »

ولا نرى هذا الرأي واشباهه مما يدعو الى الشك ، سبباً وجيهاً في نكران الشعر الجاهلي ، وانه منحول لبعض الشعراء ، لان قول ابن العلاء يدل على ان لغة اليمن القديمة كانت غير لغة الحجاز ، وهذا القدم يتجاوز عصر امرئ القيس وغيره الى ازمة مجهولة التاريخ ؛ وان من الشطط في الرأي ان نذهب الى ابعد حدود الشك في هذا الصدد فنزعم ان ليس في الشعر العربي ما هو جاهلي يدل على لغة ما قبل الاسلام .

هذا وجه في تطور الشعر الجاهلي من حيث لغته .

واما تطوره من حيث اساليبه ، فليس عندنا شعر يتقدم زمن امرئ القيس ، لنقارن بين الاسلوبين ، وجل ما عندنا هو ما ذكروه عن تجدد الملك الضليل وقد تقدم ذلك في البحث السابق

واما الاغراض من فخر وهجاء ، ونسيب ووصف ، ورثاء ومديح ، واعتذار وحكمة ، واما الخيالات الشعرية ، فالظاهر أنه لم يكن هناك من فرق كبير فيها عصر امرئ القيس والذي تقدمه ، لوحدة

الوحي ولبقاء الحالة الجاهلية والبيئة على وتيرة واحدة ، ولأن آفاق الصحراء واجواءها لم تتبدل ٠

وانما هذا ضرب من الحدس والتخمين في عصور الجاهلية الاولى العريقة بالغموض ، وانما يتناول الحكم الصحيح ما كان واضحاً ، ولذا فان التطور يظهر فيما بعد امريءالقيس ، ولتعرف ذلك نلاحظ بعض مميزات الشعر الذي وصل الينا :

فمما نشاهده في الشعر الجاهلي عدم ترتيب الافكار ، لما تقتضيه طبيعة الارتجال وعدم اعمال الروية ، وظهورُ المعاني دون تعمق او استعارات دقيقة ، او مجاز ؛ كل ذلك بأساليب جزلة والفاظ عربية صرفة ، الا ما وقع نادراً من استعمال الفاظ اعجمية مع ايجاز تستدعيه طبيعتهم ٠

ثم انك «حين تقرأ الشعر الجاهلي تشعر ان شخصية الشاعر اندمجت في قبيلته ، حتى كأنه لم يشعر لنفسه بوجود خاص ، وانك لتتبين هذا بجلاء في معلقة عمرو بن كلثوم ، وقل ان تعثر على شعر ظهرت فيه شخصية الشاعر ، ووصف ما يشعر به وجدانه ، واظهر فيه انه يحس لنفسه بوجود مستقل عن قبيلته ٠٠٠

والشعر الجاهلي لا يدلنا على خيال واسع متنوع ولا على غزارة

في وصف المشاعر والوجدان بقدر ما يدلنا على مهارة في التعبير وحسن بيان في القول (١) »

ثم جاء الاسلام، فأخذ الناس والشعراء يتدارسون القرآن الكريم ويعجبون باعجازه ، وقد سحرهم ما وجدوا فيه من عذوبة في الالفاظ ، وسهولة في التراكيب، وأخذ بلبهم ماتضمنه من الآيات البينات، والمعاني السامية الدقيقة ، والافكار المتسلسلة ، فطفق الشعراء يقتفون اثره ، فألانَ من الشعر قساوته ، ورقق منه حواشيه ، فسلك الشعر طريقاً تختلف عن طريق الجاهلية بهذه البلاغة والحلاوة والترتيب ، إلا انها لا تتجاوز الطريقة الجاهلية في الصوغ والوزن والخيال ،

ولم يكن للشعر زمن النبي عليه الصلاة والسلام ما كان له قبل ذلك من تحدي فنون كثيرة، كالمفاخرة والمنافرة والهجاء وغير ذلك ، بل انصرف الشعراء المسلمون كحسان رضي الله عنه الى الذب عن حياض الاسلام ودعاته، فكانوا كصحف اليوم على صورة مصغرة

ثم كان زمن بني أمية واذا بالشعراء وهم ألسن الاحزاب ينشطون للعمل ، واذا فيهم المناضل عن بني أُمية وعن آل البيت وعن الزبير وعن الخوارج ، واذا باشعارهم تعود الى اغراضها السابقة ، فتحيي العصبية ،

---

(١) فجر الاسلام ص ٧١ ج ١

ويقوم المربد في البصرة مكان عكاظ في الجاهلية ، واذا هناك فن جديد من الشعر هو الهجاء السياسي في الشام ،

واما الحجاز ، فقد عرف بنو أمية كيف يوجهونه الى الترف واللهو ليشتغل اهله بذلك عن النضال السياسي ، فاذا بالغزل ينمي ، واذا بشعرائه كابن ابي ربيعة واضرابه يملكون فيه أعنة القول .

واما العراق ، فقد كان محط رحال العلماء والادباء ، وقد علمت من قبل ما كانت عليه الكوفة أول نشأتها ، حتى اذا أنشئت البصرة أخذت تنافسها ، فكان العراق من ثم مهوى العلم والادب والشعر كما كان الشام موقد السياسة ، وكما كان الحجاز مثوى اللهو واللذات . في هذه البيئات كان الشعر يغلي غليان المرجل ، ففي الحجاز كثير وجميل وعمر ، وفي الشام والعراق جرير والفرزدق والاخطل ، واذا بالشاعر يظهر شخصيته في شعره ، وفي الغزل خاصة ، و يكرس القصائد لنفسه يملؤها بعواطفه وخوالجه ، ثم يزداد ذلك الى زمن بني العباس فينمي ذلك نماءً عظيماً .

ومع ذلك فان الشاعر في هذا الطور الاموي لم يخرج عن كونه لسان قومه الناطق ، قبل ان يكون لسان نفسه ، يدلك على ذلك ما قاله جرير لراعي الابل حين تعرض له : « لقد أقمت في هذا المصر (البصرة) سبع سنين ، ادافع عن قومي واذب عن حياضهم ، ولا همَّ لي

الا ان أسب من سبهم ، وان أشتم من شتمهم .»

والذي يلاحظ في هذا الطور، ان الشعر لم يتحرر فيه من خيال الجاهلية ولا من طريقتها ووزنها ، لكنه وقد تأثر بالقرآن الكريم زمناً طويلاً ، وتأثر باساليبه ومعانيه ، فقد بات جزل التراكيب ، حلو الالفاظ ، طلي الاساليب، مع ترتيب في الفكر، وتقريب للمعنى، ومع ذلك فقد كان شعرهم أسمى في الخيال من شعر الجاهلية، واكثر معنى ، يحسنه شيء من جمال الحضارة وروائها ، لامتزاج الامة العربية بالامة الفارسية ، وظفر لغة (القرآن) بلغة (زرادشت) .

وقد أخذ الغالب يتأثر بلغة المغلوب ، وطفقت الآداب العربية تتأثر بالآداب الفارسية، لان عصر التمازج بين الشعوب يورث التمازج في الثقافات على الاغلب ، فكان من نتائج هذا التمازج ان اصبح الشعر والكتابة عملاً يرتزق الناس به ، وأنشأت طبائع بعض الكتاب والشعراء من العجم المستعربين نظهر في الادب العربي ، وفي الشعر خاصة ، فكان التكلف من اجلى تلك المظاهر ، وكنت ترى الفاظهم وتراكيبهم العربية ، تسيطر عليها روحهم الفارسية، بما توحي من معان وخيالات بعيدة عن الفطرة العربية ، فكان من ذلك نتاج جديد من المعاني في الشعر العربي .

وكان لجانب هذا النتاج الفطري الفارسي ، نتاج آخر من شعراء

العرب انفسهم ، وقد نزلوا العراق وما يليه من بلاد فارس ، فأثرت في خيالهم البيئة تأثيراً لا سبيل الى نكرانه في الشعر ، وفي الادب على وجه اعم ٠

ولم يقتصر الأمر على التأثير في خيالهم ، بل ان التمازج أحلَّ للغة الغالبة أخذ مفردات كانت تراها من دواعي الحضارة المنتقلة اليها عن الفرس ، فاستعمل هذه الألفاظ كتاب العربية وشعراؤها ، وبذلك دخل اللغة العربية عنصر آخر من عناصر اللغة المغلوبة ؛

وكان من جراء ما ترجم عن الفارسية خاصة وعن اليونانية والسريانية ، أن وجد الشعراء والكتاب ذخيرة جديدة تعهدوها بأشعارهم ، فكانوا يعمدون الى الحكم المترجمة فيصبونها في قوالب شعرية عربية ، لما في طباع شعراء العرب من حب الحكمة ، فكان في ذلك افق حديث رائع من آفاق التجديد ٠

أضف الى هذا أن الغناء الفارسي نقل الى العربية من قبلُ ، فقد نقل صاحب الاغاني أن سعيد بن مِسْجَح ، وكان من فحول المغنين واكابرهم ، مرّ بالفرس وهم يبنون المسجد الحرام ، فسمع غناءهم بالفارسية ، فقلبه في شعر عربي ٠

ونقل أبو الفرج ايضاً عن ابن محرز وعن ابن خُرّداذبة ، كيف صاغا اصواتاً غُني بها في الاسلام ، فكان لهذه النغمات اثر كبير في

النغمات العربية ، وفي مجالس الغناء التي كانت مجالس ادبية ، يرقق فيها الشعر ليتفق والذوق الموسيقي ، ومن ثم كانت تلك المجالس عامرة بالشعر المصفى ·

اذا جمعت كل ذلك وأضفت اليه تحويل الفرس كتابة العرب الى انماط جديدة في الترسل والانشاء الفني ، كطريقة عبد الحميد – رأيت عظم تأثير أدب الفرس بالأدب العربي وبالشعر على وجه خاص · وساعد على ترقيق الشعر وتأثره بالحضارة الفارسية خاصة أن تلك الحضارة كانت تحت أنظار الشعب العربي ، فكان بديهيًا ان يتأثر هذا الشعب الناشط بتلك الحضارة القريبة منه ، وأن تكون استفادته منها ، وتأثره بها ، اكثر من تأثره بحضارة اليونان والرومان وادبهم وأشعارهم خاصة ، لبعد ما بين الامة العربية والحضارة اليونانية ، ولأن العرب كانوا يتعصبون لشعرهم ، فليس للشاعر العربي أن يخرج على ما ألفه شعراء العرب الاقدمون في الأوزان والقوافي والموضوعات ، كالملاحم او القصص المسهب او التمثيل كما هو الشأن في الشعر اليوناني ، بل كان الشعر الغنائي (ليريك) جل ما عند العرب مع شيء غير كثير في القصص والحروب ·

ولعلهم كانوا يرون الخروج على ما ألفه شعراء العرب الاقدمون انتهاكاً لحرمة الادب ، واقترافاً لما لا يغتفر · ولأمر ما ، ولعقيدة

ثابتة في النفس ، سطر ابن قتيبة في الشعر والشعراء هذا الرأي فقال :

« وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الاقسام فيقف على منزل عامر ، او يبكي على مشيد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافي ، او يرحل على حمار او بغل ويصفهما ، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، او يرِد على المياه العذاب الجواري ، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي ، او يقطع الى الممدوح منابت النرجس والآس والورد ، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحَنْوَة والغرار ،

قال خلف الاحمر : « قال شيخ من أهل الكوفة أما عجبت من الشاعر قال — أَنْبَتَ قيصوماً وجثجاثا — فاحتمل له وقلت انا — انبت اَجاصاً وتفاحاً — فلم يحتمل لي »

وليس له أن يقيس على اشتقاقهم فيطلق ما لم يطلقوا ؛

قال الخليل بن احمد انشدني رجل :

ترافع العزُّ بنا فارفنععا ، فقلت ليس هذا شيئاً فقال كيف جاز للعجاج ان يقول — تقاعس العز بنا فاقعنسسا — ولا يجوز لي ؟ »[1]

فهل كان هذا التقييد الا محافظة على التراث القديم ؟ ؟

ولكن ذلك لم يبق حتى كسر المتجددون تلك القيود .

---

(١) الشعر والشعراء ص ٧

ثم انظر الى تأثير الأدب الفارسي في الادب العربي ، تجد أن ذلك الأدب قد ذاب في البوتقة العربية فانتقل اليها ، بينما لم يكن شيءٌ من ذلك في اللغة اليونانية والرومانية او في ادبهما وانما هناك ما نقله السريان عن اليونان ، والمترجمون عن السريان ، الى العربية ، من حكم نسبت لأفلاطون ولأرسطو وغيرهما فتناولهـا الشعراء حكماً جرت على ألسنهم شعراً

وكانت الترجمة على وجه اعم من اكبر المؤثرات في الحضارة الاسلامية ، وهناك كلمات اخذتها الحضارة الاسلامية من الحضارة اليونانية سواءٌ أكان ذلك بالاختلاط او بالترجمة فاستعملها الشعراء كالفردوس وغيره

فنحن نرى من هذا كيف احيطت الحضارة الاسلامية ومن ثم الادب والشعر خاصة بالحضارتين الفارسية واليونانية فاستفاد الادب من ذلك ، واقتبس ما هو بحاجة اليه من دواعي المدنية الجديدة

وما بزغت شمس العصر العباسي وتلألأت انواره ، حتى اصبح الادب اجنبياً ؛ فبعد أن كان ادب بني امية عربياً خالصاً عليه صبغة البداوة وهو مظهر صادق لتغير النفس العربية ، اذا بالأدب العباسي يصبح مظهراً لتغير النفس الاعجمية الاجنبية ، فهو اذن أدب اجنبي لغته العربية ، وهو مجلى شعب خليط فيه عقليات متعددة : فمن عقلية سامية الى

يونانية ، ومن بدوية جاهلية ، الى اسلامية فارسية ، ومن مسيحية الى سريانية ، وان عقلية شعب خليط كهذا لهي مخالفة كل المخالفة للعقلية العربية . وكان في هذا الاختلاط الذي رأيت ، صراع بين الامتين الفارسية والعربية ، ومن هنا نعلم السبب الذي صير العراق مهداً للدسائس والمعارضات حتى ضعف التأثير العربي وقويت الشكيمة الفارسية ، وتغلبت الحضارة الغضة ، فلانت الألفاظ والمعاني حتى كانت اللغة التي يتكلم بها جيل صدر بني العباس وسطاً بين العربية الخالصة وبين الرطانة الاعجمية ، فقلّ حظ الأدب من السذاجة ، ونال قسطاً وافراً من التكلف الفني ، واصبح نتيجة صناعة وتعمل بعد أن كان وليد الطبع والسجية الحرة .

وازدادت المدنية واورقت الحضارة وآتت اكلها ، فاذا ببغداد تغرق في بحور الترف والبذخ ، واذا بالشعراء يتهالكون على الحياة غضة طرية ، وينصرفون عن النزعة السياسية ، خوف بطش الخليفة ، الا قليلاً ، واذا بهم يغرقون في الخمور واللذات فيصفون مجالس الانس والرياض والقصور ومشاهد الحضارة . فبدت على الشعر الحديث حينئذ ظواهر غريبة ، اظهرها الاباحية والاسراف في حرية التفكير ، وازدراء القديم من دين اوادب ، والانطلاق من تلك القيود الثقيلة التي كان يضعها أئمة الادب ، وشيوع

الزندقة ، والاستهتار ، وعدم الابقاء على ماء الوجه في سبيل التملق واستدرار الخلفاء وخزنة الاموال ، كل ذلك بالفاظ سهلة ، واساليب طلية ، وافتنان في الدعوة الى مذاهبهم ؛ فرُقِق اللفظ في شعر هذا الطور وسهلت الجمل حتى بعدت الصلة بين شعر هذا العصر وشعر العصر الاموي ، وكاد الشعر يعد نثراً لولا الوزن والقافية ، لكنه بقي جزلاً واضح المعنى .

والذي يلاحظ في لغة الطور هجران الشعراء كثيراً من الالفاظ الغريبة ، ودخول كثير من الكلمات الاعجمية في الشعر العربي .

اما معاني الشعر فقد اصبحت حضرية صرفة بدلاً من الحضرية الممزوجة بشيء من البداوة ، فبات الشعر مرآة طبع مهذب متحضر ، لايصدر عن الشاعر الا بعد أن يسيطر عليه العقل فيصلح من امره ، ويخفف من مبالغاته الخارجة عن الذوق الفني .

واما الاوزان التي كانت في صدر الاسلام طويلة ، فقد زهد فيها الشعراء زمن بنى العباس ، الا ما كان للجد من اغراض الشعر كالمديح ، وقد عمدوا الى الاوزان الخفيفة السهلة ، وجعلوا تناسباً بين المعنى والوزن ، واخذوا ينتقون أيسر الألفاظ واسهلها على الطبع

ويتجنبون عيوب القوافي مما كان لا يتجافاه الاقدمون من ابطاء واسناد واقواء ·

وقد اخترعت في هذا العصر بعض اوزان زعموا ان منهـا ما اخترعه شاعرنا مسلم بن الوليد ·

وأما اغراض الشعر في زمن بني العباس فقـد تنوعت تنوعاً تقتضيه حضارة تلك الايام ، فضاقت فيه آفاق وتوسعت آفاق سواها ، فالشعر السياسي استحال الى هجاء بسيط مخافة الخلفة ، ولم يعد لهذا الضرب من القول ما كان له زمن بني امية من قوة وتأثير في المجتمع ·

واندثر الغزل العذري او كاد ، لأن بيئة كتلك البيئة وزمناً كذلك الزمن لا يمكن ان يعيش فيهما غزل «افلاطوني» عذري عفيف ، واصبح الغزل العادي صناعة متكلفة ، قلما يصدق الشاعر فيه حين يريد أن يصف خلجات النفس وخفقات الفؤاد ، واستعيض عنه بغزل المذكر ، ذلك الغزل الذى يصور فساد تلك البيئة اكمل تمثيل ، حتى كاد يصبح هذا الفن من القول مقياساً لاجادة الشاعر في الغزل !!

واما الهجاء فسار شوطاً بعيداً مع الفحاش في القول واقذاع مؤلم ، لا يتهيبون فيه ولا يقصرون ·

واما المديح فاصبح اداة للكسب ، يراق معه ماء الوجه ، ولا يتحوب الشاعر فيه ان يبالغ مسرفاً في مبالغته ·

وكان القول في المجون والخمر والوصف وغزل المذكر اكثر فنون هذا العصر انتشاراً واشدها التصاقاً بالحياة المادية الحضرية ، وكان بديهياً ان تكون الخمريات والوصفيات مع ما يتبعها من قول في المجون والغزل ، اكبر مرآة تتجلى فيها الوان كثيرة من الوان ذلك العصر ان لم نقل كل الوانه ، وكان بديهياً ايضاً ان يجلي الشعراء في هذه الفنون ، وهم في عصر شاعت فيه الغلمان والخمور وتسلطت على الحياة المنزلية فيه الاماء ، فتبوأن مكان الحرائر ربات الخدور · ومما يجلب الدقة قليلاً ان الرجز كان له حظ اوفر من الوصف في هذا العصر ، وقد برع ابو نواس في هذا النوع واكثر منه ، ومن الغريب فيه ، فكأنه كان يريد ان يزين التجديد في المعنى بالمحافظة الشديدة على اللفظ ·

وشاع في هذا العصر الشعر المرسل في الزهد ، وقد يكون غريباً شيوع هذا الفن في زمن كثرت فيه الشهوات وانتشر فيه الفساد ؛ لو لم تكن الحكم والفلسفة الهندية والفارسية قد ساعدت على شيوع هذا الضرب من القول ، واكثر ما جرى هذا الفن فعلى لسان أبي العتاهية شعراً كما جرى من قبل عن لسان ابن المقفع

نثراً ، ولكن شعر أبي العتاهية لم يكن له من الرواة ما كان لنثر ابن المقفع ٠

وظهر نوع جديد من الشعر ، نطلق عليه لفظ « الشعر » تجوزاً وتساهلاً ، والا فهو ابعد شيء عن هذا الاسم ، الا وهو الشعر التعليمي ، وهو كما تعلم خلو من الرونق الشعري ، لكنه من جهة يدل على تسلط العقل على الحياة الادبية ٠

و بعد فان فيما تقدم على ما نعتقد شيئاً يجلو تطور الشعر والادب في اعظم عصور العربية فلنعكف على شاعرنا لنرى كيف وقف من ذلك التطور ، وسنجلو تطور بعض اغراض الشعر عند الحاجة في المباحث الآتية ٠

بديهة الشاعر

قالت طائفة من العلماء ان مسلماً لم يكن يرتجل [1] ولا يبتدي لانه كان صاحب روية وفكرة ، يخشي على تفكيره ان يذهب في الارتجال فيسف الى ما كان يسف اليه جماعة من الشعراء تبدو الركاكة على كلامهم وتفكيرهم في ارتجالهم ·

ولكن مسلماً شأن الشعراء اجمعين خطرت له خواطر ، واجبرته بعض الظروف على الارتجال فارتجل ·

ولم يكن ارتجاله بالركيك الرديء ولا بالسامي الرائع ولكن كان وسطاً ، يظهر لك ذلك ما ذكرنا من قبل اذ ارتجل ابياتاً في غادة حسناء كانت تسقي الفضل بن يحيى ثم صارت من نصيب صريع ·

واوردنا لك اثناء البحث عن تقربه من الخليفة الرشيد وعن تشيعه كيف ارتجل بيتين مدح بهما بني العباس ·

وحدثناك في بحث آخر حياته عن حزنه على زوجة له وقوله فيها ابياتاً أليمة ·

وقالوا ان رسول عباسة ابنة المهدي خرج الى الشعراء ذات

---

(١) العمدة

يوم فقال تقريكم سيدتي السلام وتقول لكم من اجاز هذا البيت فله مائة دينار فقالوا هاته فأنشدهم :

انيلي نوالاً وجودي لنا فقد بلغت نفسيَ الترقوه

فقال صريع :

واني كالدلو في حبكم هويت اذا انقطعت عرقوه

فأخذ المائة دينار ·

وقيل ان صريعًا وقف بباب محمد بن منصور فاستسقي فأمر وصيفًا له فأخرج اليه خمراً في كأس مذهبة فلما نظر اليها في راحته قال :

ذهب في ذهب را ح بها غصن لجين
قمر يحمل شمساً مرحبًا بالقمرين
فأتت قرة عيني في يدي قرة عين
لا جرى بيني ولا بيـ ـنهما طائر بين

وهو في بديهته قوي الملاحظة مدح يزيد ولما وصل الى قوله :

تراه في الامن في درع مضاعفة لا يأمن الموت ان يدعى على عجل

قال له يزيد : هلا قلت كما قال الاعشى في مدح قيس بن معدي كرب :

واذا تجيءُ كتيبة ملمومة شهباء يجتنب الكماة نزالها

كنت المغبّر غير لابسِ جنة ... بالسيف تضرب مُعلَماً ابطالها

فقال مسلم : قولي احسن من قوله لانه وصف قيساً بالخرق وانا وصفتك بالحزم .

هذا ما حدثونا به عن بديهته فلننظر فيما انتجه تفكيره ورويته .

كلمة عامة في شعر الشاعر

صريع الغواني شخصية جليلة في الشعر ، حلق في سمائه كل محلق ، وجال في رياضه كل مجال ، وأنت لا تجد له على قلة ما بايدينا من شعره ، انخذالاً في فن من فنون الشعر بتلك الايام ، الاما كان من امر غزل المذكر والهجاء ، ولو جاءنا كل ما نظم — وقد كان مكثراً في الشعر كما قالوا — لكان لنا رأي قد يكون بتفضيله على الكثير من اكابر الشعراء . وماذا تقول اذا علمت ان ابا تمام وهو من تعرفه في الشعر والخلود ، وضع بين يديه ديواني مسلم بن الوليد والحسن بن هاني (ابي نواس) وحلف ألا يصلي حتى يحفظ شعرهما ، فمكث شهرين كذلك حتى بر بيمينه . ودخل عليه أحد أصحابه ذات يوم فرأى بين يديه شعرهما فقال له ما هذا ؟ فقال ابو تمام : « اللات والعزى وانا اعبدهما من دون الله ! »

وكان الكثير من العلماء يقولون إن مسلماً أشعر من أبي نواس ، وقال عبد الصمد بن المعدل ما جرى ابو نواس قط في ميدان مسلم الا ان له من الشهرة والذكر ما ليس لمسلم ، وقال آخرون انه نظيره واما البحتري فقد كان لجانب الحسن بن هاني .

وعندنا ان ابا نواس لا يجارى في خمرياته وفي الغزل بالمذكر

وقد ذكروا ان جماعة من ندماء المأمون اجتمعوا لديه وأخذوا ينشدون شعراً لشعراء مختلفين حتى ذكر له أحدهم قول مسلم اذ رثى شخصاً فقال :

ارادوا ليخفوا قبره عن عدوه   فطيب تراب القبر دل على القبر

ومدح آخر فقال :

يجود بالنفس ان ضن الجواد بها   والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وهجا آخر فقال :

قبحت مناظره فحين خبرته   حسنت مناظره لقبح المخبر

وتغازل فقال :

هوى يجد وحبيب يلعب   انت لقىً بينهما معذب

فقال المأمون : هذا أشعر من خضتم اليوم في ذكره ·

واذن فلم تكن شخصية مسلم الشعرية بالهينة السهلة ولكنها ذات خطر وعظم ·

كان مسلم لا يسف بشعره اسفاف سواه من فطاحل الشعراء وانك لتقرأ لبشار وأبي العتاهية شيئاً فيه من الاسفاف مايخجل نسبته الى الشاعر ، ولكنك لا تقرأ شيئاً من ذلك لمسلم مما في ايدينا من شعره ·

انك لتضحك ولا شك حينما تقرأ لبشار :

ربابة ربة البيت   تصب الخل في الزيت

لهـا سبع دجاجات وديك حسن الصوت

وحينما تقرأ لأبي العتاهية مطلعاً لقصيدة رائعة:

ألا ما لسيدني مالها أدلت فأجمل ادلالها

وقوله :

الحمد والنعمة لك . والملك لا شريك لك . لبيك ان الملك لك .

ولكنك لا تجد شيئاً من ذلك الاسفاف اللفظي في شعر مسلم حتى فيما قاله محاجياً .

وهذه المزية في شعره على ما اعتقد كانت سبباً عظيماً في انتشـار شعره عند الخاصة دون العامة ؛ لان الطبقة الثالثة من الشعب تستطيب الاسفاف بينما لا تستمرئها الطبقتان الاوليان من الخلفاء ، والاشراف ، بما فيهم العلماء والمثقفون .

ومن هنا كان ابو نواس اوسع شهرة عند الشعب من صاحبه صريع ، وكان مسلم مقدماً محترماً عند اولئك .

وتقدمه هذا عند الطبقتين الساميتين في الشعب ، جعل له عناية خاصة بالالفاظ والرصف ، وابتكار المعاني وصوغها في اجمل ما تكون زينة وجرساً ، مع تطويل رائع ، وانما جلده على التطويل جلد نبوغ وثقة بالنفس .

وانك لتقرأ القصيدة الطويلة من شعره فلا تجد فيها اثراً للركاكة

او الوهن في البناء ، ولا تشعر بنفور الكلمة عن مجاورتها او عن القافية وتوشك ان تقول انما خلقت القافية لهذا البيت فقط فكأن البيت ينصب انصباب الماء الزلال اليها ·

وساعده على ذلك النظم المتين ما كان لديه من ذخيرة لغوية ومن طبع جبل على الشعر ، ومن جمع هاتين المزيتين كان له شعر البيان وسحره ·

وقد كان في ألفاظه كالصائغ الماهر العارف بوضع الجواهر في مواضعها ، فاذا كان العقد لغادة حسناء انتقى من جواهره الكثيرة الثمينة ما يصوغ به عقداً فائقاً تبقى صنعته فيه خالدة على الدهر · واذا كان لهر او لكلب لم يبخل بجواهر اقل قيمة من تلك يجعلها قلادة او عقداً ولكنه بديع الصوغ فيها ايضاً ·

هذا مثل صريع : اذا مدح عظيماً فتش عن اشرف الالفاظ واحلاها ، واضخمها وأقواها ، فنظمها سا كباً فيها من روحه ، واذا هجا لم يتبذل في استعمال الفاظ السباب والشتيمة · ونحن لم نجد له من الالفاظ القبيحة في الهجاء الاما قاله في امرأة كما سترى ذلك في بحث الهجاء

اما في غزله وخمرياته ووصفه فالألفاظ حلوة سهلة ، لينة غضة يستلذها السمع ، ويستحليها الطبع ·

واذا عشق مسلم لفظاً لذكرى طيبة او لتناسق في حروفه مع

بعضها ، جرى على لسانه مراراً وتكراراً ، حتى انه ليذكره في البيت الواحد مرتين او اكثر فمن ذلك قوله :

ما مر بي رجب الا نعمت به   يا حبذا رجب لو دام لي رجب

وقوله :

تبسم عن مثل الاقاحي تبسمت   له مزنة صيفية فتبسما

وقوله :

واهاً لايام الصبى وزمانه   لو كان اسعف بالمقام قليلا

* * *

ولرب يوم للصبى قصرنه   بالملهيات وقد يكون طويلاً

وقد يكون البيت الذي سنورده لك الآن هو كل ما اخطأ فيه مسلم اثناء ترديده ذلك ، اذ قال عن الخمرة :

سلت فسلت ثم سل سليلها   فأتي سليل سليلها مسلولا

لا شك انه بيت غير مستطاب ولكن الا يغتفر له مقابل حسناته الجمة

ولم يقتصر ترديده على الالفاظ ، بل ردد كثيراً من المعاني التي تستملحها نفسه من ذلك قوله :

الشيب كره وكره أن يفارقني   اعجب لشيءٍ على البغضاء مودود

يمضي الشباب وقد يأتي له خلف   والشيب يذهب مفقوداً بمفقود

فردده وقال :

لا يرحل الشيب عن دار أقام بها حتى يرحِّل عنها صاحب الدار

وقد كان اللهو احلى ما يمتزج بنفسه ذلك اللهو الذي ملأ جوانب قلبه وتغلغل في صميمه فاكثر من ترديد معانيه فقال :

هل العيش الاان اروح مع الصبى صريع حميا الكأس والاعين النجل

وقال :

ما لذة الدنيا اذا ما لم تكن فيها فتى كأس صريع حبائب

ويسهل عليك جداً حينما تقرأ ديوانه ان تجد الفاظاً ومعاني كثيرة يرددها بين قصيدة وغيرها

اما معانيه الرائعة فقد اختار لها اللفظ الرفيع السامي وانتقاها انتقاء الصيرف الدينار البراق ، فاذانظم في غرامه ولذاته رأيت الشعر الغنائي ورقته وخيالاته الجائشة ، بأجمل الحلل والاساليب ، واذا مدح شعرت باختيار سام للمعاني الضخمة والالفاظ الفخمة ، مع ذوق فطري دقيق يناسب بين اللفظ والمعنى . اقرأ قوله في مديح بن مزيد واختياره للحروف المرددة ذات الجرس القوي :

اغر ابيض يغشى البيض ابيض لا يرضى لمولاه يوم الروع بالفشل

يغشى الوغي وشهاب الموت في يده يرمي الفوارس والأبطال بالشعل

يفتر عند افترار الموت مبتسماً اذا تغير وجه الفارس البطل
موف على مهج واليوم ذو رهج كأنه اجل يسعى الى امل

***

يغدو فتغدو المنايا في اسنته شوارعاً تتحدى الناس بالأجل
اذا بغت فئة عن غب طاعتها عبى لها الموت بين البيض والاسل
قد عود الطير عادات وثقن بها فهن يتبعنه في كل مرتحل

ولعلك تشعر ان معظم هذه المعاني واردة في شعر الاقدمين فلمسلم فيها فضل السبك والطبع

ثم اقرأ له هذه القصيدة وما كان على شاكلتها مما يدخل نفسك دخول الفرح، ويمتزج بها امتزاج النشاط بالدم، كيف يمتلك عليك لبك ولا يحوجك الى اي عناء او تفكير:

هذي الحمامات ان بكت ودعت اسعدها في بكائها الفنن
فمن على صبوتي يساعدني اذا جفاني الحبيب والسكن

وهذه القصيدة من غرر شعره اوردناها اثناء البحث في نشأته (ص ١٨ — ١٩) ثم اقرأ هذين البيتين من شعره الذي اغار عليه الشعراء :

ذاك ظبي تحير الحسن في الار كان منه وحل كل مكان
عرضت دونه الحجال فما يل قاك الا في النوم او في الاماني

ومن بديع معانيه ما اوردناه لك في صدر هذا البحث وقد اعجب المأمون به، ولا نكثر، ففي المنتخبات التي ستأتي آخر الكتاب شيء يغني ·

وانك لترى مسلماً في شعره قوي اسر الشعر، رائع الوصف، محكم البناء، يقوى بلا تكلف حتى تحسب شعره لمتقدمي الاسلام والجاهليين ويسهل حتى يمتزج مع النفس واهوائها، وتستسيغه القلوب باحلى ما تستطيب به شعراً، فهو سلسل، جزل، لين، قوي، يمشي مع مقتضى الغرض الذى يساق اليه ·

فشاعر هذا شأنه جدير ان يكتب فيه كتاب قد لا يوفيه حقه، وهو حري بالخلود على الدهر ·

اسلوب الشاعر

البديع

تفتح ديوان مسلم وتقرأ ما تشاء فيستلفت نظرك زينة محكمة في شعره، كثيرة الايراد مختلفة الاشكال، ولكنها تصدر عن نبع واحد ذلك، هو البديع ·

ولعل الاكثار من هذا النوع من الكلام كان اثراً لا بد منه، ونتيجة منتظرة للغة نمت وتعالت حتى بلغت اوجاً سامياً، ونالت حظّاً كبيراً من الحياة، فقد كانت اللغة بجميع فروعها صدر زمن بني العباس شغلاً شاغلاً، وكان الادب صناعة عظيمة سمت فيه المعاني والالفاظ والخيالات ولم يبق الا ان يزدان الشعر بانواع البديع المختلفة ·

وقد زعمت طائفة ان مسلماً اول من ابتدع هذا المذهب ولكن الصواب غير ذلك، اذ كانت انواع البديع منشورة في شعر المتقدمين من الجاهلية[1] حتى الاسلام، وقد وردت ايضاً في كتاب الله عز وجل وانما تتبع مسلم تلك الانواع واعتدها ووشح شعره بها ووضعها في مواضعها، فكان اول من لطف البديع

(١) الموازنة للآمدي ·

وكسا مبانيه حلل اللفظ السامي ، وتبعه في ذلك شعراء كثيرون كأبي تمام والبحتري وابن المعتز وغيرهم ·

ولم يسلم شاعرنا في مذهبه من الطعن والنقد ، حتى قيل أنه اول من افسد الشعر ، ولما جاء ابو تمام بعده تفرغ له واكثر منه حتى تحير الناس ·

وشعر أبي تمام يرتفع عن سائر من ذهب هذا المذهب لكثرة محاسنه وبدائعه واختراعاته ، ولكنه ينحط عن درجة مسلم ، لقوة طبع شاعرنا ، وسلامة شعره ، وسهولته وحسن سبكه وصحة معانيه ، وهو اشعر من أبي تمام لأن الطائي كان شديد التكلف صاحب صنعة وقد يستكره البعض من الفاظه ومعانيه فيها · اما عبد الله بن المعتز فقد كان ذا صنعة لطيفة عجيبة الصنع دقيقة التركيب وقد لا تظهر في بعض الاحيان الا للبصير بدقائق الشعر [1] وقد كان اكثر اصحابه بديعاً الا ان مسلماً وحبيباً سهلا على الناس طريق البديع تسهيلاً لم يكن في شعر ابن المعتز ، ولهذا فان شعرهما انفع للمبتدي في طلب التصنع ومزاولة الكلام ·

وعندنا ان صنعة البديع في الشعر ، والسجع في النثر ، من الاسباب الفعالة في تدني هذين الفنين الكبيرين ، اذ لا تتاح الاجادة

---

(١) العمده ·

فيها الا للعبقري النابغ واذا شاء من دونه محاكاته في ذلك سقط فلا ادباً اكتسب ، ولا ثمراً انتج ٠

ونحن نرى ان الفكر حينما يكون طليقاً من هذين القيدين ينتج ما لا يقدر عليه مقيداً ، واذا كان هذان القيدان وحدهما كافيين لتقييد الأنتاج الادبي ، فكيف القيت النظر على عصور العربية التي انحط فيها الادب وعلى القيود السياسية والزمنية ، لا شك ان الثمر يكون اذ ذاك فجًا وقليلاً ، وهكذا كان ٠

وقد يكون القاسم بن مهرويه مصيباً من هذه الجهة فقط حين يقول عن مسلم انه اول من افسد الشعر وتبعه ابو تمام كما تقدم ، وقد يكون مصيباً ايضاً من قال مثل ذلك في النثر عن القاضي الفاضل والحريري واضرابهما ، وان شئت انتحال العذر لهم قلت ان كل ذنبهم هو انهم استنوا طريقة اجادوا فيها ولم يفلح المتأخرون في سلوكها

ونورد لك الآن شيئاً مما قاله مسلم واذا شئت كثيراً منها ففي مطولاته من كل رائع بديع ٠

فمن قوله في الخمر :

كأنها وصبيب الماء يقرعها ... در تحدر من سلك على ذهب
مميتة لهوم القلب محيية ... للبشر نافية للفكر والوصب

ويقول في غانية :

قد اقصدت فؤادي خمصانــة خريد
هجرانهـا قريب ووصلهـا بعيـد

وفيها يقول :

نسهر في هواكم وانــتم رقود
ابادني هــوا كم والحب لا يبيد
والحب يا مناي اهونه شـــديد
والحب لي طريف والحب لي تليد
والحب لي اذا ما اخلقته جـديد

وقال في الغزل :

ما لي من منة فاشكرها عندك لا بل عندي لك المنن
جهلت وصلي فلست تعرفه وانت بالهجر عالم فطن
حاربني بعدك السرور كما صالحني عند فقدك الحزن

فانت ترى من الامثلة التي اوردناها لك ومن سواها شيئاً عن اسلوبه في البديع .

اما اسلوبه في فنون القول فقد المعنا بها اثناء تحدثنا عن الاغراض التي طرقها وفيها لم يخرج عن اسلوب شعراء العرب الاقدمين من ايراد المديح مصدراً بالغزل مـع رقة وجزالة وطبع ،

وقد كان احيانًا يقتضب اقتضاباً من الغزل الى المديح شأن البحتري . يقول مسلم في مدح هرون الرشيد واخته :

السنة الشرب اذا ما جرت   كانها السنة خرس
هرون بدر لبني هاشم   واخت هرون لهم شمس

فانت ترى هوّة سحيقه بين البيتين ويقرب من ذلك قوله :

هو الشباب فما بال الصبى حبست   ايامه وقد اشتدت بها المدر
كلا الجديدين قد اطعمت خبرته   بادٍ وماضٍ ومغفور ومغتفر
خليفة الله ان النصر مقتصر   عليك مذانت مبلو ومختبر

وقوله :

كأن شاربيها   في سوقهم اقياد
محمد بن منصو   ر الفتى الجواد

وانك لتجد له في بعض الاحيان ارتباطًا بين الغزل والمديح كقوله :

يا ايها الرجل المثمر ماله   وهو المسب عرضه المسلوب
خل المكارم قد كفاك مراسها   سعدانها وسليله يعقوب

و كقوله يمدح داود بن حاتم :

ومجهل كاطراد السيف محتجز   عن الادلاء مسجور الصياخيد
قريته الوخد من خطارة سرج   نفرى الفلاة بارقال وتوخيد
اليك بادرت اسفار الصباح بها   من جنح ليل رحب الباع ممدود

وبعد فاذا كان للشاعر اسلوب يخلد فيه ، واذا كان الاسلوب هو الشاعر ، فعنـدنا ان السر في خلود مسلم هو ايراده شعره مطبوعاً بطابع الغرض الذي يقال فيه ذلك الشعر ، مضافاً الى ذلك حسن التصرف بمذهبه البديعي ، حتى ان المرء ليقرأ له القصيدة ممتثلة بديعاً فلا يشعر بأثر التكلف ، كل ذلك مع رقة في العاطفة وقوة في الطبع ومتانة في اللغة وتفنن في المعاني .

الفخر

في عصور كعصور العربية الاولى كان بديهياً ان يفخر الشاعر بكل ما يمكن ان يفخر به انسان · لأن للقوم طبقات بعضها فوق بعض نسباً وعلماً وادباً وغير ذلك ·

وليس بدعاً اذن ان ترى في الشعراء من يفخر بأبيه وجده او باهله وقومه الاقربين ، او بعصبيته وتشيعه ، او بمصائبه والنوائب التي انتابته ، او بغناه العريض ، او بفقره لكرمه · وبكلمة موجزة فقد كان باب الفخر واسعاً وكانت مواضعه عديدة لا يعدم منها الشاعر محلاً لفخره ·

وانك لترى فخر الشاعر في هاتيك الايام لا يعدو احد ابواب ثلاثة : فاما ان يكون فخره بنفسه وخصاله ، او بنسبه وعصبيته ، او بتشيعه ·

اما شاعرنا ، فقد كان عزيز النفس ، رفع الرأس عالياً بهذه العزة ، فافتخر ، وكان يربأ بوجهه ان يتبذل بالسؤال فصانه وترك غيره يسأل الناس وآثر هو ان يسأل الله تعالى وحده

واذا تنكبت الديار عنه ، واغبرّ وجه العيش دونه ، ورابه منزل سوء ، او ضافه هم ، قراه عزماً شديداً ، ونازع ارضاً غير ارضه صوناً لوجهه وعرضه ، وتلمساً لنعمة من الله لا يريق في سبيلها ماء وجهه ، حتى اذا نالها سمحت بها يداه وقلبه ، وان لم ينل ، فلا يبرح يفرى الفلاة بارقال وتوخيد حتى يقيض الله له ما يريد . . وهاك مايقول :

اذا تجافت بي الهمات عن بلد　　نازعت ارضاً ولم احفل بتمهيد
لا تطّبيني المنى عن جهد مطلب　　ولا احول لشيءٌ غير موجود
ومجهلٍ كاطراء السيف محتجز　　عن الادلاء مسجور الصياخيد
تمشي الرياح به حسرى مولهة　　حيرى تلوذ باكناف الجلاميد
موّقف[1] المتن لا تمضي السبيل به　　الا التخلل ريثاً بعد تجهيد
قريته الوخد من خطارة سُرُجٍ　　تفرى الفلاة بارقال وتوخيد

ويقول في موضوع آخر :

دعيني اقف عزمي مع العدم قانعاً　　ووجهي جديد الصون لم يتبذل
اقول لمأفون البديهة طائر　　مع الحرص لم يغنم ولم يتمول
سل الناس اني سائل الله وحده　　وصائن عرضي عن فلان وعن فل
اذا ركب الليل الضعاف ركبته　　زميلي السرى والردف عزمي ومنصلي

---

(١) موقف المتن اي مخطط ومعني البيت انه لا يمكن قطع تلك الصحراء الا بدخول المرء احجارها ببطءٌ وجهد وعناء .

وقد عجمت مني الخطوب ابن همة متى ما يربهُ منزل السوء يرحل
اذا ضافه هم قراه عزيمة هي الهم ما لم يغش ورداً فينزل
اخو العزم لا يبني على الهون بيته عروف السري في كل بيداء مجهل

ويقول :

واني لاستحيي السؤال ومذهبي عريض وآبى الشح الاّ على عرضي

كذلك كان يفخر بنفسه ·

اما تمدحه بنسبه فيجب ان نقف هنا قليلاً لان الرجل كان مولىً للانصار ثم مولى ابي امامة اسعد بن زرارة الخزرجي وكانت نشأته على ما رأيت نشأة خاملة ولم يذكروا لنا اكثر من ذلك ·

ومع هذا فقد افتخر شاعرنا بنسبته للانصار فقال :

رفعت بنو النجار بيتي فيهم ثم انتميت فافسحوا في المجلس

والنجار هو ابن ثعلبة بن عمرو بن خزرج ·

وكان مسلم يتعصب لهم على قريش حتى انه — على ما تذكر — لم يتورع من هجاء قريش وتفضيل الانصار عليها ، وما كان تهاجيه مع ابن قنبر — وقد اوردنا لك ذلك — الا مثالاً واضحاً على هذه العصبية ··· قال :

قل لمن تاه اذ بنا عز جهلا ليس بالتيه يفخر الاحرار
فتناهوا واقصروا فلقد جا رت عن القصد منكم الابصار

ايكم حاط ذا جوار بعزٍ — قبل ان تحتويه منا الدار ؟
او رجا ان يفوت قوماً بوتر — لم تزل تمتطيهم الاوتار
لم يكن ذاك فيكم فدعوا الفخر — بما لا يسوغ فيه افتخار
ونزاراً ففاخروا تفضلوهم — ودعوا من له عبيد نزار
فبنا عز منكم الذل والدهر — عليكم بريبه كرار
حاذروا دولة الزمان عليكم — انه بين اهله اطوار
فتردوا ونحن للحالة الأولى — وللأوحد الاذل الصغار
فأخرتنا لما بسطنا لها الفخر — قريشٌ وفخرها مستعار
ذكرت عزها وما كان فيها ، — قبل أن تستجيرنا ، مستجار
انما كان عزها في جبال — ترتقيها كما ترقى الوبار
ايها الفاخرون بالعز والعزُّ — لقوم سواهم والفخار
اخبرونا مَن الاعزاء أَالمنصور — حتى اعتلى ام الانصار ؟ (١)
فلنا العز قبل عز قريش — وقريش تلك العصور تجار

ولكنه حين خشي ان يمثل به امير المؤمنين على ما رأيت في تهاجيه مع دعبل ادعى ان هذه القصيدة لابن قنبر وان هذا قد نحلها مسلماً . يقول شاعرنا في ذلك :

هجوت قريشاً عامداً ونحلتني — رويدك يظهر ما تقول فيعلم

---

(١) وفي رواية : اخبرونا من الاعز أَالمنصور حتي اعتلي ام الانصار ؟

ومنها :

فان قريشاً لا يغادر ودها ... ولا يستمال عهدها بالترحم

جروا فجر يناسابقين بسبقهم ... كما اتبعت كف نواشر معصم

وان الذي يسعى ليقطع بيننا ... كملتمس اليربوع في حجر ارقم

و بهذه المباراة الشعرية والمهاجاة التي تتمثل بها العصبية تمثلاً جلياً ذاد مسلم عن طيء والازد والأوس والخزرج فافتخر بنفسه و بقومه فقال يخاطب سحابة :

ان كنت نازلة اليفاع فجنبي ... دار الرباب وخزرجي او اوسي

وتجنبي الخفراء ان سيوفهم ... حدث وان قناتهم لم تضرس [١]

رفعت بنو النجار بيتي فيهم ... ثم انتميت فأفسحوا في المجلس

هل طيء الاجبال شاكرة امريء ... ذاد القوافي عن حماها الاقعس

كافأت نعمتها بفضل بلائها ... ثم انفردت بمنصب لم يدنس

واذا افتخرت عددت سعي مآثر ... قصرت على الاغضاء طرف الاشوس

فاعقل لسانك عن شتائم عرضنا ... لا يعلقنك خادر [٢] من مأنس

أخلقت فخرك من ابيك فجئتني ... باب جديد بعد طول تلمس

---

(١) قالوا : لو قال مسلم ان قنيهم حدث وان سيوفهم لم تضرس لكان اوفق واحسن واجود لان الشعراء تصف السيوف بالفلول ٠

(٢) الاسد في خدره اي في عرينه و يريد به نفسه ٠

اخذت عليه المحكمات طريقها فغدا يناقض اعظماً في ارمس

ولا شك ان هذا كله — من فخرٍ وتهاجٍ — لم يكن غير صورة عما كان يتأجج في تلك الايام من تعصب القحطانية على العدنانية وهذه على تلك ، وقد كانت طيئ والازد والاوس والخزرج يمانية ، وقريش عدنانية ، وكان لهذا التنافس اثر في حياتهم لا سبيل الى التطويل فيه .

أما فخره بمذهبه السياسي : عباسياً او علوياً او شعوبياً ، فقد ألممنا بهذا البحث حين تحدثنا عن مذهبه السياسي في تقربه من الخليفة وحين علمنا أنه لم يكن شعوبياً يفضل العجم على العرب ، على العكس من معظم شعراء وادباء هاتيك الايام وحين قلنا انه لم يكن من العصبة السياسية بحيث يمكن أن يقال عنه انه يعتنق مذهباً لا يهاب دونه العقاب

هذا من حيث الموضوع ، أما من حيث المعاني والنظم فقد كان شعره في الفخر مثالاً صادقاً لقوة اسر الشعر ؛ حذا فيه حذو فحول شعراء صدر الاسلام والجاهلية في ألفاظه وسبكه وفي معانيه ايضاً ، وقد كان يعدد المآثر ويأتي بالمعاني المتعارفة في مديح هاتيك الأيام ، من وصف النوادي والسيوف والرماح والشجاعة والكرم وعزة النفس : كل ذلك يأتي به بألفاظ منتقاة صافية جزلة .

ولعل ذلك الطابع الجاهلي الاسلامي الظاهر على شعر شعراء

الحضارة العباسية في بعض الاغراض الشعرية كان أثر نفوس جانحه الى محاكاة الاقدمين في الفخر والمديح ، فهم يتبعون خطاهم آثارهم بالالفاظ والسبك ، ويتجددون في الآفاق والمعاني والموضوعات فكان في المحافظة على اللغة وجزالتها مع ما يتناولونه من تجديد ، شيء طريف يمزج الحديث بالقديم فيثمر عملهم بما يسحر القلوب ويمتلك الالباب .

المديح

نرى من الواجب علينا ان نأتي على جهة واسعة من شعر شاعرنا ، كانت تدر القناطير المقنطرة من الذهب والفضة عليه وعلى الشعراء أجمع .

وهل كان باستطاعة مسلم ان ينال في المديح الآلاف المؤلفة من الدراهم لو لم يكن هذا المجال دونه ؟؟

وانك لتذكر ان هذا الضرب من القول كان سبباً كبيراً في انهماك الشعراء باللذات والاهواء ، يمدح الشاعر عظيماً فيغدق عليه هذا من نعمه ما يجعل الشاعر غارقاً في بحر من اللذة اياماً طوالاً ، حتى اذا افتقر او كاد نظم قصيدة ثانية فاثرى بها ، وهكذا دواليك زمن بني العباس .

وانا لنرى هنا ان للشاعر مجالين في تلك الايام احدهما يخصه الشاعر بما يختلج في صدره وبما يأتيه من خلاعة ولهو فيمتاز القول فيه بعدم التكلف في الالفاظ ، وبالسهولة في المعنى ، وبسلاسة القول والآخر يكرسه الشاعر للمقامات الرسمية والتصنع ، فيمتاز بفخامة اللفظ وقوة الجرس ، ومتانة البناء .

واكثر ما كان يظهر اثر التجدد المتأجج زمن بني العباس

فعلى الناحية الاولى ، أما الناحية الثانية فكانت مضماراً للتكالب على المال والحظوة قلما يظهر عليها أثر الرقة والتجدد

وكان المداحون من الشعراء يتشابهون في هذا المجال تماماً ، وانا لنعتقد انهم لم يكونوا صادقين في مديحهم الا قليلاً . لأنهم لا يمدحون عن حب وعاطفـة واخلاص وانما يقولون ليصيبوا خيراً ، وما كانت اجادتهم في قرض الشعر الا اجادة لفظية على الاغلب الاعم .

لم يكن المديح اذن (غاية) في الشعر وانما كان (واسطة) لنوال المال ومن ثم لتأمين اللذة ، والمدح الخمرة وما شاكل ذلك من ضروب اللهو والخلاعة .

هكذا كان الشعراء المعاصرون لمسلم بن الوليد . اما شاعرنا هذا فما نبرئه وهو القائل :

بلاءك اني غير مستعتب الرضا ولا مستقل القوت من معذر مبل
اعافك ان لم يصف عندك مشربي وارعاك ان امرعت في جانب سهل
واني لاستحييك بالغيث ان ارى خلافك مطوي الضمير على ذحل

ويقول :

سخاءك ان لم اناجك في المنى فترجعني الا بنـائلك الغمر

ولكننا نظلم صريعاً اذا قلنا انه لم يخلص في حياته لأنه وان

عاشر ابا نواس واضرابه فقد كان اسمى نفساً منهم وانبل شعوراً

وكما اخلص لزوجته اذ ماتت حزن وتنسك ، فكذلك اخلص للفضل بن سهل ولزمه في عيش رغد ، فكان واجباً على مسلم ان يكون له فيه قصائد خالدة ، ولما مات لزم منزلة ولم يمدح احداً بعده ·

واخلص مسلم ليزيد بن مزيد اخلاصاً لم يبلغ عاطفته نحو الفضل وله فيه الغرر ايضاً ·

وقد كان شعراء هاتيك الايام يتبعون في المديح اسلوباً واحداً يعسر معه التمييز بين شعر شاعرين تمييزاً صحيحاً ، بينما لا يصعب ان يقال في الغزل او المجون والخلاعة ان هذا الشعر لفلان وذاك لآخر ، لان التباين الموجود في هذه الطرائق اجلى واوضح ، يسهل معه نسبة الشعر لصاحبه · فايراد المديح لا يكاد يختلف في الجاهلية عنه في صدر الاسلام في الطريقة والصوغ وكان القسم الاعظم من الشعراء يبتدئون بالغزل ثم يستطردون منه للمديح ، وكان فيهم من يقتضب ذلك اقتضاباً ، ومنهم من يجعل رابطة بين الغرضين حسنت ام ساءت ، وقد كان لمسلم حظ في ذلك جميعاً

فمن ذلك ما مدح به الامين بن الرشيد فقال :

ومخطف الخصر في اردافه عمم يميس في خامةٍ رقت حواشيها

اذا نظرتُ اليه تاه عن نظري ... وان شكوت اليه زادني تيها
لولا الامين الذي في الارض مااختلست ... بنات الهوى اذ عنت غواشيها
خليفة الله قد ذات بطاعته ... صعر الخدود برغم من مراقيها
احيت يداه الندى والجود فانتشرا ... في الارض طراً وجالا في نواحيها

ومنه ما مدح به هرون الرشيد فقال :

حاشا لعينيّ ان تفنى دموعهما ... على هوى نازح او نأي جيران
ما كنت ادخر الشكوى لحادثة ... حتى ابتلى الدهر اسراري فاشكاني
الى الامام تهادانا بارحلنا ... خلق من الريح في اشباح ظلمان

فمدائح صريع تظهر فيها قوة الشعر ومتانته التي لا تشوبها العجمة ، ترى الابيات فيها آخذة بحجز بعضها فتخال نفسك أنك تقرأ شعراً جاهلياً او شعر صدر الاسلام صنيع جبابرة الشعر وفحوله ·

اما معانيه في مدائحه فرائعة سامية ليس فيها كثير من الابتكار ، تريك الممدوح يتحدى الناس بالاجل ، او يعوّد الطير عادات فهن يتبعنه في كل مرتحل او يترك في الدهر اياماً مترعات بالمجد الى غير ذلك من جليل المعنى في بديع السبك · وسنورد لك في آخر الكتاب نماذج من شعره في هذا الضرب من القول وفي غيره ·

الهجاء

ان من المروءة ألاَّ يهجو الانسان ميتاً لأن ذلك سوأة ولا شك كما قال جرير[1] وقد انتبهت القوانين لذلك اخـيراً فعاقبت من هتك حرمة الاموات ومن ذكرهم بسوء الا لجلاء حقيقة تاريخية ؛ وقد كان مسلم غير بعيد عن ارتكاب هذه السوأة كما سترى في هذا البحث ٠

الهجاء في العصور الاولى يمكن تقسيمه الى اربعة اقسام : هجاء يتناول عظماء الدولة كالخليفة والامراء ورجال الحكومة وآخر يستهدف العلماء القابضين على اعنة العلم واللغة وثالث يصيب الاخوان

(١) روي ان جريراً قال خينما نعي الفرزدق الى المهاجر بن عبد الله وكان جرير عنده :

مات الفرزدق بعد ما جدعته ليت الفرزدق كان عاش قليلاً

فقال له المهاجر : بئس لعمر والله ما قلت في ابن عمك اما والله لو رثيته لكنت اكرم العرب واشعرها ٠ فقال ان رأى الامير ان يكتمها عليّ فانها سوأة ثم قال من وقته :

فلا وضعت بعد الفرزدق حامل ولا ذات بعل عن نفاس تعلت

هو الوافد الميمون والراتق الثأي اذا النعل يوماً بالعشيرة زلّت

ثم بكى وقال أما والله اني لأعلم اني قليل البقاء بعده ولقد كان نجمنا واحداً وكلٌ واحد منا مشغول بصاحبه وقلما مات ضد الا تبعه صاحبه ٠

والاصحاب والناس على وجه اعم ، ورابع ينهال على الشعراء المعاصرين بوجه اخص .

اما القسم الاول فيمكن البحث عنه من وجهين : الاول هجاء الخليفة والثاني هجاء عظماء الدولة واركانها .

فاما الوجه الاول فلم يتعرض اليه البتة — وهنا يصح لنا ان نقول انه لم يتعرض خشية السيف والتنكيل ؛ وانت مهما قلبت صحائف الديوان الموجود بين ايدينا ، والكتب المتضمنة اخباره فلن تجد — على ما نعتقد — .الا انه كان متشيعاً في بادئ امره ثم تاب ومدح الخليفة تكفيراً لذنبه كما مر بك ! !

واما الوجه الثاني فقد جال فيه ويظهر لك ذلك ما هجا به يزيد ابن مزيد الشيباني : وقد كان ساعداً قوياً للرشيد وكان مسلم يقول فيه اذ يمدحه :

سل الخليفة سيفاً من بني مطر اقام قائمه من كان ذا ميل

وفيه يقول :

موفٍ على مهج واليوم ذو رهج كانه اجل يسعى الى امل

فاصبح يوصيه ان يشكر الموت الذي اخفى عن العالم اباه :

ايزيد انك لم تزل في خزية حتى لففت اباك في الاكفان

فاشكر بلاء الموت عندك انه اودى بلؤم الحي من شيبان

ويقول لو ساوم يزيد العالم على مزيد لما اصاب به فلساً ٠

ايزيد يا مغرور الأم من مشى ترجو الفلاح وانت نطفة مزيد
ان كنت تنكر منطقي فاصرخ به يوم العروبة[١] عند باب المسجد
فيمن يزيد فان اصبت بمزيد فلساً فهاك على مخاطرة يدي

وقد ذكرنا لك في كلامنا عن موارد المال خوف يزيد من الفضيحة بشعر مسلم فعدا الى الرشيد يستنصره ، وكان تهديد الرشيد سبباً في انقطاع مسلم عن يزيد فلم يعد يذكره لا بخير ولا بشر وحينما توفى يزيد رثاه شاعرنا وسواء اكان ذلك اخلاصاً للاب او لابنه او تملقاً فان محمد بن يزيد لم يرعِ الحياة لصريع فانصرف عنه يقول :

لبست عزاءً عن لقاء محمد واعرضت عنه منصفاً وودودا

وقد ذكرنا لك ذلك ايضاً في موارد المال ٠

وينتج من هذا ان هجاءه في يزيد وابنه لم يكن فيه فجور وفسق على انه كان مؤلماً جداً ٠

وهجا خزيمة بن خازم وقد كان من عظماء الدولة بشعر لم يصل الينا منه شيء يذكر الا بالقليل فكان مما قاله فيه :

خزيمة لا بأس به غير انه لمطبخه قفل وباب حديد

---

(١) يوم العروبة يوم الجمعة ، وكان يدعى بذلك قبل الاسلام ٠

وقد جاء مسلماً احد ذوي الشــأن عنده فقال له ويحك اما استحييت من الناس حتى تهجو خزيمة بن خازم ، ولا استحييت منا ونحن اخوانك وقد علمت اننا نتولاه وهو ممن تعرف فضلاً وجوداً فضحك مسلم وقال لغيرك الجهل اما تعلم ان الهجاء الموجع آخذ بطبع الشاعر واجدى عليه من المديح المضرع ؟ وما ظلمت مع ذلك منهم احداً ، وما مضى فلا سبيل الى رده ولكن قد وهبت لك عرض خزيمة بعد هذا ، ثم انشده مسلم قوله في سعيد بن سلم وفيه يقول :

ديونك لا يقضي الزمان غريمها ... وبخلك بخل الباهلي سعيد

سعيد بن سلم الأم الناس كلهم ... ومـا قومه من لؤمه ببعيد

فقال له صاحبه وسعيد بن سلم صديقي ايضاً فهبه لي فقال مسلم ان اقبلت على ما يعنيك والا رجعت فيما وهبت لك من خزيمة فامسك الرجل عنه راضياً منه بالكفاف .

فان صحت هذه القصة امكننا ان نستنتج منها رأي شاعرنا في الهجاء وهو : « ان الهجاء الموجع آخذ بطبع الشاعر واجدى عليه من المديح المضرع » وهو رأي لا يبعد ان يعمل به بل نحن نعتقد ان له شعراً كثيراً مؤلماً ذهب مع معظم شعره في البحر . وهذا الشيء

القليل الذي لدينا منه يكفي للحكم على ايلامه وللدلالة على تمسكه بمبدئه ·

ثم ان سعيد بن سلم كان من العظماء اهداف الشعراء الذين ينفحونهم بالمال الطائل ·

قال الاصمعي : قال لي سعيد بن سلم قدمت عليّ امرأة من باهلة من اليمامة فمدحتني بابيات فما تم سروري بها حتى نغصنيها مسلم بن الوليد بهجاء بلغني انه هجاني به فقلت ما الابيات التي مدحت بها فانشدني :

قتيبة قيس ساد قيساً وسلمها فلما تولى ساد قيساً سعيدها
وسيد قيس سيد الناس كلهم وان مات من رغم وذل حسودها
وهم رفعوا كتفيك بالمجد والعلى ومن يرفع الابناء الا جدودها
اذا مد للعيا سعيد يمينه ثنت كفه عنها اكفاً تريدها

قال الاصمعي : فقلت له : فبأي شيءٍ نغّصها مسلم ? فضحك ثم قال كلفتني شططاً ، ثم انشدني لمسلم :

واحببت من حبها الباخلين حتى ومقت أبن سلم سعيدا
اذا سيل عرفاً كسا وجهه ثياباً من اللوم حمراً وسودا
يغير على المال فعل الجواد وتأبى خلائقه ان يجودا

أرأيت كيف يصور تردده في فعل المعروف و كيف احب

البخلاء لان حبيبته بخيلة لا تجود عليه بل احب من كان غاية في البخل على زعمه وهو سعيد بن سلم ٠

وهنا يظهر لنا شيء هو ان الذي كان يهم مسلماً كون العظماء غير بخيلين ، فاذا بخلوا ، او اقلوا من العطاء ، اغرق في هجائهم فجعلهم بخلاء اذا سئل الواحد منهم عرفًا رأيت على وجهه ثياباً من اللوم حمراً وسودا ٠

وهذا النوع من الهجاء مبعثه غاية مسلم في الحياة ومطمحه الاسمى فيها بمعنى ان اللذة واللهو مبعث هذا الهجاء ، لانه يبتغي المال لينفقه في لذاته ، وهؤلاء العظماء لا يجودون بما يؤمن هذه اللذات ابد الحياة ٠

يظهر لك هذا جلياً حينما تقرأ ابياتاً يهجو بها موسى بن خازم وحينما تقارنها مع شعره في المديح وما يطلب به من المال ، اذ توقن ان مسلماً لم يكن ليهجو هذه الطبقة العليا من الناس انتقاماً منها لانه من طبقة دونها ، ولم يكن ليهجوها للؤم في نفسه وسخط على العظماء ، انما هو يهجوهم لانهم لا يجودون كما يحب ويشتهي ٠ انظر الى قوله في موسى ابن خازم :

يا ضيف موسى اخي خزيمة صم او فتحامَ ان كنت لم تصم

اطرق لما اتيت ممتدحاً فلم يقل لا فضلاً على نعم

واربدّ من خشية السؤال كما يربد عند الوفاة ذو ألم

فخفت ان مات ان اقاد به　　فقمت ابغي النجاة من أمم
لو ان كنز العباد في يده　　لم يدع الاعتلال بالعدم

انظر الى هذا التهكم اللاذع ، فانك تستشم من ثناياه مذهبه في هذا الهجاء ومبعث آرائه فيه ·

اما هجاؤه العلماء فلم يشغله ولا تطرق اليه لانه كان بعيداً عنهم لا يخالطهم ولا يجالسهم ، ولم يذكر لنا انهم كانوا يجعلونه هدفاً يرمونه بانتقاداتهم كما كان شأنهم مع ابي نواس وسواه ، ولعل راية الخلاعة التي كان يحملها ابو نواس والشهرة التي لصقت باسمه والتي كان يسعى في سبيلها ، ولم يكن لمسلم حظ مثلها ، ولعل شيئاً من خلق بقي عند مسلم فحفظ للعلماء اقدارهم ، لعل ذلك هو السبب في عدم وجود منافسات عظيمة بين شاعرنا و بين العلماء في ذلك الزمن ·

اما القسم الثالث من الهجاء وهو ما يتناول الاصحاب وغير الاصحاب من الناس فلم تخل حياة مسلم منه · وانت اذا قرأته على قلته وجدت فيه الدعابة والمجون والنكتة البديعة ·

ونقص عليك نبأين ترى فيهما شيئاً مما ذكرنا وشيئاً من حلمه ومن بديهته ايضاً ·

قالوا ان محمد بن أبي أمية لقي مسلم بن الوليد وهو يمشي وطويلة مع بعض رواته فسلم عليه ثم قال له قد حضرني شيء ، فقال هاته ، قال على

انه مزاح ولا تغضب ! ؟ قال مسلم هاته لو كان شتماً فأنشده :

من رأى فيما خلا رجلاً   تيهــه أربى على جدته
يتمشــى راحلاً وله   شاكريٌّ في قلنسيته

فسكت عنه مسلم ولم يجبه وضحك ابن أبي أمية وافترقا . وكان لمحمد برذون يركبه فنفق فلقيه مسلم وهو راجل فقال ما فعل برذونك قال نفق قال فنجازيك اذن على ما أسلفتنا ثم أنشده :

قل لابن مي لا تكن جازعاً   ليس على البرذون من فوت
طأطأ من تيهك فقدانه   وكنت فيه عالي الصوت
وكنت لا تنزل عن ظهره   ولو من الحش الى البيت
ما مات من حتف ولكنه   مات من الشوق الى الموت

ووقف بعض الكتاب على مسلم وهو ينشد شعراً له في محفل فأطال ، ثم انصرف الرجل وقال لصاحب كان معه ما ادري اي شيء أعجب الخليفة والخاصة من شعر هذا فوالله ما سمعت منه طائلاً فقال مسلم ردوا عليّ الرجل فرد اليه فأقبل عليه ثم قال :

اما الهجاء فدق عرضك دونه   والمدح عنك كما علمت جليل
فاذهب فأنت طليق عرضك انه   عرض عززت به وانت ذليل

فنرى من هنا ان هجاءه هذا ينبعث عن غضبة نفسية انتصاراً لكرامته لا كما رأينا في النوع الاول .

وما كان هجاؤه العباس بن الاحنف الا غضبة لكرامته ايضاً وكان السبب في هجائه ان العباس كان مع اخوان له على شراب فذكروا مسلم بن الوليد فقال بعضهم «صريع الغواني !» فقال العباس ذاك ينبغي ان يسمى «صريع الغيلان لا صريع الغواني» فبلغ ذلك مسلماً فقال يهجوه :

بنو حنيفة لا يرضي الدعي بهم ... فاترك حنيفة واطلب غيرها نسبا
واذهب الى عرب ترضى بنسبتهم ... اني ارى لك خلقاً يشبه العربا
لقيتني باحتجاج بعد ما رتعت ... فيك القوافي وابقى وسمها ندبا
هلا وانت بظهر الغيب تأكلني ... — فلا تهنأتني — امسكت متئبا
منيت مني وقد هاج الرهان بنا ... بغاية منعتك الفوت والطلبا
فاقعد فأنت طليق العفو مرتهن ... بسورة الجهل ما لم أملك الغضبا

ويكاد البيتان اللذان نوردهما لك الآن يكونان افحش ابياته في الهجاء بل لا نذكر اكثر منهما اقذاعاً اذ قالهما في امرأة عجوز ترتاد محال الدعارة وتجمع بين الجنسين :

فلم أر كالاقدام صارت سواعداً ... ولم أر كالديوث احلم منظرا
وان اغفل الديوث عنها تقنعت ... بثوب الدجى ترتاد مزنى ومعهرا

وما ندري السبب الباعث لهذين البيتين غير ما يخطر على الفكر للوهلة الاولى من انه اراد تقريعها على سوء افعالها وتشهيرها واسقاطها

بين الناس ، وقد يكون في ذلك غضبة للكرامة ايضاً اذا استرسلنا في التصور والتفكير ٠

اما هجاء الشعراء المعاصرين وقد تقدم شيء من ذلك ونخص بالذكر منهم ابن قنبر ودعبلاً ، ففيه مظهر من مظاهر السجال والتنافس على المقام اللائق والاعتبار الشعري وفيه كفاح عن العصبية والذمار ، وهذا النوع يقرب مما اوردناه لك سابقاً من انبعاثه عن الغضب النفسي والانتصار للكرامة (الشخصية او القومية) التي غضب لها ٠

ان ما ذكرناه لك من الهجاء وما في اخباره مع الشعراء ومع دعبل وابن قنبر خاصة هو كل شعره الهجائي ، فأنت تراه قليلاً جداً بالنسبة لمكانته في الشعر ونحن نذهب الى ان السبب في هذه القلة هو القاؤه ديوانه في البحر كما تعلم وهذا هو السبب في عدم وقوفنا على كثير من آرائه ونواحيه ٠

والخلاصة فليس في ديوان صريع ما يكرهك على القول بتفننه في الهجاء ، وكل ما فيه لا يعطينا الا صوراً محدودة لهجائه كطلب المال والاحتفاظ بالكرامة ٠

وفي هذه الصور لا ترى الشاعر كغيره حاقداً على البشرية تغيظه أوضاعها الحاضرة وطبقاتها وشخصيات ابنائها ٠

ونرى من مجموع شعره الهجائي انه لم يكن فاحش القول بذيء المعنى مسفاً بل كان هجاؤه الى العفة اقرب ، ولم تكن معانيه في الهجاء على جانب عظيم من الخيال ، فهي غير سامية من حيث الفن الشعري سموها في غزله او وصفه لاقتصارها على تلك الصور المحدودة حتى حسبه البعض غير مجيد في الهجاء ·

ولم تخل ألفاظه من الهجر حيناً ، ومعانيه من البذاءة حيناً آخر ·

الرثاء

في ديوان صريع الغواني قصيدتان في الرثاء الواحدة يرثي بها يزيد ابن مزيد الشيباني وقد علمت كيف كان يصله و ينفق عليه ، والثانية يرثي بها حماد بن سيار ومنها يظهر ان الفقيد كان صديقاً له واخاً حميماً يعيش من جانبه في نعمة كما كان مع يزيد ، فأورثه فقده لوعة أليمة ؛ وا كثر ما يحزن الانسان فعلى من كانت له معه صداقة متينة وعيش مريء

واذن فقد كان صريع يتألم ألمين : ألماً على فقد من عنده مال ينفعه به ، وألماً على صداقة قوية ، يظهر لك ذلك ما يقوله في رثاء يزيد :

لتبكك قبة الاسلام لما — وهت اطنابها ووهى العمود
و يبكك شاعر لم يبق دهر — له نشباً وقد كسد القصيد

وما يقوله في حماد :

كان الربيع اذا ضن السحاب لهم — وفي اللوازب مرتاداً لمحتار
يا حسرتا يا اخي من ذا اؤمله — للدهر بعدك في عسري وايساري
ام من لنا ان ملمات بنا نزلت — ام من لحاجة ذي القربى وللجار

وعندنا ان الشعور الذي كابده صريع الغواني من فقد حماد كان ابلغ في العاطفة وأسمى في النفس على انا لا ننكر على مسلم عاطفته في فقد

يزيد ، وانت اذا قرأت رثاءه في حماد شعرت بذلك الشعور السامي الذي يتغلغل في القلب بلطف ورفق ممتلئاً حزناً وألماً . واذا قرأت قصيدته في يزيد شعرت بعاطفة تحاول ان تدخل قلبك مجلجلة طنانة ، بل نحن نذهب الى ابعد من هذا فنزعم ان رثاءه ليزيد لم يكن الا من قبيل استجداء كف محمد بن يزيد اولاً ، وثانياً اخلاصاً للفقيد .

ولذا فقد حاول ان يعمي قصر عاطفته وان يكسوها ثوباً من الالفاظ الضخمة يخفي تحتها شيئاً من تكلفه الرثاء .

اما رثاؤه لحماد بن سيار فنعتقد ان لوعته فيه كانت لوعة مفؤود محزون سد عليه الحزن والألم طريق الرشد فأخذ يجول من داره ذهاباً واياباً لا يدري ماذا يصنع .

وهنا يجمل بنا ان نذكر لك القصيدتين لترى رأيك فيهما .

يقول قبل البيتين اللذين اوردناهما لك في رثاء يزيد :

أحقٌ انه أودى يزيد ... تأمل ايها الناعي المشيد

تأمل من نعيت وكيف فاهت ... به شفتاك كان بها الصعيد

احامي المجد والاسلام أودى ... فما للارض ويحك لا تميد

تأمل هل ترى الاسلام مالت ... دعائمه وهل شابَ الوليد

وهل شيمت سيوف بني نزار ... وهل وضعت على الخيل اللبود

وهل تسقى البلاد عشار مزن　　بدرتها وهل يخضر عود

أرأيت هذه الاسئلة الطويلة ؟ . . . ثم يقول :

اما هدت لمصرعه نذار　　بلى وتقوض المجد المشيد

وحل ضريحه اذ حل فيه　　طريف المجد والحسب التليد

امـا والله لا تنفك عيني　　عليك بدمعها أبداً تجود

فان تجمد دموع لئيم قوم　　فليس لدمع ذي حسب جمود

ابعد يزيد يختزن البواكي　　دموعاً او يصان لها خدود

و يقول بعد البيتين المذكورين سابقاً :

فمن يدعى الامام لكل خطب　　ينوب و كل معضلة تؤود

ومن يحمي الخميس اذا تعايا　　بحيلة نفسه البطل النجيد

فان يهلك يزيد فكل حي　　فريس للمنية او طريد

ألم تعجب له ان المنايا　　فتكن به وهن له جنود

لقد عزى ربيعة أن يوماً　　عليها مثل يومك لا يعود

ثم انظر الى ما نقتطفه من قصيدته في حماد وقارن بين الشعورين وقايس بين تلك الاسئلة الطويلة وهذه العواطف الرائعة .

ياعين جودي بدمع منك مدرار　　لا تعذري في البكا لاحين اعذار

ابكاني الدهر مما كان اضحكني　　والدهر يخلط احلاء بامرار

اقر السلام على قبر تضمنه　　ماذا تضمن من جود وايسار

حلو الشمائل مأمون الغوائل مأ　　مول النوافل محض زنده وار
الله البسة في عود مغرسه　　ثياب حمد نقيات من العار
الجود سيمته كالبدر سنته　　يكاد ان يهتدي في نوره الساري
افنى البكاء دموع العين فانهملت　　على اخي بدماء فيضها جار
كم قائل بعده حزناً وقائلة　　يا ضيعنا بعد حماد بن سيار

ويقول بعد الابيات الثلاثة التي ذكرناها لك في اول البحث :

فاجأتني بفراق لا لقاء له　　وكنت ابكيك في نأيي واسفاري
فالان ابكي بكاءً لا انقطاع له　　بدمع عين غزير السكب مدرار

والقصيدتان التي قارنا بينهما هما كل ما في ديوانه من رثاء ، ولعل أبا العباس وليد بن عيسى الطنجي الذي روى شعر مسلم لم تبلغه ابيات قالها في رثاء الفضل بن سهل ويزيد بن مزيد لذلك كانت روايته المطبوعة في مصر خالية منها .

فاما ما قاله في الفضل ففيه لوعة واسى على ضخامة معهودة فيه وينطبق على اشعاره في الفضل ما قلناه عن شعره بحماد بن سيار كما ان ما وصفنا به رثاءه ليزيد ينطبق تماماً على هذه القطعه التي يرثي بها يزيد ايضاً :

قبر ببرذعة[1] استسر ضريحه　　خطراً تقاصر دونه الاخطار

---

(١) توفى يزيد بن مزيد ببرذعة

أبقى الزمان على ربيعة بعده حزناً لعمر والله ليس يعار
سلكت بك العرب السبيل الى العلى
حتى اذا سبق الردى بك حاروا
نقضت بك الاحلاس امال الغنى
واسترجعت زوارها الامصار (١)
فاذهب كما ذهبت غوادي مزنه اثنى عليها السهل والاوعار

و كانو يقولون ان هذا البيت الأخير ابلغ شيء في المراثي .

اما شعره في الفضل بن سهل فهو :

ذهلت فلم انقع غليلاً بعبرة وا كبرت ان القى بيومك ناعيا
فلما بدالي انه لاعج الاسى وان ليس الا الدمع للحزن شافيا
اقمت لك الانواح ترتد بينها مآتم يندبن الندى والمعاليا

---

(١) وفي الحماسة :

نقضت بك الاحلاس نقض اقامة واسترجعت نزاعها الامصار

والحلس: كل ما يوضع على الارض تحت حر الثياب والمتاع ويقال فلان حلس بيته اي ملازمه لا يبرحه وهو ذم . ونقض احلاس الشيء اي تركه ومعنى بيت الحماسة ان المحتاجين نفضوا ايديهم وقعدوا عن طلب الخير فلم يعد لي الكون من يرجى خيره ورجع الغرباء الى اوطانهم ومعنى البيت الذي اوردناه من قبل ان المحتاجين المقيمين عندك تركوا آمالهم في الغنى ونوال الخير من سواك ولعل البيت على هذا الشكل الذي نرويه لك اروع وابلغ :

نقضت بك الاحلاس آمال الغنى واسترجعت نزاعها الامصار

وما كان منعي الفضل منعي وحادة ... ولكن منعى الفضل كان مناعيا
اللبأس ام للجود ام لمقاوم ... من الملك يزحمن الجبال الرواسيا
عفت بعدك الايام لابل تبدلت ... وكن كاعياد فعدن مباكيا
فلم ار الا قبل يومك ضاحكاً ... ولم ار الا بعد يومك باكيا

ولا بد لنا الآن من ان نصغي الى ابن خلكان اذ يقول ان قصيدة « احقاً انه اودى يزيد » هي لابي محمد عبد الله بن ايوب التيمي وان صح هذا فلا يكون صريع قد نجا من الحكم عليه بتكلف العاطفة في الرثاء احياناً اذ يكسوها ثوباً من الالفاظ المنتقاة لان هذه الاحكام تنطبق على القطعة الثانية التي عثرنا عليها في رثاء يزيد ايضاً ٠

وقد كان شاعرنا يخلص زماناً فينفث الاسى في قلبه حرقة لذاعة ويريك العاطفة المجسمة والالم كيف يكون كما رأيت في رثاء حماد وفي رثاء زوجة كانت له من أهله وقد ورد ذلك في آخر حياته ٠ وشأن صريع في ذلك شأن كل شاعر متفنن اذا اكره على امر سواء أكان الاكراه اكراه عادة ام تملق فانه لن يجيد كما يجيد فيما يصدر عن قلبه راساً ٠

وانك لتلاحظ انه يتوخى في الرثاء الصور الملازمة للفقيد فلا يفعل كما يفعل البعض من الشعراء الذين اذا رثوا عظيماً قالوا انه كالوردة

الذابلة ، او كالنرجسة المقطوفة وما اشبه ذلك من المعاني التي لا تجدر بغير رثاء الفقيدات الحسان ذوات الجمال الرائع . فهو حسن انتقاء المعاني في رثائه ، فاذا رثى عظيماً قال :

سلكت بك العرب السبيل الى العلى ... حتى اذا سبق الردى بك حاروا
نقضت بك الاحلاس آمال الغنى ... واسترجعت نزاعها الامصار

واذا ندب حميماً قال :

افنى البكاء دموع العين فانهملت ... على أخي بدماء فيضها جارِ
كم قائل بعده حزناً وقائلة ... يا ضيعنا بعد حماد بن سيار

وقال ايضاً :

ذهلت فلم انقع غليلاً بعبره ... واكبرت ان القى بيومك ناعيا

وسواءٌ أكان في شعره عاطفة صادقة ام غير صادقة ، فقد كان ينتقي لموضوعه الالفاظ والجمل والمعاني الملائمة لغرضه شأنه في اجمع شعره .

الغزل

تطوره الى زمن بني العباس

الغزل مادة كبيرة في دولة الادب العالمية وبحر خضم يغترف منه الشعراء حظوظاً مختلفة ، ولن تجد شاعراً عظيماً الا ولشعره الغزلي سر كبير في عظمته . وقلما ترى شاعراً لا يكتب في الغزل واذا رأيت فتيقن ان بين جوانحه نفساً لم يصقلها الحب وان فوآده لا يفهم سر الحياة .

الحب هو الدعامة الاولى في الغزل واما تكلف الحب فلا يأتي بغير الشعر المصنوع : الفاظ مرصوفة ومعان ممقوتة ومحاولة مكروهة في ايراد ذلك .

والنساء مبعث الحب في هذا الكون ، يستثرن القلوب ونزعاتها ، ويسيرن النفوس الى ما يشتهين عذاباً كان او نعيماً ، ومن هنا تصدر اشعار البوس والحزن ، واهازيج الضحك والفرح . وما برحت المرأة قائمة بوظيفتها في الشعر منذ اقدم العصور الى اليوم لم ينازعها في مكانها الغرامي احد اللهم الا ما كان من امر الغلمان .

والشعر العربي في الجاهلية وصدر الاسلام لم يكن يعرف هذا

النوع من الاسفاف ابداً لأن لذة الحب لم تكن قد تدنت الى هذا النوع ·

قال الجاحظ : « ولو كانت هذه الشهوة شائعة في الاعراب لتعشقوا الغلمان ولو تعشقوهم لنسبوا بهم ولجاءهم فيه باب من النسيب ولتهاجوا به وتفاخروا ولتنافسوا ولحدثت فيه اخبار واشعار والذي يدل على سلامتهم من ذلك عدم هذه المعاني وان كان هنالك شي من هذا فليس هو الا في بعض من ينزل قارعة الطريق او يقرب الاسواق وهؤلاء ليس فيهم من خصال الاعرابية الا الجوهرية فاما الاخلاق والفصاحة والانفة والفروسية فهم على خلاف ذلك كله ، وذكر بعض اهل البلدان وبعص قبائل الجاهلية وبعض ملوك اليمن بهذا الشأن ولكن لم نجد الاشعار بذلك متسعة والاخبار متفقة · »

وقال : « وقد كان ذلك شائعاً في خراسان والسبب الذي اشاعه فيهم كثرة خروجهم في البعوث وكانوا لا يستطيعون اخراج النساء والجواري معهم ولم يكن لهم بد من غلمان تهيئ مؤونتهم فلما طال مكث الغلام مع صاحبه بالليل والنهار وفي حالة التبذل والتكشف وكانت الغلمة تهيج بهم شغفوا بغلمانهم · »

وقد حدثوا ان اعرابياً جاء معن بن زائدة فانشده مديحاً اطربه فقال له معن سل حاجتك يا اعرابي فقال اركبني ايها الامير فامر له براحلة وفرس وجارية ومال ·

وذكرت هذه القصة عند احد عظماء العباسيين فقال رحم الله معنا فقد كان عربياً ٠

يريد انه لو لم يكن عربياً لاعطاه غلاماً ايضاً ٠

واذن فان الغزل زمن امرئ القيس وجرير وجميل وكثير وعمر حتى قيام الدولة العباسية لم تكن تشوبه شائبة من ذلك الخزي والعار ، وانما تدنى في عهد بني العباس ٠

والغزل في عهد الامويين لم يخرج عن ثلاثة اطوار في الحب: حب عذري صاف من اثام الرقي والحضارة ، يعشق اربابه النساء فيكلفون بهن حتى يملك الحب عليهم قلوبهم وحياتهم ، وحتى لا يكون لغير المعشوقة سلطان على العاشق فيقضي شطراً من حياته غير قصير غارقاً في هذا الحب النقي ، مخلصاً كل الاخلاص وهو شأن جميل بثينة وامثاله من القوم الغزلين بطبعهم ؛ وحب للنساء يتخذه اربابه فناً يحاولون الاجادة فيه ويراوغون الناس ليعتقدوا بصدق حديثه فيسلكون المناهج التي طرقها جميل وامثاله فيتقربون منهم ولا يدركونهم تماماً لأنهم أقل عاطفة من جميل ، ولكنهم لم يخلوا قط من صدق في بعض الاحايين ، فحب النساء عندهم فن يسعون ليظهروا فيه بالمظهر العذري لا طبيعة مغروسة فيهم وهو مثل كثير عزة واضرابه ٠

وحب غير عذري وغير متكلف ان يكون عذرياً او افلاطونياً تظهر المرأة عند اربابه مثلاً اعلى للجمال واللذة لا مثلاً اعلى للجمال والحب ، وعلى هذا فقد كان اربابه صادقين امثال عمر بن أبي ربيعة يحلون في القلوب محلاً طيباً لانهم يؤثرون تأثيراً صادقاً ·

هكذا كان الغزل زمن الامويين توحيه المرأة الحرة المصونة ·

ودارت الايام دورتها فدخل الغزل العربي في طور آخر يختلف عما كان عليه اختلافاً بيناً : فالمرأة الحرة العربية اغرقت في حجابها فلم يعد لها الا السلطة على البيت وحفظ كرامته والقيام بشأنه · ولكن الشعر محتاج للتغزل ، محتاج للمرأة ، محتاج للحب واللهو واللذة ، فماذا يفعل ؟

سرعان ما ملأ هذا الفراغ ، فراغ الحاجة ، جنسان هما الاماء والغلمان ·

اما الاماء فكانت بغداد سوقاً عظيمة لهن ، وكان فيهن المهذبات العالمات يروين الشعر ويحسنّ الموسيقى ويجلسن لمناظرة الشعراء والعلماء وأئمة اللغة ، وكن يتهالكن على اللذة ولا يرعين للاخلاق حرمة ، وهذا المظهر في الاماء كان دليلا على اسراف الرجل العباسي في الخلاعة فقد وجد فيه مجالاً رحباً لنزعاته ولذاته · وكان يتدنى بل كانت الحضارة تنزله الى ذلك الدرك من الخلاعه . ولعل

النخوة العربية والعزة الاموية كانتا السبب في عدم انتشار الاماء زمن الامويين ·

اما الغلمان فحدث ولا حرج : ملكوا زمام شعراء بني العباس وشغلوا الشعر باوصافهم وما الى ذلك من اقوال هي الفساد بعينه ·

وكان من بلايا الفرس على هذه الامة ان افسدوا لها عقائدها وآراءها في كل شيء ، حتى في الشهوة واصبح المنكر المكروه قبل زمن بني العباس ، مستظرفاً طبيعياً في دولتهم ، وفيما وليهم من الدول · وما من احد كان يستشعر في ذلك استنكاراً ، لان الاخلاق نسبية واحكام البشر تتغير بتغير الازمان ، وهكذا فقد انتقم الفرس من العرب انتقامين لقاء الفتح العربي : تقويض الملك العربي والاخلاق العربية الفاضلة ·

وانت اذا قرأت شعر ابي نواس ومعظم الشعراء الذين عاصروه او جاؤوا بعده ، واذا ألقيت نظرة عجلى على الاخلاق بعد ذلك تبينت ما يبكي العين دماً ·

وقد كان ابو نواس اذا نظم في المرأة ظهر عليه التكلف ، اذ كيف ينظم ما لا يوافق نفسه ، وهكذا كان الشعراء المعاصرون الا شاعرنا مسلم بن الوليد فكان على العكس منه تماماً ·

تقلب ديوان شعره فترى من الغزل أروعه واحلاه ومن الشعور

أذكاه وأسماه واذا تبينت مبعث وحيه في ذلك وجدته الغواني اللواتي كن يرسلن عليه من عيونهن واثدائهن وقدودهن سحراً يجعله مشدوهاً فيقول :

ما للغواني لا يدين فؤادي [1] أيرين حتفي ام يرين بعادي
شوق ألمّ ومقلة مطروفة لفراق منقطع القرينة عادي
كذبت ظنونك لست راجع مامضى درس الصبى وعدت هناك عوادِ
لا بد للسراء من ضرائها والدهر يقلب صالحاً بفساد

ويقول :

اديرا عليّ الراح لا تشربا قبلي ولا تطلبا من عند قاتلتي ذحلي
فما ضرني اني اموت صبابة ولكن على من لا يحل له قتلي
احب التي صدت وقالت لتربها دعيه الثريا منه اقرب من وصلي

حينما تقرأ هذا وغيره من غزله تجده مغرماً بالنساء يتخذهن كعمر مثلاً اعلى للجمال واللذة ثم تقول له مع هرون الرشيد : « حقاً انك صريع الغواني » .

ولكن هل كان مسلم بعيداً عن تأثير الغلمان وهو الذي سلخ شطراً كبيراً من عمره صحبة ابي نواس وفي صحبة من كانوا على شاكلة ابي نواس ؟

في ديوان شاعرنا شيء من غزله في الغلمان ، واعظم ما فيه

غزل بالنساء ، وانك حينما تستقصي شعره قد لا ترى له في الغلمان شيئاً يأخذ بلبك روعة وجمالاً كما يأخذ بلبك شعره النسائي فمن ذلك مايقول :

وعنـدنا غزال بطرفه يصيـد
مبتـل غرير تزهى به العقود
فلم يزل يسقينا وعيشنا رغيد
حتى انثنت عيون واحمرت الخدود
في مجلس نضير يزينه الشهود
غطارف كرام بيض الوجوه صيد

* * *

فمرة ركوع ومرة سجود

ومن قصيدة غيرها :

وعنـدنا غزال بطرفه يصطاد
من كفه اصدار النعيم والايراد
كانه قضيب في غرسه مياد

وقوله :

واحور وسنـان ذي غنة كأن بوجنته الجلنـارا
كساني من الحب ثوب الجوى فصار الشعار وصار الدثارا

ويقول من قصيدة :

اذا ما اذار الكأس ثنى بطرفه فعاطاهم خمراً وعاطاهم سحرا
الى ان دعا للسكر داع فموتوا وكان مدير الكأس احسنهم سكرا

وخلاصة ما يقال في غزله انه وان القى حبل الخلاعة على غاربه مجارياً ابا نواس واضرابه في اهوائهم ولذاتهم فان الغلمان لم يكن لهم حظ وافر من شعره ونحن لا نعتقد بترفعه عن النظم فيهم، لانهم كانوا (فناً) من فنون تلك الايام وكان حتماً على الشاعر الخليع ان يطرق جميع ابواب اللذة، وان يتناول كل فنون عصره الشعرية، فشعره فيهم شعر صناعة جيدة.

ولكن هذا الفن الذي طرقه لم ينجح به نجاحه في الفن النسائي اذ جارى عمر بن أبي ربيعة في اسلوبه الغزلي القصصي، فجمع الى رقة العاطفة لطافة الايراد وخلاعة النفس والزمن، تلك الخلاعة التي لم تكن زمن عمر بن أبي ربيعة. فبينما كان هذا يتغزل بالحرائر اذا بمسلم يتغزل بالاماء — لان الحرائر كن مستترات كما مر — وبالغلمان واذا به في عصر اشد خلاعة وانغماساً وفحشاً في القول، فليس لعمر ان يجاريه فيه ولكن عمر كان اشرف لفظاً واصفى سليقة ومعنى وانقى من آثام المدنية والحضارة.

ونذكر لك الآن شيئاً اذا قرأته حسبت انك تقرأ ابن ابي

ربيعة وكلا الشاعرين في هذه الطريقة عظيم خالد قال مسلم :

لما ظهرت لها بالمربد احتجبت ... مني وما كان نور الشمس يحتجب
فبادرتها يوحي القول خادمها ... فاستضحكت ثم قالت امر ذا عجب
قالت انيلي فتى يهواك مذ زمن ... قد مسه في هواك الضر والتعب
قالت نعم انت تهوانا فقلت لها ... اي والوصال الذي ارجو واطلب
لا هنأ الله عيني منك نظرتها ... اليك ان كان لي في غيركم ارب
فلو تراني وخدي فوق راحتها ... وقد تدانت ولما تفعل الركب
ثم افترقنا ولم نأثم ونحن كذا ... لهو التلاقي وما من شأننا الريب

ويتشابه الشاعران في ان كلاً منهما كان كالنحلة تطير من زهرة الى زهرة فتشتار منها العسل ثم تتركها .

واليك قصيدة كرسالة منه الى غانية كان يتعشقها وسترى فيها شيئًا من الدعابة والوصف اذ يقول :

كتاب فتى اخي كلف طروب ... الى خود منعمة لعوب
صبوت اليك من حزن وشوق ... وقد يصبو المحب الى الحبيب
وقد كانت تجيب اذا كتبنا ... فيا سقيًا ورعيًا للحبيب
تخط كتابها بقضيب رند ... ومسك كالمداد على القضيب
كتاب فيه كم والى وما أن ... اقضي من رسائلها عجيبي

نعمّية على ذي الجهل عمداً ولا يخفى على الفطن اللبيب
وقد قالت لبيض آنسات يصدن قلوب شبان وشيب
أنا الشمس المضيئة حين تبدو ولكن لست اعرف بالمغيب
براني الله ربي اذ براني مبرأة سلمت من العيوب
فلو كلمت انساناً مريضاً لما احتاج المريض الى الطبيب
وخلقي مسكة عجنت ببان فلست أريد طيباً غير طيبي
واعقد مئزري عقداً ضعيفاً على دِعص رُكام من كثيب
وجلدي لو يدب عليه ذر لأدمى الذر جلدي بالدبيب
وريقي ماء غادية بشهد فما أشهى من الشهد المشوب
فقلن لها صدقت فهل عطفتم على رجل يهيم بكم كئيب
غريب قد اتاك فاطلقيه فان الأجر يطلب في الغريب
فقالت قد بدت منه هنات وقد تبدو الهنات من المريب
وصلناه فكلمنا بسحر كذلك كل ملاق خلوب
وما ظلمت ولكنا ظلمنا فقد تبنا اليها من قريب

فُتِنّا للشقاء بحب « سحر » كما فتن النصارى بالصليب
غفرت ذنوبها وصفحت عنها فلم تصفح ولم تغفر ذنوبي
ولو ان الجنوب تجيب عني لأهديت السلام مع الجنوب
وقائلة افق من حب « سحر » فقلت لها جهلت فلم تصيبي

امرت بهجرها سفهاً فتوبي　　الى الرحمن مما قلت توبي
ألا يا ليتني قاض مطاع　　فأقضي للمحب على الحبيب

انك ترى ولا شك في شعره حديث النفس ونجواها

تقرأ له القصيدة آخذة بحجر بعضها متينة الرصف قوية البناء سامية العاطفة رائقة المعنى ينتقي الفاظها انتقاء الصيرف الدنانير الجيدة البراقة و يصوغ الجمل كالسبائك الذهبية وأنك لتشاهد على غزله طلاء الحضارة ونعومتها ، وسلاسة القول وجماله حتى لتري شعره الغزلي والوصفي كأنه النثر لولا الوزن والقافية ، يدب الى القلوب دبيب الروح في القلوب ، و يسكر بالفاظه وجمله ومعانيه كما يسكر الجمال الرائع والطلعة الزاهية ٠

فغزله صور تتمثل أمامك فيها حياة وروح ، ورقة وشعور يقول:

أُقر بالذنب مني لست أعرفه　　كيما اقول كما قالت فنتفق

وهذا الغزل يمثل لك حالات العاشقين اكمل تمثيل فتقرأ فيه البؤس والعبرات ، وما الى ذلك من معالم الحب المضني والاشجان الثائرة ، والصيحات الاليمة وانه ليحملك على الألم معه حين يقول :

وا كبدا احرق الهوى كبدي　　عيل صبري وخانني جلدي
ما اوجع الحب للقلوب وما　　ابكى شجاه للاعين الجمد

وكم استثارته الاشجان فترك وطنه الى حيث يقيم الحبيب فما يزال به حتى يكون خده فوق راحته بلا اثم او بإثم ، وهو في كل ذلك قوي الطبع غزير العاطفة لا يخفي عنك في حبه ما يخالج قلبه ومايعتلج في صدره

واذا كان بعيداً عمن يهواه اسمعك من ذكرياته ما تستفزه الأفئدة باوصاف حبيبه الرائعة .

ولكن هل احب مسلم حباً صادقاً ؟ قد يكون من الجور في الحكم الا نثق بحب مازج نفسه وسكن قلبه ونحن نذهب الى انه قد عشق وعرف ما في الحب من لذة وألم لما نجده في شعره من العاطفة الصادقة ، وهو لم يكن في كل اهوائه فاسقاً ، ولم يكن في معظمها عذري الحب او افلاطونياً ، وهو لا يستنكف عن ان يذكر لك موضع العفة وموضع التهمة من حبه بلفظ صريح ومعنى اصرح ، لا يعرف الختل في ذلك الا ما كان من ابيات لم يضن بها على غلام في سبيل مأرب !...

وفي كل ذلك تجد روح مسلم اللطيفة جلية توحي اليك الاقرار بعبقريته .

الخمر

تطور القول فيها

لم تكن الخمر ايام الجاهلية فناً كالمديح يختصه الشعراء و يكثرسون له معظم اشعارهم انما كانت واسطة من الوسائط التي يتخطونها الى الفخر وسواه ؛ ولم يكن الشعراء قبل الاسلام ليزاولوا هذا الفن متعمقين فيه الا رجالاً قلائل كالاعشى ؛ اما الفكرة العامة عندهم فهي سوق الخمريات امام الحماسة والفخر والكرم وغيره .

وأتى زمن صدر الاسلام ، والدين ينهى عن الخمر ، والعقائد الاسلامية راسخة في نفوس الشعراء المسلمين ، فعزفوا عنها ؛ ثم كان زمن الامويين — وشوكة الدين ما تزال قوية — فأخذ الشعراء يتهيبونها الا ما كان من بعض شعراء النصرانية كالأخطل فقد كان له قسط وافر من الحرية الشخصية فيها ، وما ننسى انه كان يدخل على الخليفة الاموي سكران تنتشر منه رائحة الخمر و يقول له وفي القضية سياسة لا تخفى :

اذا ما صديقي علني ثم علني ثلاث زجاجات لهن هدير
خرجت اجر الذيل تيهاً كأنني عليك امير المؤمنين امير

ومع اكثاره من الشعر الخمري فلم يكن كثير الاختراع بل

أغلب عليه عبقرية الاتباع ، وكان وصافاً للخمرة يتبع في ذلك سنة الاعشى و يتم ما بدأ به ذلك في الجاهلية ، و يتعهد هذا الميراث ، بل هذا الفن الصغير الى ان تناوله الوليد بن يزيد في منبثق القرن الثاني للهجرة ، فدخل هذا الفن في طور غير الطور الاول ٠

واذا كان الاخطل يقرض الشعر في الخمر زمن بني امية و يشعر بها فقد كان جماعة كثيرون في مكة وغيرها من بلاد الاسلام يشربون الخمرة سراً ولكنهم لا يقرضون الشعر بها حتى جعل الوليد التغزل بها جهاراً يعلن بذلك عن مذهبه في الخلاعة واللذات ٠

فالوليد يكاد يكون اول شاعر عظيم مسلم أوقد جذوة اللذات علناً ٠ ثم سار الشعر الخمري في طريقه مدة قرن كامل ابدع وأتبع فيه الشعراء غاية الابداع والاتباع لفظاً واسلوباً ومعنى ٠

واذا عرفت ان مبدأ القرن الثاني للهجره ومنتهاه ، رجلان استهترا بالعادات واشتهرا بذلك وهما الوليد بن يزيد والامين بن الرشيد وان بين زمنيهما كانت الدعارة بالغة اشدها — اذا عرفت ذلك لم تجد من الغريب ان يتلألأ نجم النبوغ بالخمريات ووصف مجالس اللهو والخلاعة حتى ان ما شاهده الادب العربي من الثمرة الادبية بناحية الخمريات اذ ذاك لم يشاهده في غيرها البتة ٠

ونمى الميراث الذي تعهده الاخطل والوليد وزكا في النصف الثاني

للقرن الثاني للهجرة على ايدي ابي نواس ومسلم ومن عاصرهما ؛ وفي هذا الزمن فقط يحق لنا ان نوقن بنماء الفن الخمري و بلوغه الاوج الاسمى

واذا قرأت ما كتبوه ومانظموه اذ ذاك في الخمر وجدت نفسك بين نوعين من المعاني —وهذا بحث يشترك فيه كافة شعراء ذلك الوقت— :

النوع الاول قد لا تستطيبه وان كان له جرس حسن ونخامة ، وهو ما كانوا يصفون به الخمرة من انها بكر مخبأة عن الشمس من عهد نوح وهي بعيدة المنال لا يحظى بها غير المنفق في سبيلها اموالاً طائلة ، يضن بها الدهقان على غير الاكفاء .... الى غير ذلك مما تشاهده في شعر الكثيرين من الشعراء الاقدمين والمحافظين ، ودونك شيئاً لمسلم يظهر لك جلياً هذا المذهب القديم في الخمر اذ يقول :

خذاها فأما انت فاشرب وهاتها لاسقيها هـذا معتقة بكرا

***

وبنت مجوسي ابوها حليلها اذا نسبت لم تعد نسبتها النهرا
بعثت لها خطابها فأتوا بهـا وسقت لها عنهم الى ربها المهرا

ويقول :

يسقون صفو راح لذيذهـا موجود
كانت بعهد نوح وهم لهـا جنود
حـتي اذا ابيدوا اورثهـا ثمـود

شمسية شمول شيطانها مريد

ويقول:

ومانحة شرابها الملك قهوة مجوسية الانساب مسلمة البعل
ربيبة شمس لم تهجن عروقها بنار ولم يقطع لها سعف النخل
تصد بنفس المرء عما يغمه وتنطق بالمعروف ألسنة البخل
بعثنا لها منا خطيباً لبعضها فجاء بها يمشي العرضنة في مهل

هذه الابيات على طلاوتها وحلاوتها الظاهرة للوهلة الاولى تجد فيها مع التدقيق الفاظ ومعاني الاقدمين مكررة فلا تكاد تمعن فيها حتى لا تألفها .

والنوع الثاني هو المعاني الجديدة المخترعة التي تطرب لها وهي زينة اشعارهم الخمرية . وفي هذا النوع تجد الشعر الخمري ممتزجاً باعترافات فظيعة مترعة فسقاً ولهواً . وكان مما دفعهم الى ذلك رؤيتهم الحياة وتطورها ، وانهم يعيشون عيشة تخالف حياة الاقدمين ، فجعلوا شعرهم عنوان حياتهم ، ثم اضافوا اليه عنصر الصدق في الخلاعة ، فكان شعرهم صورة صادقة ووصفاً حقيقياً لماجريات حياتهم ولمكنونات صدورهم ، يعترفون للناس بكل شيء ويصرحون حتى بافظع شيء ....

وهذا هو الادب المجرد ! ! وسوف ترى شيئاً من ذلك في المنتخبات

وكان في مضمار الشعراء المتبارين شخصيتان عظيمتان هما

ابو نواس وصريع الغواني ، فقد جالا فيه كل مجال ولم يتركا فرصة تسنح الا انتهزاها والشعر تحت اكامهما يتناولانه سهلاً فيصوران به نفسيهما وعصرهما ابدع تصوير ويصفان الخمرة فيبدعان الابداع كله سواءٌ أكان ذلك في الاتباع او الابتداع .

واذا شئت ان تحكم على ابداعهما في وصف الخمرة وجب ان تحكم حكمين مختلفين ، حكماً ينبغي ان تكون فيه مجهزاً بذوق القدماء لتحكم على معانيهما القديمة حكماً نسبياً — اذ ان الذوق نسبي فما يحسن في زمن قد لا يكون حسناً في زمن آخر — وحينئذ تلقاهما في الذروة العليا من الشعر وحكماً يتناول التجدد في المعاني والاساليب فتراهما في مقدمة المحدثين وقد قصر عنهما كل الشعراء ... ولكن ايهما ابرع في ذلك ؟

يضع النقاد الاقدمون صريعاً وابا نواس في صف واحد لانهما اجادا في ذكر الخمر ووصفها ووصف محاسنها واحاديثها اجادة لا سبيل الى التفضيل بينهما ، على ان في الناس من يقدم مسلماً على ابي نواس كعبد الصمد بن المعدل . وكان من اغرب الناس معرفة بالشعر ... يقول : « والله ما جرى ابو نواس قط في ميدان مسلم الا ان لابي نواس حظاً من الشهرة ليس لمسلم »

وفي الناس من يقدم ابا نواس لانه كان يحب الخمرة حب التقديس اذ يقول :

أثن على الخمر بآلائها وسمها أحسن اسمائها

وهذا قريب من قول الله عز وجل « ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها » . ولابي نواس شعر من ذلك كثير ، عبد فيه الخمرة عبادة تقوى واخلاص (!!) استهتاراً بالدين والعقائد ، والعروبة والوطنية . وعندنا ان ابا نواس لا يجارى في هـذا الفن لطلاوة عبارته وبديع اقواله ، ولانه كان اطبع المولدين على الشعر

اما مسلم فلم يكن الى حد ابي نواس منتهياً ، ولم يكن شعوبياً ايضاً لان الحسن بن هانئ المبغض للعرب والمنتصر للجديد كان يرى في خلاعته واستهتاره انتصار الفلسفة والزندقة الفارسية على العقيدة الاسلامية — كما نظن — وبالنتيجة ، انتصـار الفرس على العرب انتصاراً معنوياً وادبياً .

من ذلك نرى شطط ابي نواس الى الغاية ووقوف مسلم دون ذلك لا قصراً في شاعريته على ما نعتقد ولا انخذالاً دون ابي نواس لانك تقرأ لشاعرنا الشيء فيكرهك على الاقرار بعبقريته ونبوغه ، ولكن تمسكاً ببقية من عقيدة كانت مطوية زمن صبوته ثم نمت حين اكتهل

الوصف

بعد ان ذكرنا تطور فن الخمر الشعري ونصيب مسلم وابي نواس منه ، لا بد من ايراد شيء يكون مثالاً واضحاً لوصف مسلم في الخمر ثم نعقب ذلك بابيات في وصف اشياء مختلفة ؛ وسترى ان لهذا الفصل حظاً كبيراً من الخمر عند شاعرنا

وأنت اذا تناسيت ان مسلماً كان يتصرف بفنون القول بأحسن اسلوب — وكل هـذا ما لا يمكن تناسيه — فانك لن تنسى بعد ان تقرأ له ما ننتخبه لك ، انه كان مجيداً مجيداً في ذكر الخمر ووصفها ، حتى انك لتعذر عبد الصمد بن المعدل على رأيه المذكور ٠

وسواءٌ أوجد هذا الرأي هوى في نفس البحتري وارتياحاً اليه ام لم يجد فسنروي لك شيئاً من المنتخبات في وصف الخمر وشاربيها عند مسلم وسترى النوعين من المعـاني — القديم والجديد — ممتزجين او مفترقين فما قد لاتستطيبه الآن ، وكانوا يعجبون به قديماً قوله :

هات اسقني طال بي الحبس   من قهوة بائعها وكس
زقية الدار رصافيـة   اغلى بها الشماس والقس
كأنها في الـكأس ياقوتة   وهي اذا ما مزجت ورس

ويقول :

وقهوة من بنات الكرم صافية　　صهبا يهودية اربابها العرب
تنمى الى الشمس في اغذائها ولها　　من الرضاعة من حر الهجير اب
حمراء ان برزت صفراء ان مزجت　　كأن فيها شرار النار تلتهب
محمرة كف ساقيها بحمرتها　　كأنما هو بالفرصاد مختضب

أرأيت كيف ترسل أشعتها الحمراء فتحمر منها كف الساقي كأنها خضبت بالتوت ؟ ثم اقرأ هذا التشبيه :

صفراء من حلب الكروم كسوتها　　بيضاء من صوب الغيوم البجس
مزجت ولاوذها الحباب لحاكها　　فكأن حليتها جني النرجس

ثم انظر الى هذا الاغراق في المعنى ، الماء يلاطف الخمر ، وهي كأنها لهب في موقد يضرب به ريح الصبا ، ويداري الماء شدتها وجهلها فتبتسم وتبدو بلون مشرب من الشهلة والعيس [1]

وكأنها ، والماء يطلب حلمها　　لهب تلاطفه الصبا في مقبس
جهلت فداری جهلها فتبسمت　　عن مشرب لون الشهولة أعيس

ويقول مصوراً أشعة الخمرة على الكف :

---

(١) الشهلة : ان يشوب سواد العين زرقة ، والعيس : لون البياض والحمرة .

اغارت على كف المدير بلونها   فصاغت له منها انامل كالذبل [١]

ثم انظر الى هذه القاتلة الخفية ، الناجية من ثأر وعقوبة :

اماتت نفوساً من حياة قريبة   وفاتت فلم تطلب بتبل ولا ذحل

وتخيل هذه السلسلة من الصور القديمة :

يشقون الدنان فتسيل الخمر كالدمع الصافي من عين حسناء لم تتكحل ، وكأن الحباب لآلئ الدماليج او الحجول [٢] وكأن الدن جمل ابيض طعنت نقيرته [٣] فسال دمه وكأنما السائل شعاع يدخل من ثقبة فتحت له ، وكأن الاباريق ظباء خفن قعقعة النبل ...

يقول بعد البيتين المتقدمين :

شققنا لها في الدن عيناً فاسبلت   كما اسبلت عين الخريد بلا كحل [٤]

كأن حباب الماء حين يشجها   لآلئ عقد في دماليج او حجل

كأن فنيقاً بازلاً شك نحره   اذما استدارت كالشعاع على البزل

---

(١) عظام صفر كعظام الفيل و يقال انها من سلحفاة البحر

(٢) الدمالج اساور تحبس في الاعضاد واحدها دملج ودملوج والحجول والخلاخل واحدها حجل . (٣) ثغرة حلقه (٤) و يروى عين الخريدة بالكحل و يكون قد اراد بالكحل ما يوجد حول الثقبة من زفت والخريدة والخريد البكر لم تمس واصلها اللؤلؤة لم تثقب .

كأن ظباء عكفاً في رياضها اباريقها اوجسن قعقعة النبل

وانظر الى البيت الثاني من بيتين نذكرهما لك فيما يلي وكيف يختلط النسيجان من الماء والخمر وكيف يمتزج القسم القريب من الماء سريعاً ويبقى ما في الاسفل على اصله ... كل ذلك يدلك على قوة ملاحظة وخيال مدقق عند شاعرنا في وصفه :

سل ليلة الخيف هل امضيت آخرها بالراح تحت نسيم الخرّد الغيد

شججتها بلعاب المزن فاعتزلت نسجين من بين محلول ومعقود

والذي يلاحظه المدقق في خمرياته انه بينما كان يصف مجالس شرابه واصحابه والخمر وآياتها وكيف يقتلها الشارب بالماء فتقتله اذا به ينسى وصف الكؤوس على الاغلب الاعم فلا يتخذها — على ما لدينا من شعره — موضوعاً يمنحه الابيات في وصفه مستقلاً وانما هو يذكرها عرضاً ويتعرض لشفوفها تعرضاً ضعيفاً ؛ على انا لا نعتقد البتة انه كان مقصراً في هذا النوع من الوصف لان له كما نذكر في وصفها شيئاً فيه ابداع . ونرجح فقدان ذلك مع ما فقد من شعره .

وتعال الآن نسمعك بيتين من شعره المسكر اذ يقول في وصف الكؤوس :

سلكنا سبيلاً للصبى اجنبية ضمنا لها ان نعصى اللوم والزجرا

بركب خفاف من زجاج كأنها ثدي عذارى لم تخف من يدٍ كسرا

ويحسن بنا ان نعرض امامك شيئاً يدلك على شيء من الملاحظة والتصوير عنده اذ يقول:

وعندنا غزال بطرفه يصيد
فلم يزل يسقينا وعيشنا رغيد
مدامة لها في خدودنا توريد
كأن شاربيها في سوقهم قيود
حتى انثنت عيون واحمرت الخدود

وقد ردد البيت الرابع في قصيدته التي طلبها الرشيد وسأله عنها بهذا البيت الذي نورده بعد آخر:

اقامت لنا الصهباء صدر قناعها ومالت علينا بالخديعة والختل
اذا ما علت منا ذؤابة شارب تمشت به مشي المقيد في الوحل

وانك لتذكر ضحك الرشيد وقوله له اذ ذاك: ويحك اما كفاك ان قيدته حتى جعلته يمشي في الوحل؟

وقد ردد معنى التقييد بالخمرة في محال كثيرة منها قوله:

يا رب خدن قد قرعت جبينه بالطاس والابريق حتى مالا
انهضته من بعد ما اسكرته فمشى كأن برجله عقالا

ومن ذلك في وصفه السنة الشاربين.

السنة الشرب اذا ما جرت كأنها السنة خرس

وهلمّ نحكم بين معنى هذا البيت ، وبين معنى بيت فتن الناس به قيل بعد قول الاول باكثر من الف عام .

يقول حافظ ابراهيم في وصف السنة الشاربين :

واسقنا يا غلام حتى ترانا لا نطيق الكلام الا بهمس

وعندنا ان وصف مسلم اجل وابدع ، لان لسان السكير يشبه الاخرس تماماً في عدم استطاعته تلفظ الكلمات بصحة ، بينما لا يكون الهمس عاقلاً للسان عن التكلم والنطق الصحيح ، والهمس نقيض الجهر بالصوت ، ويكون اللفظ فيه فصيحاً ، بينما لا يمكن ان يكون في الخرس فصاحة نطق اصلا .

وبعد ان علمت ترديد شاعرنا للمعاني المتشابهة المتماثلة في اوصاف الخمر باشكال بديعة ننتقل الى وصف آخر جادت به طبيعة شاعريته . وهي الاوصاف التي كان يذكرها فيمن يصفهم ذكوراً كانوا او اناثاً ، فانه لم يعدُ فيها الشنشنات القديمة من وصف القامات بغصون البان ، والاثداء بالرمان والاثمار ، والارداف بكثبان الرمل ، والنظرات بالسهام ، الى غير ذلك .

وانت ترى في كل ذلك شيئاً يستهويك وشيئاً قد لا تستطيبه ، ودونك نماذج من وصفه ... يقول :

وسفرن عن غرر الوجوه كانها بالليل مصباح ببيعة راهب

حور اوانس يقتنصن باسهم　　من طرفهن اذا نظرن صوائب
زرع الشباب لهن رمان الصبى　　في النحر قد زينت بترائب
ابدين لي ما بين طرف ساحر　　ودلال مغنوج وشكل خالب
وحديث سحار الحديث كأنه　　در تحدر من نظام الثاقب
فقطفت رمان الصدور للذة　　ولمست اردافاً كفعل اللاعب

ويقول في الارداف والنهود والقامات :

كثبان رمل اذا ارتجت اسافلها　　مالت باثمارها من فوقها القضب

ويقول في غانية :

وقدها ممشوق　　منعم مقدود
وكشحها لطيف　　مهفهف خضيد (١)
كأنه قضيب　　في غرسه يميد
وردفها ثقيل　　بخصرها يميد
كأنه كثيب　　لبده الجليد

ويقول :

فاقسمت انسى الداعيات الى الصبى　　وقد فاجأتها العين والستر واقع
فغطت بأيديها ثمار نحورها　　كأيدي الاسارى اثقلتها الجوامع

ويقول :

---

(١) الخضيد والمخضود : الضعيف العاجز عن النهوض .

وممكورة رود الشباب كأنها   قضيب على دعص من الرمل اهيل
خلوت بها والليل يقظان قائم   على قدم كالراهب المتبتل
فلما استمرت من دجى الليل دولة   وكاد عمود الصبح بالصبح ينجلي
ترآى الهوى بالشوق فاستحدث البكا   وقال للذات اللقــاء ترحلي
فلم تر الا عبرة بعد زفرة   مودعة او نظرة بتــأمل

أرأيت كيف كان يشبه الليل بالراهب القائم ليلاً ، المتبتل الى الله تعالى وله فيه تشبيه آخر حاكى به الاقدمين :

والعيس عاطفة الروؤس كانما   يختلن سر محدث في الاحلس
يخرجن من ليل كأن نجومه   اسيافنــا يوم العجاج الاغبس

وهذا يذكرنا بوصفه الحرب اذ يقول :

حرب يكون وقودها ابناء ها   لقحت على عقر ولما تنفس
من راهب ركب النجاء ومقبض   جثمت منيته على المتنفس
غصبته اطراف الالسنة نفسه   فثوى فريســة ولغ اونهس

ومن وصفه للصحراء قوله :

ومجهل كاطراد السيف محتجز   عن الادلاء مسجور الصياخيد
تمشي الرياح به حسرى مولهة   حيرى تلوذ باكناف الجلاميد

ومن قوله في وصف الجبال وصفاً قديماً :

وبلدة ذات غول لا سبيل لها   الا الظنون والامسرح السيد

كأن اعلامها والآل يركبها بدن توافى بها نذر الى عيد

ويقول في وصف البحر :

وملتطم الامواج يرمى عبابه بجرجرة الآذي للعبر فالعبر
مطعمة حيتانه ما يغبها فآكل من زاد غريق ومن كسر

* * *

وبعد ، فالذي يلاحظ في وصفه ، سواء أكان ذلك للخمرة ام لسواها انه لم يعد احد شيئين ؛ اما ان يكون الوصف جدياً فهو — من جهة اللفظ والسبك — متين جزل ، واما ان يكون للهو او ما شابهه فهو سهل رقيق سلس .

وفي كل ذلك ترى اثر روح الشاعر المطبوع وريشة المصور العارف بالالوان ، ولكنه مع ذلك لم يكن من اولئك الشعراء الطبيعيين الذين امتزجت روحهم بالطبيعة فابدعوا اعظم الابداع وكانوا مصورين ماهرين تكرر الايام ولوحاتهم خالدة ؛ فهو لا يضاهي من جهة وصف الطبيعة من ربتهم في احضانها كابن خفاجة مثلاً وتعليل هذا بديهي : ذلك ان مسلما عاش للهو والمديح والغزل فابدع في هذه الفنون ، وعاش اولئك في الطبيعة وكرسوا حياتهم لوصفها ، فطبعت شعرهم بطابعها الخاص

وامتازوا في وصف الرياض والغدران ، والافاق الرائعة ، وامتاز شاعرنا عنهم في الغزل والمديح والخمر ووصف مجالسها والوانها الاخاذة . وقد يكون لنا غير هذا الرأي لو سلمت كل اشعاره من ايدي الزمان .

الزهد والحكم والاخوان

يذهب البعض من المفكرين الى ان المتشائمين الساخطين على الحياة يحتالون عليها ، سواءٌ أكان ذلك بارادتهم الظاهرة أم بارادة العقل الباطن ، او اللاشعور ، ويستعينون باساليب مختلفة في سجالها ، فمنهم من يكافحها باللهو والخلاعة واللذات ، ومنهم من يناضلها بالزهد والحرمان .

ومن هنا ترى الشاعر المجيد في اللهو ، مجيداً اجادة طيبة في الزهد ، يدلك على ذلك شعراء الخلاعة زمن بني العباس فقد كانت لهم مواقف عالية في الزهد ، كأبي نواس مثلاً .

وانت اذا استقصيت اشعارهم رأيت نفوسهم لا تستقر على حالة واحدة ، وليس لأفكارهم ثبوت اصلاً ، فاذ اسرهم الدهر قالوا بلسان مسلم :

« ان الزمان لمحمود على الابد »

وان ساءهم شاركوا مسلماً في قوله :

لا بد للسراء من ضرائها　　　والدهر يعقب صالحاً بفساد

و بقوله :

والدهر آخذ ما اعطى مكدر ما　　　اصفى ومفسد ما اهوى بيد

فلا يغرنَّك من دهر عطيتُه　　　فليس يترك ما اعطى على احد

فزهد مسلم — على قلته — لم يكن قائماً على مذهب او نظرية فلسفية ، بل كانت دعامته الاساسية « الرغبات » ؛ فاذا ساءه الزمن تعلل بزوال الحال وزهد ، وان سره لم يلتفت الى الزهد اصلاً ، ومن هنا ترى الفرق بين زهدياته وزهديات ابي العتاهية الذي اتخذ الزهد مذهباً شعرياً وخطة اختص بها ٠

ويمكن ان نقول ان شعر صريع في الزهد لم يكن من الشعر الخالد ، ولم يكن عليه طابع نبوغه الخاص ، وليس فيه ابتكار اوابداع ، وقد يكون لنا غير هذا الرأي لو بقيت اشعاره وسلمت من ايدي الزمان ٠

اما الحكميات في شعره فهي متفرقة هنا وهناك ، قليلة جداً قلتها في الزهديات ، وهو امر بديهي لما بين هذين الفنين : الزهد والحكم ، من الاتصال الوثيق ٠

وانك لتستطيع الحكم على حكميات مسلم بما حكمت به على زهدياته ، فمن قوله :

كم رأينا من اناس هلكوا ۞ فبكى احبابهم ثم بكوا
تركوا الدنيا لمن بعدهم ۞ ودهم لو قدموا ما تركوا
كم رأينا من ملوك سوقة ۞ ورأينا سوقة قد ملكوا
قلب الله عليهم وركاً ۞ فاستداروا حيث دار الفلك

ولا نستطيع ان نعزو هذا النوع من الشعر الذي يظهر لك الحياة من ناحية سوداء لا لثورات نفسيـة يتغلب فيها الألم على اللذة حيناً ما ·

وترى ان شعر صريع لم يكن في هذا النوع بالخالد ، وليس فيه معان مبتكرة بل هي الى العامية اقرب ·

اما ما نظمه في الاخوانيات او العتاب فيمكن ان يقال فيه انه دليل واضح على طيب نفس وحسن طوية ، واغتفار الزلات للاصدقاء وهل تريد أدل على ذلك من قوله لصديق له :

عزمت على صرم فلما أبى الهوى رجعت الى قلب عليك شفيق
فلا تمكن الهجران من ذات بيننا فيغنى صـديق عن لقاء صديق

وهو في اشعاره هذه لم يخرج عن اسلوب متين ومعان غير مبتكرة ، ولا مغرقة في الخيال ، بل هي الى الواقع اقرب ، ومن الحياة المادية ادنى ·

وبعد فان ما ذكرناه لك في الزهد والحكم والاخوانيات يكاد يكون مع شيء متشذر في القصائد ، كل ما لمسلم في تلك الفنون وما ندري هل كان شعر مسلم في الاصل قليلاً بها ام كان كثيراً ؟

قد يكون النظر لحياة مسلم ومركزه الشعري مقنعاً للبعض باكثاره لان الشاعر الفحل ملزم بطرق ابواب الشعر على ما يعتقدون

وعندنا ان مسلماً كان له من الشعر في هذه الفنون الثلاثة شيء ليس بضئيل لما تقتضيه فنون القول في ذلك العصر ، ولما تأتي به الحياة من آلام ودموع ، على انا نعتقد ان شعره في ذلك لم يكن من طبقة شعره في اللهو والخلاعة والخمر والوصف ، لشدة امتزاج هذه الانواع بنفسه ، فشعره فيها اكثر وامتن ، واجمل واصفى ، وادل على شاعرية ونبوغ .

***

هذه ضروب القول عند شاعرنا فيها تتجلى عبقريته بكل نوع من الفنون على حدة ، ومنها تري المسالك التي انتهجتها تلك العبقرية وقد حرصنا على اظهارها من نواحيها المختلفة ، مستقلين بالبحث والحكم فكان لنا في كل ناحية رأي خاص ،

فاذا جمعت تلك الاحكام ظهرت عبقرية صريع وليس عليها اثر من اثار الغموض .

احساس صريع الغواني

تعمد الى شعر شعراء مختلفين نظموا في موضوع واحد وتناولوه باحسن ما يكون من الصوغ وانتقاء الالفاظ ، فينفذ الى قلبك شعر احدهم وتستعذبه جداً ، و يبقي في نفسك اعمق الاثر زمناً طويلاً ، بينما لا يتعدى شعر سواه القراءة والاستحسان المجرد ،

تعود الى نفسك وتتسأل عن سر هذا الامر فلا تقع غالباً الا على ان إلهام الاول مستمد من احساسه المتوقد، والهام الآخر ليس له من الاحساس اليقظ نصيب

والاحساس من اكبر المميزات عند الشعراء ، واذكر اني قرأت قصيدتين لشاعرين مختلفين في موضوع واحد فراقتني احداهما وهي لا تتجاوز الثمانية ابيات، ونفرت من الثانية وكانت تفوق الاوق عدداً ، مع انها منتقاة الالفاظ حسنة السبك ، ولم اجد في ذلك شيئاً غير مألوف ما دام الاحساس هو الذي يميز الشاعر عن سواه ، وقديماً قالوا ان الناس لا يأتون هذا الكون متساوين في الخلقة ، بل منهم من يولد شاعراً ومنهم من يولد رياضياً وهكذا القول في سواهما .

والاحساس عند الشعراء يظهر على مقاييس مختلفة ، في

فنون القول التي يتناولها الشاعر ، فالشعراء الغزلون يتجلى احساسهم بدقة في الغزل وما يناسبه ؛ ويبدو الاحساس جلياً عند الهجائيين في هجائهم المقذع ، وهكذا في بقية فنون القول عند الشعراء .

واذا شئنا ان نعرف احساس شاعرنا فقد يظهر لنا شي منه في حبه للحياة وحرصه عليها . قد يكون في الشعراء غير صريع من احب الحياة اكثر من حبه لها ، وقد يكون فيهم من حرص عليها اكثر من حرصه ، فهو لا يمتاز عنهم بشيء من ذلك ، ولكنه لم يكن دونهم في تعليل حبه للحياة ، بل انك لتراه قد استن للحياة قانوناً احبها فيه ، واذا لم تكن كما يرغب ، فليس فيها من خير يرجى . يقول :

ما لذة الدنيا اذا ما لم تكن فيهافتى كأس صريع حبائب

ويقول :

وما العيش الا ان ابيت موسداً صريع مدامٍ كف احور اكحل

وترى لماذا يحب المرء الحياة ؟ وما هو مقياس تلك المحبة ؟

قد يكون في الناس من يحبها على نسبة ما يكون له وما يناله فيها من اللذات ، وعلى نسبة ما يحققه من الآمال ، وقد يكون في الناس من يحبها على نسبة ما كان له فيها من اللذات والذكريات او ما يرجوه من الآمال في مستقبل الايام . اما شاعرنا فيظهر

انه يحبها لكل ذلك : يحبها للذاته الماضية وذكرياته المعسولة ، ويحبها لانه ما يزال خضيد عود الرجاء ، ولان له في المستقبل آمالاً كباراً ، وعلى الجملة فقد كان يحب من الحياة ماضيها وحاضرها ، ويحب مستقبلها ولكنه يخشى بعد المستقبل الدمار ...

الم يقل في حبه للحاضر :

الشيب كره وكره أن يفارقني اعجب لشيءٌ على البغضاء مودود

وألم يقل في حبه للماضي :

قفا نلبس الاطلال منا تحية ونؤذن بتسليم وان لم تجاوب

وألم يقل في رجائه بالمستقبل :

ادهراً تولى هل نعيمك مقبل وهل راجع من عيشنا ما نؤمل

بلى ، ولكنه كان يخشى من المستقبل الموت فأخذ يربأ بنفسه عن لذاته ويقول :

لعمرك لو احببت لم ادع الصبى لشيءٌ ولكن التعزي اجمل

وهذا الاحساس اليقظ في حب الحياة نستشعره قوياً في خمرياته ووصفه واهوائه ، حين يصور اللذات والبيئة المتهتكة الخليعة اجمل تصوير وانا لنستشعر احساسه ايضاً بشدة في ادراكه معنى الجمال ، وفي النظر الى الحياة من هذه الناحية الوضاءة التي تنيرها (الانوثة) ، ولعله كان اكثر شعراء هاتيك الايام تحسساً بجمال هذه

(الأنوثة) ، ولأمرٍ ما اطلق عليه (صريع الغواني) ولأمرٍ ما ، كان يتألم اذا قيل له (صريع الغيلان) .

وكان حب الغواني وتحسسه بجمال الانوثة يزيدان في كرهه المشيب كرهاً قوياً ، وفي ذلك قوله :

سلاه لما استبقى وصال الكواعب وقد دب ريع الشيب بين الذوائب
بدت شيبة في رأسه فكأنما بدا لحلول الشيب احدى المصائب
وما ريع حتى لاح للشيب عارض عليه وشاقيه اكف الخواضب

ولعل تحسسه بجمال الانوثة كان ادراكاً لسرها الخفي الرائع ، ولا عجب في هذا الادراك وهو الذي صاحب الغواني مذ شب حتى ابيض منه سود الذوائب :

صريع غوانٍ راقهن ورقنه لدُن شب حتى ابيض سود الذوائب

وفي شعره المرسل بالخلاعة ومايناسبها دليل عظيم على تيقظ احساسه وشدته .

ومن المواضع التي يظهر فيها حب الحياة عند شاعرنا موضع الزهد ، فان احساسه هناك يتراءى وثاباً مضطرباً ، فتراه حيناً راضياً عن الزمن ، اذا طابت له الحياة واسعدته الاماني فهو يقول :

« ان الزمان لمحمود على الابد »

وتراه احياناً غاضباً ساخطاً ، اذا ضن عليه الدهر بالآمال انشأ يقول :

والدهر آخذ ما اعطى مكدر ما اصفى ومفسد ما اهوى له بيد

وهذان وجهان لاحساسه في الرضى والغضب نستنتج منهما عدم استقراره على حال ·

ومن المواضع التي يظهر فيها احساسه ظهوراً واضحاً شعره في الهجاء ، فان الغضب يبدو في هذا الضرب من القول ، والغضب مجلى كبير للاحساس ·

فكيف كان غضب صريع الغواني ، وكيف كانت نفسه في هذا الغضب ؟

لم يكن غضب شاعرنا غضب رجل احنقه الدهر وتحداه في تشتيت آماله ، ولم يكن بالحانق على الطبيعة الساخط على البشرية ، وانما كان غضبه لا يتعدى غضب المدافع عن كرامته او كرامة قوم ينتصر لهم — على ما مر — وكان في اغلب الاوقات يملك نفسه فلا يدعها تجمح به الى ابعد حدود الغضب ، ولا يطلق العنان للسانه فيتجاوز حد الشريف من الالفاظ الى السافل منها ، ولم يكن يقذع في ذلك الاقذاع كله ، الا في بيتين ، ولم يكن هجاؤه خالياً من تهكم يقتضيه المقام ، او اقذاع تدعو اليه الحاجة ، او توقر بعد ايلام ·

هجا ابن مي حين مات برذونه فضحك منه وتهكم عليه فقال :

قل لابن مي لا تكن جازعاً ليس على البرذون من فوت

طأطأ من تيهك فقدانه وكنت فيه عالي الصوت
وكنت لا تنزل عن ظهره ولو من الحش الى البيت
ما مات من حتف ولكنه مات من الشوق الى الموت

وهجا دعبلاً فقال له :

فاذهب فانت طليق عرضك انه عرض عززت به وانت ذليل

وهجا العباس بن الاحنف الشاعر فقال له متوقراً :

فاقعد فانت طليق العفو مرتهن بسورة الجهل ما لم املك الغضبا

هذه طبيعة احساسه في غضبه ،

اما طبيعته في المراثي فقد كان له على ما مر صورتان يظهر في الواحدة بمظهر المتألم الكاذب ، يغالب اللفظ المجلجل والمعنى المتكلف ، فيظهر في حرب مع نفسه ، يحملها على اظهار الحزن ، والحزن ابعد ما يكون عن قلبه ، فهو في ذلك كالنواحة تستأجر لتبكي الفقيد بادمع مقسورة . ويظهر في الصورة الثانية حزيناً والهاً ، سد عليه الالم باب التفكير ، واولاه حيرة واكتئاباً فهو ما ينفك يبكي الفقيد باشجى ما يبكى به عزيز ، واين قوله المتكلف في يزيد بن مزيد :

لتبكك قبة الاسلام لما وهت اطنابها وهي العمود
ويبكك شاعر لم يبق دهر له نشباً وقد كسد القصيد

من قوله المترع الماً في حماد بن سيار :

افنى البكاء دموع العين فانهملت على اخي بدماء فيضها جار
كم قائل بعده حزناً وقائله يا ضيعنا بعد حماد بن سيار

ولقد تقدم القول في هاتين القصيدتين عند الكلام على الرثاء وانك لتستشف احساس صريع الغواني في النسيب فترى عليه اثراً للمحبة الصادقة ، وللهوى العميق ، وترى بجانب ذلك تكلفاً في هذا النوع من القول ايضاً ، ولعل السبب في هذا التكلف هو ايراد المديح مصدراً بالغزل فكان عثاره بديهياً حين يتغزل دون ثائرة نفسية تلهمه القول . واين قوله الرائع :

هذه الحمامات ان بكت ودعت اسعدها في بكائها الفنن
فمن على صبوتي يساعدني اذا جفاني الحبيب والسكن

من قوله وفيه من المبالغة ما لا نستطيبه :

اعشب خدي من البكاء وقد اورق غصن الهوى على كبدي

* * *

وبعد فهذه مواطن يظهر فيها احساس شاعرنا ومنها نعلم انه احساس شاعر عميق ، ليس فيه قسوة الجبابرة ، ولا فظاعة الانانيين ، بل هو احساس مغمور بالعاطفة ، مشرب لين الحضارة ، وقوتها ، فكان فيه مثال لها ، وصورة عنها .

روح صريع الغواني

اذا كان لكل شاعر روح تفيض على جنبات شعره ، يستطلعها القارئ من ثنايا الألفاظ والمعاني ، واذا كانت الاشعار انما تطبع بطابع روح الشاعر الخاص ، فان في بضعة ابيات نوردها لك مجلى كبيراً لروح شاعرنا ، ودليلاً واضحاً على روح مشرقة الجوانب مشعشعة الاطراف .

وقد علمنا حتى الآن شيئاً ليس بقليل عن هذه الروح ، ورأينا الشاعر غير من يتطلع الى العالم بمنظار قاتم لا يشف عما يليه الا بالظلمة الحالكة ، وبالبؤس المحكم ، وانما كان ينظر من ناحيتها المشرقة ، و كانت روحه تنبسط الى الآفاق الألاء ، والالوان الزاهية من الحياة ، وتعرض عن الهموم والآلام ، واذا ساورته هذه الهموم فان لديه الدواء الناجع لقتلها ، والاداة الصالحة لاحياء السرور وادخاله على قلبه ، ولاطراح التعب والوصب : الا وهي الخمرة التي يقول فيها :

مميتة لهموم القلب محيية للبشر نافية للفكر والوصب

فهو ما يبرح في هناء ولذة ، ولهو ولعب ، تنازعه نفسه اللذات دائبة فيقول :

لم أصح من لذة كلا ولا طرب … وكيف يصحو قرين اللهو واللعب
نفس تنازعني اللذات دائبة … وانما اللهو واللذات من اربي
كم ليلة بت مسروراً ومغتبطاً … جذلان منغمساً في اللهو والطرب

وما كان حبه الحياة الا مثالاً واضحاً لانطلاق روحه الفرحة وتمتعها بمشاهد الحياة الجميلة وروائعها ، وما كان بكاؤه الشباب وخوفه من المشيب والموت الا دليلاً على اشراق جوانب روحه ، وهل تريد برهاناً على مرح هذه الروح اكثر من تلك الالفاظ التي جرت على لسانه متضمنة غاية مايكون في الحياة من مسعدات ؟!

وهل خات قصيدة له من لفظ تنطوي تحته معان جميلة ساحرة ؟!

فهو ما ينفك يذكر لك في شعره : الغواني ، الحب ، اللهو ، اللذة ، الطرب ، الصبى ، السحر ، العيون ، الثدي ، الخمر وو ... وهل ادل من هذه الكلمات على جذل الروح ؟!

نعم ، هناك شعره الذي ينبئك عن غاية ما يصل اليه مرح الروح وجذل القلب ، اوليس هو الذي خلع العذار وقال :

خليلي لست ارى الحب عارا … فلا تعذلاني خلعت العذارا

ومن الذي يرى الحب عاراً اذا كان عذرياً ؟ وهل كان هذا الحب الذي يذكره ابن الوليد الا شهوة وخلاعة ؟ ولذلك فهو لا يتهيب ان يقول لك انه خليع ، يحب مفرحات الحياة ، وما

يتحوب ان يذكر ما يأتيه من منكر وخلع عذار فيقول :

ورب يوم بيوم اللهو معتجر   خلعت فيه الى لذاته العذرا

وكيف يأبى ان يعترف لك بخلعه العذار ، وهو الذي اتخذ شعره مرآة صافية لروحه المتهتكة ، وهو الذي اعطى مقوده الصبى فقاد بنات اللهو مخلوعة العذر ! ... وقال :

ولكنني اعطيت مقودي الصبى   فقاد بنات اللهو مخلوعة العذر

اذا شئت غاداني صبوح من الهوى   وان شئت ماساني غبوق من الخمر

وقال :

ارود بعيني منظر اللهو والصبى   واهوى ظباء الانس والبقر العفرا

فشعر صريع الغواني طافح بهذا الضرب من النظر الى الحياة ، ينبيء عن روح جذلة مشرقة الجوانب ، تفيض لذة وشهوة ، وهو مبلغ ما يمكن ان يقال عن روحه .

وانا لنكاد نستشعر اثر هذه الروح الطامحة الى الجذل ، النزاعة الى مفرحات الحياة ، في معظم فنون القول التي جال فيها حتى في المواضع التي قلما يظهر فيها حب الحياة ونعيم العيش ، كالرثاء والحكم ؛ فبينما تراه يبكي يزيد بن مزيد او يتكلف بكاءه ، اذا به يذكر نضرة العيش ورخوصته ، ويتساءل عن الحياة هل يخضر فيها عود بعد يزيد فتؤمن له لذاته واهواؤه ويقول :

وهل تسقي البلاد عشار مزن بدرتها وهل يخضر عود

ثم انه لا يقتصر على ذلك حتى يذكر البواكي ودموعهن ، فيروعه ان تصاب الخدود باثار الدمع فيقول :

أبعد يزيد يختزن البواكي دموعاً او يصان لها خدود

وهل كانت هذه الخواطر الا ادلة خفية على روحه الجانحة الى لذائذ الحياة ؟

واذا كانت روحه الجذلة تأبى الا ان تظهر في الرثاء المحزن ، فاجدر بها ان تظهر في جميع ضروب القول التي تناولها .

وهكذا فهو لا يبدأ المديح حتى يبل غليله من الحب او اللهو او الخمر ، ولا يحجم عن ان يطلب من ممدوحه شيئاً يغنيه ويسر به ، بعد ان يكون قد استوفى غزله ووصفه فيقول :

سخاءك اني لم اناجك بالمنى فترجعني الا بنائلك الجزل

وتراه في الحكم يذكر لك الدهر ورجوعه بعطائه المفرح فيقول :

والدهر آخذ ما اعطى مكدر ما اصفى ومفسد ما اهوى له بيد

وهو في الهجاء يذكر بخل الممدوح وضنه بما يجذل فيقول :

لو ان كنز العباد في يده لم يدع الاعتلال بالعدم

واذا كانت روحه المرحه لا تظهر جلية واضحة في هذه الفنون الثلاثة ، فانها شديدة الظهور بينة جداً في الغزل والخمر والوصف

وما اقرب الشبه في السبيل الذي يسلك للحياة بين هذه الروح وبين ارواح طائفة من الغربيين قامت تجمّل الحياة لما رأته من يأس الناس واحزانهم ، فاتخذت لها معاهد كالمستشفيات فرشت بأجمل الأثاث وزينت بأحسن الزينة ، لها رياض واسعة فيها مختلف الازاهير والاوراد ، لا تقع عين الناظر اليها الا على جملة كتبت بالورد او الزينة وهي: « ان الحياة جميلة وانا سعيد بها » وفي كل مكان يزوره الانسان من تلك المعاهد ، وحينما القى نظره ، فلا يرى غير هذه الجملة البديعة حتى تكون له عقيدة ثابتة بجمال الحياة وصلاحها .

ولا تكاد تلك الجملة تختلف عما كان يدين به شاعرنا حين قال : « ان الزمان لمحمود على الابد »

ولكن هل بقي ذلك الفرح ملازماً لروح شاعرنا حتى تقضت ايام حياته؟ ان طبيعة الروح لا تتغير وسواء اكان لدينا شيء من شعره زمن كهولته ام لم يكن ، وسواء أوصلتنا الاخبار عن فرحه في آخر ايامه ام لم تصل ، فان الطابع الروحي الذي يطبع شعر شاعرنا هو ما تقدم ذكره ، وفي ذلك الشعر شيء قيل زمن الشباب وفيه ما قيل بعده ، وعندنا انه ليس من الصواب ان نذهب الى تغير طباعه بعد كهولته ، واذا هدأ في تلك السن التي لا تجمل معها الخلاعة والهوى ، فما نعتقد ذلك الا توقراً وابقاء على هيبته وعفته ،

وما كان اسرافه وتبذيره في تلك السن الا دليلاً على ميله الى الانفاق في الفرح والجذل ، من طريق التعفف والتوقر ، لا من سبيل الفجور والخلاعة ·

* * *

وبعد فان روحاً شاعرية تمتاز عن سواها بهذا الجذل والفرح في الحياة ، لجديرة بأن تصاحب ، وان تدرس زمناً غير قصير ·

لغة ابن الوليد

اما وقد مضى القول ، في عبقرية شاعرنا واحساسه وروحه ، ومسالكه في فنون القول ، فلا بد من ان نأتي على اللغة التي استعملها في أغراضه ، وسنوجز القول هنا عن لغته دون التعرض الى البديع ، وقد مر شيء من ذلك قبل حين ·

اول ما نستشفه من ديوان صريع ، واول ما يبدو للوهلة الاولى طول قصائده ، ففيها ما يكاد يبلغ المائة عداً ، واذا أمعنا النظر في هذه القصائد على اختلاف اغراضها ، وتشذر مراميها ، وجدناها تستطلعنا بقوة ومتانة ، وبمادة لغوية كثيرة ، غير نابيـة ولا ولا متقلقلة ، لكنها متماسكة مع اخواتها من اول البيت الى قافيته التي ينصب اليها انصباباً · وسعة المادة هذه مع طبعه على الشعر كانتا السبب الاكبر على ما نعتقد في هذا التطويل ، لاظهار العبقرية ، ولاستيفاء الغرض المرسل فيه القول ·

ويظهر ان مسلماً كان صاحب تهذيب ونظر في شعره ، لان ما عندنا منه مصقول الجوانب ، مهذب الاطراف ، يأخـذ البعض منه بحجز بعض ، فليس فيه ابناء علات ، وما ينفر البيت مما يليه او مما يتقدمه ، وتزيدنا اعتقاداً بتهذيبه الشعر تلك الصناعة البديعية التي تزين شعره والتي لا يظهر عليها اثر للكلفة او النفور ، زد على هذا

انك لا تكاد تجد في شعره خطأ من اخطاء العربية التي يقع فيها كبار الشعراء ، وهنا مجال القول عن معرفة مسلم بدقائق لغة العرب ، وهو ما نذهب اليه ·

وقد يكون ما لدينا من شعره خير ما قال ، ولكننا نحكم على ما نجد ، ولم نعلم ان مسلماً هو الذي انتقى شعره ، بل هو الذي اراد ان يزيله من عالم الوجود لو لا ما بقي عند الناس منه كما رأيت من قبل ·

واذن فنحن نميل الى ما قلنا من تعمق مسلم في لغة العرب ، وشدة جنوحه الى التنقيد والتهذيب والنظر في شعره ·

وانك لتستبين اثر جهده في شعره من قصيدته التي يقول في مطلعها :

لا تدع بي الشوق الى غير معمود   نهى النهي عن هوى الهيف الرعاديد

وفي غيرها من مطولاته ·

***

كان مسلم اذا ارسل شعره في سبيل غرض معين ، لم يقف به القول الا عند استفراغ ما عنده ، فاذا وجد انه قد استوفى الغرض وقف ، وقد يكون استيفاؤه المعنى في بيتين او في ثلاث ، وقد يكون في ثمانين او اكثر ، ولكنه مع ذلك لا يجعلك بعد

قراءتك ما قال ، حائراً في المعنى الذي يريد ، فهو صريح اللفظ واضحه ، مستبين المعنى ظاهره ، لا يعمد الى التعمية او المواربة اصلاً ·

ومما يلاحظه قارئ ديوانه ان قوة شعره لا تكاد تختلف في معظم ما قال ، فقصيدته التي نظمها في السابعة والعشرين من عمره والتي يقول في مطلعها :

تعزّ فقدمات الهوى وانتهى الجهل   فرد عليك الحلم ما قدم العذل

لا تكاد تتباين في قوتها مع باقي شعره وفيه ما قاله وهو كهل ؛ ونحن نذهب الى ان هذا الطبع الذي نضج والعود املد ، لا يزرق في القوة والمتانة عنه في سن الكهولة ·

وانك لتطلق هذا القول في الكلام عن مقطعاته على قلتها ، كما تطلقه على مطولاته التي تظهر فيها عبقريته باجلى بيان والتي لا تجد عليها اثراً لضعف او تنافر

واذا تبينت مواضع لفظ صريع وجدت في وضع اللفظ مواضعه قدرة على التصرف والانتقاء ؛ وإحكاماً في الصنعة قد لا تتهيأ لغيره من الشعراء ، ولعله كان يستخف بشعر أبي العتاهية لتقلقل بعض الفاظه ، واسفافها ، ولأنه كان يرى شعره اسمى من شعر ابي العتاهية

***

هذا وانك لتشاهد من آثار عبقريته وصنعته ما اغار عليه

الشعراء ، وقد اغار هو على شعر سواه ايضاً ، ولكنك اذا عمدت الى النظر فيمن يتطول على الآخر بشعره ، وجدت لشاعرنا الفضل في ذلك ، فكثيراً ما كان كبار الشعراء عالة على شعره ، ولو حاسبهم لرجحت كفته ·

وهذا اوان نذكر فيه اغارة الشعراء على شعره فلنمر به مسهبين قليلاً ·

اغارة الشعراء على شعره

قلما نقرأ فصلاً لناقد من نقدة الشعراء الا وترى في تضاعيف اقواله ان الشاعر قد اخذ المعنى الفلاني — او سرقه — من شاعر آخر تقدم عصره او عاصره، وشدّ ما يألم الشاعر لمعنى عرض له فاصطاده، ثم قام في الناس من يتنطع ويلصق به تهمة السرقة، كأن توارد الخواطر لم يكن، وكأن المعاني ليست ملكاً مشاعاً للبشرية كالهواء الطلق يستفيد منة من يقصده في اماكنه الفسيحة، او كالازاهير في الحقول يقطف منها القاطف ما يشاء، نقول كالهواء الطلق او كالازاهير ولا نقول كما قال الجاحظ لان في قوله جرأة على المعاني تظهر لك مبلغ اعتقاده بالمعاني، وهو العالم المدقق والاديب الكبير، اذ يقول(١) : « والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوى والقروي، وانما الشأن في اقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولته وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجودة السبك، فانما الشعر صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير» . وقديماً ذهب المنصفون الى توارد الخواطر، والى ان ما يعرض للمتقدم قد يعن للمتأخر، فاذا صادف ذلك منهما شرائط متماثلة كان هناك

(١) كتاب الحيوان ج ٣ ص ٤٠

تماثل في المعاني ، ولكن اولئك الذين يقرون ذلك جعلوا الاسبق احق بالمعنى واولى به .

وهذا الجاحظ الذي سمعت رأيه بالمعاني يقول :[1]

« ولا يعلم في الارض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام ، اوفي معنى غريب عجيب ، او في معنى شريف كريم ، او في بديع مخترع ، الا وكل من جاء من الشعراء من بعده او معه ان هو لم يقدر على مثله فيسرق بعضه او يدعيه باسره ، فانه لا يدع ان يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكاً فيه كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف الفاظهم واعاريض اشعارهم ، ولا يكون احد منهم احق بذلك المعنى من صاحبه ، او لعله يجحد انه سمع بذلك المعنى قط ، وقال انه خطر على بالي من غير سماع كما خطر على بال الاول ، هذا اذا قرّعوه به . »

وهنا نرى اساءة الجاحظ الظن بالشعراء المتأخرين . وبالمقارنة بين قولي الجاحظ ندرك انه ذهب الى الاعتداد بالمعنى والسبك معاً والى ان المتقدم صاحب المعنى احق به ممن يأتي بعده .

هذا رأي الجاحظ احد أئمة الأدب العظام ، اما أبو هلال العسكري صاحب كتاب الصناعتين فيقول فيه :

« ليس لاحد من اصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن

---

(١) كتاب الحيوان ج ٣ ص ٩٦

تقدمهم ، والصب على قوالب من سبقهم ، ولكن عليهم اذا اخذوها ان يكسوها الفاظاً من عندهم ، ويبرزوها في معارض من تأليفهم، ويوردوها في غير حليتها الاولى ، ويزيدوا في حسن تأليفها وجودة تركيبها وكمال حليتها ومعرضها فاذا فعلوا ذلك فهم احق بها ممن سبق اليها ولو لا ان القائل يؤدي ما سمع لما كان في طاقته ان يقول وانما ينطق بعد استماعه من البالغين . وقال امير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لو لا ان الكلام يعاد لنفذ وقال بعضهم كل شيء ثنيته قصر إلا الكلام فانك اذا ثنيته طال .

على ان المعاني مشتركة بين العقلاء فربما وقع المعنى الجيد للسوقي والنبطي والزنجي .. وانما تتفاضل الناس في الالفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها وقد يقع للمتأخر معنى سبقه اليه المتقدم من غير ان يلم به ولكن كما وقع للاول وقع للآخر .»

وقال ابن رشيق في العمدة نقلاً عن بعض العلماء :

« ان المعاني الموجودة في طباع الناس يستوى الجاهل فيها والحاذق ولكن العمل على جودة الالفاظ وحسن السبك وصحة التأليف ، الا ترى لو ان رجلاً اراد في المدح تشبيه رجل لما اخطأ ان يشبهه في الجود بالغيث والبحر ، وفي الإقدام بالأسد ، وفي المضاء بالسيف ، وفي العزم بالسيل ، وفي الحسن بالشمس ، فان

لم يحسن تركيب هذه المعاني في احسن حلاها من اللفظ الجيد الجامع للرقة والجزالة والعذوبة والطلاوة والسهوله لم يكن للمعنى قدر ... وبعضهم مثل المعنى بالصورة واللفظ بالكسوة ، فان لم تقابل الصورة الحسناء بما يشا كلها ويليق بها من اللباس فقد بخست حقها وتضاءلت في عين مبصرها .»

ونحن نرى الجمهور من الادباء على ان آخذ المعنى اذا ابرزه بحلية اجمل من حليته الاولى وبتركيب اكمل ، كان احق به من السابق والاّ فهو السارق المغير على ذخيرة غيره .

اما نفوس الشعراء الاحياء ممن يغير البعض على معانيهم ، فانها لا تسكن لهذه الاغارة ، بل تثور ثائرتها ،وقد يكيل الشاعر للمغير كيلاً وافياً . وانك لتذكر غضب بشار على سلم الخاسر لاغارته على معنى بيته :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

حين اخذه سلم فقال :

من راقب الناس مات غمّاً وفاز باللذة الجسور

اما شاعرنا فما رأينا انه تهاجى مع آخر من أجل اغارة غيره على شعره ، بل كان يرى الشعراء يأخذون من معانيه فيحلم عنهم

ولا يعير ذلك التفاتاً ، ومن ثم لم تكن له مساجلات مع الشعراء في هذا السبيل .

وانك لترى ابا نواس على عظم مكانته في الشعر ينهال على بعض معاني شاعرنا فيقول :

فتمشت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقم

وقد أخذه من قول مسلم :

تجري محبتها في قلب عاشقها جري المعافاة في اعضاء منتكس

وقال ابو عثمان الناجم في ذم رجل :

لم يحصل بمخضك الماء الا زَبداً حين رمت بالجهل زبْداً

اخذه من مسلم في رجل اذ قال :

واني واشرافي عليك بهمتي لكالمبتغي زبداً من الماء بالمخض

وللقاضي السعيد ابن سناء الملك بيت اخذه من مسلم واحسن فيه فقال :

علمتني بهجرها الصبر عنها فهي مشكورة على التقبيح

وبيت مسلم هو :

يا واشياً جسنت فينا اساءته نجى حذارك انساني[1] من العزق

فان احسان اساءة الواشي ممكن اذ خشي الشاعر الواشي فترك

---

(١) انسان العين سوادها .

البكاء وبذلك نجى انسان عينه من الغرق بالدمع .

وقال أبو تمام :

قال لي الناصحون وهو مقال ذمّ من كان جاهلاً اطراء
صدقوا في الهجاء رفعة اقوا م طغام ، فليس عندي هجاء

اخذهما من مسلم اذ يقول :

اما الهجاء فدق عرضك دونه والمدح عنك كما علمت جليل
فاذهب فانت طليق عرضك انه عرض عززت به وانت ذليل

وقد اخذ ابو نواس معنى بيتي صريع فقال :

بما اهجوك لا ادري لساني فيك لا يجري
اذا فكرت في عرضك اشفقت على شعري

وقال شاعرنا :

الشيب كره وكره ان يفارقني اعجب لشيء على البغضاء مودود
يمشي المشيب فلا يأتي له خلف والشيب يذهب مفقوداً بمفقود

اخذه سليمان بن وهب حين نظر الى المرآة فقال :

« عيب لا عدمناه »

وقال ابو تمام في المزاج :

ولعاب بنت غمامتين مزجته بلعاب قلب قطاف غرس مونق
حمراء من حلب العصير كسوتها بيضاء من حلب الغمام الورق

اخذه من لفظ مسلم اذ قال :

صفراء من حلب الكروم غذوتها بيضاء من صوب الغيوم البجس
مزجت ولاوذها الحباب فحا كها فكأن حليتها جنيّ النرجس

وقال مسلم بن الوليد :

مستعبر يبكي على دمنة ورأسه يضحك فيه المشيب

اخذه دعبل فاحسن اذ قال :

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

وحدث ابو القاسم عبيد الله بن محمد اليزيدي قال : حدثني احمد بن محمد قال : سمعت ابي يقول ما سرقت من الشعر شيئًا الا معنيين: قال مسلم بن الوليد :

ذاك ظبي تحير الحسن في الار كان منه وجل كل مكان
عرضت دونه الحجال فما يلـ ـقاك الا في النوم او في الاماني

فقلت :

يا بعيد الدار موصو لاً بقلبي ولساني
ربما باعدك الدهـ ـر وادنتك الاماني

وقال مسلم ايضاً :

متى ما تسمعي بقتيل ارض اصيب فانني ذاك القتيل

فقلت :

وان قتل الهوى رجلاً   فـــاني ذلك الرجل

وبعد فاذا كان في الوقت متسع للتنديد بالشعراء المغيرين على شعره ، فمن العدل ان نجد المتسع الذي نندد فيه باغارته على شعر الشعراء وهو ما نحدثك به في الفصل الآتي ·

غارة مسلم على شعر غيره

تقدم في الفصل السابق شيء عن تردد المعاني عند الشعراء، وسواء أكان ذلك توارد خاطر على خاطر، ام اغارة شاعر على شاعر فان الذي عليه اكثر الادباء كما رأيت اباحة اتيان المعنى باسلوب أجمل ولفظ احلى او بزيادة في المعنى او باختصار في المبنى ، والا فيعد الامر سرقة كما تقدم « اذ اي الرجال يستطيع — كما قال اناطول فرانس — ان يفخر بانه فكر في امر لم يفكر فيه غيره . فالاديب يعلم علم اليقين ان الأفكار ملك الناس باجمعهم فلا يقدر احد ان يقول ان هذا الفكر لي ، الاديب يعلم ان قيمة الفكر بالقالب الذي يفرغ فيه هذا الفكر ، فافراغ فكرة قديمة في قالب حديث هذا هو الفن كله وهذا ما يستطيع البشر ابداعه وانشاءه . ليس الفكر ملكاً لمن يبدعه وانما هو ملك الذي يثبته في اذهان الرجال [1] . »

وبهذا تستطيع ان تحكم على المعاني التي يوردها الشعراء وانها جديرة ان يملكها هذا او ذاك .

وعندنا ان اغارة مسلم على معاني الشعراء لم تشنها لانه كان يأتي بالمعنى في حلل سامية وقد كان يزيد فيه احياناً ان لم يأت به تاماً .

---

(١) من كتاب المتنبي للاستاذ شفيق جبري .

قال بعض الاعراب :

استغفر الله واقيالُه ما انا مَنْ شَيْبُه يهوله اعظم من حله رحيله

فقيل ان مسلماً اخذ معنى هذه الابيات فقال :

الشيب كره وكره ان يفارقني اعجب لشيء على البغضاء مودود

يمضي الشباب وقد يأتي له خلف والشيب يذهب مفقوداً بمفقود

وقال :

لا يرحل الشيب عن دار اقام بها حتى يرحل عنها صاحب الدار

وقال عمر بن ابي ربيعة وقيل انه اخذ معنى قوله من سواه :

لقد دب الهوى لك في فؤادي دبيب دم الحياة الى العروق

فصادف هذا المعنى هوى في نفس شاعرنا فقال :

تجري محبتها في قلب وامقها جري السلامة في اعضاء منتكس

وحدثوا ان أبا العتاهية قال :

وحكت لك الساعات عن ساعات ابيات بغت

فاغار مسلم عليه بقوله :

ينال بالرفق ما يعيا الرجال به كالموت مستعجلاً يمشي على مهل

وقال أبو العتاهية ايضاً :

وإنّا اذا ما تركنا السؤا ل منه فلم نبغه يبتدينا

وان نحن لم نبغ معروفه فمعروفه ابداً يبتغينا

فاعجبه معنى البيت الاول فقال :

اخ لي يعطيني اذا ما سألته ولو لم اعرّض بالسوءال ابتدانيا

وقال النابغة الذبياني :

اذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب

وقال حميد بن ثور الهلالي :

اذا ما غدا يوماً رأيت غيابة من الطير ينظرن الذي هو صانع

فتناول صريع الغواني معنى البيتين في قوله :

قد عود الطير عادات وثقن بها فهن يتبعنه في كل مرتحل

وقال احد الشعراء في وصف الليل :

كأن قرون الخرد الغيد اسبلت على وجهه او ظلمة الهجر والصد

فقال مسلم :

اجدّك ما يدريك ان رب ليلة كأن دجاها من قرونك ينشر

وقال شاعرنا :

فلما انتضى الليل الصباح وصلنه بحاشية من فجره المتورد

وقد اخذه من العتابي اذ قال :

اجد ولما يجمع الليل شملة فما حل الا وهو ورد الغوارب

وقال امرؤ القيس :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل

فقال مسلم :

وليلة خلست للعيش من سنة هتكت فيها الصبي عن بيضة الحجل

فاستعار للحجل وهي الكلل بيضة كما استعارها امرؤ القيس للخدر وكلاهما بمعنى المرأة على ان بيضة الحجل من الطير تشار كها في اللفظ ففي الاختيار اذن سوء اشتراك ، ولو قال مسلم بيضة الكلل لاحسن وابدع واتبع امرأ القيس تماماً .

وقال النابغة :

يخططن بالعيدان في كل منزل ويخبأن رمان الثدي النواهد

فقال مسلم :

فغطت بايديها ثمار نحورها كايدي الاسارى اثقلتها الجوامع

وقال ابو نواس :

بح صوت المال حتى منك يدعو ويصيح
ما لهذا احد فو ق يديه او نصيح

فقال مسلم واحسن :

تظلم المال والأعداء في يده لا زال للمال والاعداء ظلاما

وقال بشار بن برد :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فحاكاه مسلم وقال :

يخرجن من ليل كأن نجومه   اسيافنا يوم العجاج الاغبس

فانت ترى من كل ذلك ان مسلماً لم يكن في اغارته على الشعرا ، باقل منهم قيمة بل كان في معظم الاحايين يربي على الشاعر الاول لفظاً ومعنى وايراداً .

وبعد فان كلام صريع الغواني ، كما قال ابن شرف القيرواني ، مرصع ، وجملة شعره صحيحة الاصول قليلة الفضول [1] .

(١) اعلام الكلام ص ٢٣

نماذج من شعر صريع الغواني

ذهول العاشق

واني لأخلو مذ فقدتك دائباً فانقش تمثالاً لوجهك في الترب
فاسقيه من عيني واشكو تضرعاً اليه بما القاه من شدة الكرب
فوالله ما ادري بما أنا مذنب اليك سوى الافراط في شدة الحب
فإن كان ذا ذنبي الذي تدعينه فلا فرج الرحمان ذلك من ذنب
بطرفي وقلبي يستذلني الهوى فمن ذا الذي يعدي على الطرف والقلب

لذة الدنيا

عجباً لطيف خيالك المتجانب ولقلبك المستعتب المتغاضب
مالي بهجرك والبلاد عريضة اصبحت قد ضاقت علي مذاهبي
ابكي وقد ذهب الفواد وانما ابكي لفقدك لا لفقد الذاهب
جلب انسهاد لمقلتي بعد الكرى ونفى السرور مقال واش كاذب
اقصيتني من بعد ما جرعتني كأساً بحبك ما تسوغ لشارب
لو كان ما بي مثل ما بك لم ابت ندمان احزان صديق كواكب
شاب الهوى في القلب واحتنك الجوى اسفاً وما شمل المشيب ذوائبي
ثوبي علي لكى انفس كربة فاذا بدا لك في الذنوب فعاتبي
مالي رأيت خيال طيفك معرضاً اذ زارني متغاضياً في جانبي

والله لو لا ان قلبك عاتب ما كان طيفك في المنام بعاتب
ان كان ذنبي ان حبك شاغلي عمن سواك فلست عنه بتائب
لو رام قلبي عن هواك تصبراً ما كان لي طول الحياة بصاحب
سلب الهوى عقلي وقلبي عنوة لم يبق مني غير جسم شاحب
اني لاسترُ عبرتي بأناملي جهدي لتخفى والبكاء مغالبي
الحب سم طعمه متلون بفنونه افنى دواء طبائبي
يا(سحو)قدجرعتني غصص الهوى كدرت بالهجران صفو مشاربي
اشعبت قلبي بالهوى وصدعته بالهجر منك فما له من شاعب
صبراً عليك فما ارى لي حيلة الا التمسك بالرجاء الخائب
سأموت من كمد وتبقى حاجتي فيما لديك وما لها من طالب
هاقدهلكت ومت من الم الهوى قوموا فعزوا معشري واقاربي

* * *

طيف يعاتبني وقلب مُغضَب نفسي فداء مغاضبي ومعاتبي
سأجيب داعي الحب منقاداً له ان كان من احببت غير مجاوبي
ان المحب لناعم من حبه ومُرزّأ فيه عظيم مصائب
لا تسألن عن الهوى الا امرءاً خبراً بطعمته طويل تجارب

* * *

ومخدراتٍ ناعمات خرد مثل الدمى حور العيون كواعبٍ

متنكرات زرنني من بعد ما هدت العيون ونام كل مراقب
لقبنني اسماء منها سيدي واخي وسالب من احب وسالبي
وسفرن عن غرر الوجوه كأنها بالليل مصباح ببيعة راهب
حور اوانس يقتنصن باسهم من طرفهن اذا نظرن صوائب
زرع الشباب لهن رمان الصبى في النحر قد زينت بترائب
ابدين لي ما بين ظرف ساحر ودلال مغنوج وشكل خالب
وحديث سحار الحديث كأنه در تحدر من نظام الثاقب
فقطفت رمان الصدور للذة ولمست ارادفاً كفعل اللاعب
وتزعفرت شفتي للثم ترائب عبقت بها ريح العبير الغالب
ما زلت انصفهن مني في الهوى حتى اخذن في الزمان اطايبي
احيين ليلتهن بي وبمجلس من قصف قينات وعزف ضوارب
حتى اذا ودعنني اهدين لي تسليمهن باعين وحواجب
كم منقب لي في الحسان مشهر ومناقب محمودة وعتايب
ما لذة لدنيا اذا ما لم تكن فيها فتى كأس صريع حبائب

الهوى مطان الروح

شخصت مذ يوم نادوا بالرحيل على أثارهم ثم لم اطرف الى احد
اغضت عن الناس عيني ما ترى حسنا في الناس حتى تراهم آخر الابد
نقسم الشوق انفاسي فقطعها حب بنفسي في الاحشاء والكبد

لما اشتفى البين من نفسي وامرضها ... جاء الوداع بنفي الصبر والجلد
سلبت روحي واسكنت الهوى بدني ... فصار فيه مكان الروح في الجسد

وقالوا ان من غزله هذا القول :

يا قصر جعفر ما لي عنك اقصار ... لي فيك الف واشجار واوطار
ما زلت ابكي الى سكان داركم ... حتى بكى لي جن فيه عمار
والدار تملكني ويحيى ساكنها ... فلي مليكان رب الدار والدار
ما كنت احسبني احيا وتملكني ... من بعد حرية لبن واحجار

ساحرة العينين

وساحرة العينين لاتحسن السحرا ... تواصلني سراً وتقطعني جهرا
ابت حدق الواشين ان يصفو الهوى ... لنا فتعاطين التعزيَ والصبرا
وكنا اليفي لذة شمل صفوة ... حليفي صفاء ما نخاف له غدرا
فعدنا كغصني ايكة كلما جرت ... لها الريح القت منهما الورق الخضرا

***

وزائرة رعت الكرى بلقائها ... وعاديت فيها كوكب الصبح والفجرا
اتتني على خوف العيون كأنها ... خذول تراعي النبت مشعرة ذعرا
اذا ما مشت خافت نميمة حليها ... تداري على المشي الخلاخيل والعطرا
فبت اسامر البدر طوراً حديثها ... وطوراً اناجي البدر احسبها البدرا
الى ان رأيت البدر منكشف الدجى ... يودع في ظلماته الانجم الزهرا

***

خذاها فاما انت فاشرب وهاتها　　لاسقيها هذا معتقة بكرا
وهات اسقني من طرفها خمر طرفها　　فاني أمرؤ آليت لا اشرب الخمرا
ارود بعيني منتظر اللهو والصبي　　واهوى ظباء الانس والبقر والعفرا

* * *

وبنت مجوسي ابوها حليلها　　اذا نسبت لم تعدُ نسبتُها النهرا
تجيش فتعدي جوهر الحلي خدرها　　وتفضي فتبدي نكهة العنبر الخدرا
أخص الندامى عندها واحبهم　　اليها الذي لا يعرف الظهر والعصرا
بعثت لها خطابها فأتوا بها　　وسقت لها عنهم الى ربها المهرا
وما زال خوفاً منهم في جحودها　　يقر بهم فترا ويبعدهم شبرا
الى ان تلاقوها بخاتم ربها　　مخدرة قد عتقت حججاً عشرا
اذا مسها الساقي اعارت بنانه　　جلابيب كالجادي من لونها صفرا
اناخ عليها اغبر اللون اجوف　　فصارت له قلباً وصار لها صدرا
قلوب الندامى في يديك رهينة　　يصيدونها قهراً وتقتلهم مكرا
ابت ان ينال الدن مسّ أديمها　　فحاك لها الازباد من دونها سترا
اذا ما تحساها الحليم اخو النهى　　اسر بها كبراً وابدى بها كبرا
ودا ربها ظبي من الانس ناعم　　ترود عيون الشرب جافية شزرا
فحثّ مطي الراح حتى كانما　　قفا اثر العنقاء او ساير الخضرا
اذا ما ادار الكأس ثنى بطرفه　　فعاطاهم خمراً وعاطاهم سحرا

الى ان دعا للسكر داع فموّتوا ... وكان مدير الكأس احسنهم سكرا
ادار على الراح البيات فصيرت ... وساداً له منه الترائب والنحرا
ظلالنا نشوف الجلد بالجلد لا نرى ... له ولها من طيب مجلسنا قدرا
سلكنا سبيلاً للصبي اجنبية ... ضمنا لها ان نعصى اللوم والزجرا
بر كب خفاف من زجاج كأنها ... ثديٌ عذارى لم تخف من يدٍ كسرا

يا ليلة اللهو ...

يا ليلة نلت فيها اللهو والوطرا ... كري علينا والا فاتركي الذكَرا
لما التقينا افترعنا في تعاتبنا ... من الحديث ومن لذاته العُذُرا
اذا استترنا بستر الليل بادرنا ... كيما يرانا عمود الصبح فانفجرا
قالت: أأقررت بالاجرام قلت نعم ... لو كان جرمي على الأقرار مقتصرا
سأدّعي ذنب غيري كي يصدقني ... من لا أرجي اليه العفو ان قدرا
قد اولعته بطول الهجر غرته ... لو كان يعلم طول الهجر ما هجرا
ما تغمض العين مذ علقت حبكمُ ... إلا اذا خالستها عينك النظرا
اسهرتموني أنام الله عينكم ... لسنا نبالي اذا ما نمت من سهرا
فاستضحكت ثم قالت لا تكن نزقاً ... واكتم حديثك لا تعلم به بشرا
فقدعفوت لك الذنب الذي زعموا ... لا بارك الله فيمن بعد ذا غدرا

* * *

وقصر الليل عن حاجات انفسنا ... كذاك ليل التلاقي ربما قصرا
قامت تمشى الهوينى تحت قبتها ... وقمت امشي خفيّ الشخص مستترا

لما بدا القمر استحييت فقلت لها ... بعض الحياء فان الحب قد ظهرا
القت على وجهها هداب خامتها ... ونازعتني بكأس الوحشة الخفرا
تكاتم القمر الوجه الذي ضمنت ... والوجه منها ترى في مائه القمرا
ثم افترقنا فضمنا سرائرنا ... دون القلوب وفاء العهد والخطرا
لم نأمن الليل حتى حين فرقنا ... كأنما الليل يقفو خلفنا الأثرا

* * *

قالوا اشتهرت فقلت الحب صاحبه ... من لا يزال به في الناس مشتهرا
ورب يوم بيوم اللهو معتجر ... خلعت فيه الى لذاته العذرا
وكأس راح يميت الهم شاربها ... باكرتها ورداء الليل قد حسرا
صب المزاج عليها الحلي ماخطرت ... كأن في حافتيها الدر والشذرا

اديري علي الكاس ...

اديري عليّ الراح ساقية الخمر ... ولا تسأليني واسألي الكاس عن امري
كأنك بي قد اظهرت مضمر الحشا ... لك الكاس حتى اطلعتك على سري
هجرت الندامى خشية السكر انما ... يضيع الفتى اسراره حالة السكر
ولكنني اعطيت مقودي الصبى ... فقاد بنات اللهو مخلوعة العذر
اذا شئت غاداني صبوح من الهوى ... وان شئت ماساني غبوق من الخمر

* * *

جعلت علامات المودة بيننـا مصايد لحظٍ هن اخفى من السحر
فاعرف منها الوصل من لين طرفها واعرف منها الهجر بالنظر الشزر
وفي كل يوم خشية من صدودها ابيت على ذنب واغدو على عذر

البحر والسفينة

وملتطم الامواج يرمي عبابه بجرجرة الآذيّ للعبر فالعبر
مطعمة حيتانه ما يغبها مآكل زاد من غريق ومن كسر
اذا اعتنقت فيه الجنوب تكفأت جواريه اوقامت مع الريح لاتجري
كأن مدب الموج في جنباتها مدب الصبا بين الوعاث من العفر
كشفت اهاويل الدجى عن مهولة بجارية محمولة حامل بكر
لطمت بخديها الحباب فاصبحت موقفة الدايات مرتومة النحر
اذا اقبلت راعت بقنة قرهب وان ادبرت راقت بقادمتي نسر
تجافى بها النوتي حتى كأنما يسير من الاشفاق في جبل وعر
تخلج عن وجه الحباب كما انثنت مخبـأة من كر ستر الى ستر
اطلت بمجذافين يعتورانهـا وقومها كبح اللجام من الدبر
فحامت قليلاً ثم مرت كأنهـا عقاب تدلت من هواء على وكر
اناف بهاديها ومد زمامها شديدعلاج الظهر معتمل الظهر
اذا ماعصت ارخى الجرير برأسها فملكها عصيانها وهي لا تدري
كأن الصبا تحكي بهاحين واجهت نسيم الصبا مشي العروس الى الخدر

يممنا بهــا ليل التمام لأربع فجاءت لست قد بقين من الشهر
فما بلغت حتى الطلاج خفيرها وحتى أبت لون اللحاء من القشر
وحتى علاها الموج في جنباتها باردية من نسج طحلبة خضر
رمت بالكرى اهوالها عن عيونهم فباتت اهاويل السرى بهمُ تسري
نؤم محل الراغبين وحيث لا تراد اذا حلت به ارحل السفر
ركبنا اليه البحر في موٴخراته فاوفت بنا من بعد بحر الى بحر

ثمار النحور

اعاود ما قدمتــه من رجائها اذا عاودت باليأس منها المطامع
رأتني غني الطرف عنها فأعرضت وهل خفت الا ما تنم الاصابع
مللت من العذال فيها فاطرقت لهم اذن قد صم منهــا المسامع
وما زينتها العين لي عن لجاجة ولكن جرى فيها الهوى وهو طائع
فأقسمت أنسى الداعيات الى الصبى وقد فاجأتها العين والستر واقع
فغطت بأيديها ثمار نحورهــا كأيدي الاسارى أثقلتها الجوامع

احسان الواشي

ومما ليس في ديوانه قوله متغزلاً :

يا واشياً حسنت فينــا اساءته نجى حذارك أنساني من الغرق
اني اصدُّ دموعاً لج ســائقها مطروفة العين بالمرضي من الحدق
ابهٍ فان النوى وافت مصيبته مولع القلب بين الشوق والقلق

ما كل عاذلة تصغي لهـا اذني وقد سمعت على الاكراه فانطلقي
فما شكرت الهوى جهلاً بلذته ولا عصيت اله الحلم عن خرق

صريع الراح والاعين

أديرا عليّ الراح لا تشربا قبلي ولا تطلبا من عند قاتلتي ذحلي
فما حزني اني اموت صبابة ولكن على من لا يحل له قتلي
احب التي صدت وقالت لتربها دعيه الثريا منه اقرب من وصلي
اماتت واحيت مهجتي فهي عندها معلقة بين المواعيد والمطل
وما نلت منها نائلاً غير انني بشجو المحبين الأُلى سلفوا قبلي
بلى ربما وكلت عيني بنظرة إليها تزيد القلب خبلاً على خبل
كتمت تباريح الصبابة عاذلي فلم يدر مابي فاسترحت من العذل

* . *

ومانحه شرابهـا الملك قهوة مجوسية الانساب مسلمة البعل
ربيبة شمس لم تهجن عروقهـا بنار ولم يقطع لها سعف النخل
تصد بنفس المرء عما يغمه وتنطق بالمعروف السنة البخل
قد استودعت دنا لها فهو قائم بها شغفاً بين الكروم على رجل
بعثنا لها منـا خطيباً لبعضنا فجاء بها يمشي العرضنة في مهل
رقى ربها حتى احتواها مغالياً عقيلته دون الاقارب والاهل
فوافى بها عذراء كل فتى ندى جزيل العطايا غير نكس ولا وغل

معتقة لا تشتكي وطء عاصر حرورية في جوفها دمها يغلي
اغارت على كف المدير بلونها فصاغت لها منها انامل كالذبل
امانت نفوساً من حياة قريبة وفاتت فلم تطلب بتبل ولا ذحل
شققنا لها في الدن عيناً فأسبلت كما اسبلت عين الخريد بلا كحل
كأن حباب الماء حين يشجها لآلئ عقد في دماليج أو حجل
كأن فنيقاً بازلا ُشكَّ نحره اذاما استدرت كالشعاع على البزل
كأن ظباء ُعكفا في رياضهـا اباريقها أوجسن قعقعة النبل
ظللنا نناغي الخلد في مشرع الصبى علينا سماء العيش دائمـة الهطل
ودارت علينا الكأس من كف طفلة مبتلة حوراء كالرشأ الطفل
وحن لنا عود فباح بسرنا كأن عليه ساق جارية عطل
تضاحكه طوراً وتبكيه تارة خدلجة هيفاء ذات شوى عبل
اذا ما اشتهينا الاقحوان تبسمت لنا عن ثنايا لاقصار ولا ثعل
واسعدها المزمار يشدو كأنه حكى نائحات جئن يبكين من ثكل
غدونا على اللذات نجني ثمارهـا ورحنا حميدى العيش متفقي الشكل
اقامت لنا الصهباء صدر قناعها ومالت علينا بالخديعة والختل
اذا ما علت منا ذؤابة شارب تمشت به مشي المقيد في الوحل
فلا نحن متنا ميتة الدهر نقبة ولا هي عادت بعد علٍّ الى نهل

***

وساقية كالريم هيفاء طفلة ... بعيدة مهوى القرط مفعمة الحجل
تنزهَ طرفي في محاسن وجهها ... اذا احتثت الطاسات يغني عن النقل
سأنقاد للذات متبع الصبى ... لأمضي همي او اصيب فتى مثلي
هل العيش الا ان اروح مع الصبا ... واغدو صريع الراح والاعين النجل

واهاً لايام الصبى !! ...

هلا بكيت ظعائنـاً وحمولاً ... ترك الفؤادَ فراقهم مخبولا
اما الخليط فزائلون لفرقة ... فمتى تراهم راجعين قفولا
أتبعتهم عين الرقيب مخالساً ... لحظاً كما نظر الاسير كليلا
تالله ما جهل السرور ولا الكرى ... ان الفراق من اللقاء اديلا
فاذا زجرت القلب زاد وجيبه ... واذا حبست الدمع فاض همولا
واذا كتمت جوى الاسى بعث الهوى ... نفساً يكون على الضمير دليلا
واهاً لأيام الصبى وزمانـه ... لو كان اسعف بالمقام قليلا
سل عيش الدهر قدمضت ايامه ... هل يستطيع الى الرجوع سبيلا
لوعاد آخره كأول عهـده ... فيما مضى لم أشف منه غليلا
ولرب يوم للصبى قصـرته ... بالملهيات وقد يكون طويلا

* * *

وسلافة صهباء بنت سـلافه ... صفراء لما تعصـر التسليلا
اختان واحدة هي ابنـة اختها ... كلتاهما تدع الصحيح عليلا
لا تسقني الماء القراح وهاتهـا ... عذراء صافيـة الاديم شمولا

خرقاء يرعش بعضها من بعضها لم تتخذ غير المزاج حليلا
سلت فسلت ثم سل سليلها فأتى سليل سليلها مسلولا
بعثت الى شر الضمير لجاءها سلساً على هذا اللسان مقولا
لطف المزاج لها فزيّن كأسها بقلادة جعلت لها اكليلا
قتلت فعاجلها المدير لم تفظ فاذا به قد صيرته قتيلا

* * *

وهجيرة كلفت طي مقيلها ظهراً وقد طلب الكنيس مقيلا
قودا نواجي كالحني ضوامراً تركت عرائكها المهامه ميلا
ودجنة ضمنت هتك ستورها وخباء صامتة البغام ذلولا
حتى اذا الفجر استضاء انختها لأذوق نوماً أو اصيب مليلا
والليل قد رفع الذيول مُواشكاً برحيله سلطانه ليزولا
حملت ثقل الهم فانبعثت به نفسي وناجيت السفار ذمولا
حرفاً اذ ونت العتاق تزيدت في سيرها التنقيب والتبغيلا
ترمي المهامه والقطيع بطرفها شزراً كأن بعينها تحويلا

* * *

لو ان قوماً يخلقون منية من بأسهم كانوا بني جبريلا
قوم اذا حمي الهجير من الوغى جعلوا الجماجم للسيوف مقيلا
اذ لا حمى الا الرماح وبينها خيل يطأن بقاتل مقتولا
ولقد وقعن بأرض كابل وقعة تركت اليها للغزاة سبيلا

زهرة الدنيا

قد كنت قبلك خلواً فابتليت بمن لا أحمد الدهر لي في حبها حالا
مثالها زهرة الدنيا مصورة في أحسن الناس ادباراً واقبالا
استودع العين منها كلما برزت وجهاً من الحسن لا تلقى له بالا
فالعين ليست ترى شيئاً تسر به حتى ترين لما استودعت تمثالا
نمى عن الحب اني منك في سهر غال الرقاد واخدى القلب بلبالا
ماطال ليلي به ذكراك أرقني هواك اطول من ليلي وان طالا
تذكري ان نسيت العهد ليلتنا إذ لا نراقب في الاسرار خلخالا
ولا نخاف علينا قول ذي حسد الا الوساوس من حلي اذا جالا

ومن خمره ووصفه قوله :

اثار اطلال برامة درس هجن الصبابة واستثرن معرسي
اوحت الى درر الدموع فاسبلت واستفهمتها غير ان لم تنبس
زج الهوى اودع دموعك تبكه واجنح الى خطط المتالف واحبس
وكل الزمان الى البلا اطلالها نخلت معالمها كأن لم تؤنس
ولرب صاحب لذة نادمته في روضة أُنُف كريم المعطس
صفراء من حلب الكروم كسوتها بيضاء من صوب الغيوم البجس
مزجت ولاوذها الحباب فخا كها فكأن حليتها جنيّ النرجس
وكأنها والماء يطلب حلمها لهب تلاطمه الصبا في مقبس

جهلت فداري جهلها فتبسمت   عن مشرب لون الشهولة أعيس
والناس كلهم لضني واحد   ثم اختلاف طبائع في انفس
حتى اذا نضب النهار وادرجت   في الليل شمس نهاره المتورس
ساورته فامتد ثم تقطعت   انفاسه في صبحه المتنفس
والعيس عاطفة الرؤوس كأنما   يختلن سر محدث في الاحلس
يخرجن من ليل كأن نجومه   اسيافنا يوم العجاج الاغبس
ثم استقلت بالحتوف رماحنا   والخيل في كيل مسدى ملبس
وبوارق الآمال تبدو تارة   حمراً وتخفى تارة في الأروس
حرب يكون وقودها ابناءها   لقحت على عقر ولما تنفس
من هارب ركب النجاء ومقعص   جشمت منيته على المتنفس
غصبته اطراف الاسنة نفسه   فثوى فريسة ولغ او نهس

* * *

ان كنت نازلة البقاع فجنبي   دار الرباب وخزرجي اوأوسي
وتجنبي الخفراء ان سيوفهم   حدث وان قناتهم لم تضرس
رفعت بنو النجار بيتي فيهم   ثم انتميت فافسحوا في المجلس
هل طيّ الاجبال شاكرة امرئ   ذاد القوافي عن حماها الاقعس
وحمى ابا نفر عظام حفيرة   درست وباقي عزها لم يدرس
كافأت نعمتها بفضل بلائها   ثم انفردت بمنصب لم يدنس

واذا افتخرت عددت سعي مآثر قصرت عن الاغضاء طرف الاشوس
فاعقل لسانك عن شتائم عرضنا لا يعلقنك خادر من مأنس
اخلقت فخرك من ابيك فجئتني بأب جديد بعد طول تلمس
اخذت عليه المحكمات طريقها فغدا يناقض اعظماً في أرمس

وقال يمدح هاشم بن عم يزيد :

لم اصح من لذة لا لا ولا طرب وكيف يصحو قرين اللهو واللعب
نفسي تنازعني اللذات دائبة وانما اللهو واللذات من أربي
كم ليلة بت مسروراً ومغتبطاً جذلان منغمساً في اللهو والطرب
اذا دعيت اللهو اجبت وان لم ادع للهو واللذات لم اجب

* * *

وشادن قال هاك الكأس قلت له هات اسقني من نتاج الماء والعنب
فقام يسعى الي دن فسللها حمراء بكراً لها عشر من الحقب
محجوبة من عيون الناس ليس لها في غير بيت بنى ساسان من نسب
كأنها وصبيب الماء يقرعها در تحدر من سلك على ذهب
لم يغذها بمصيف القيظ بائعها ولا غذاها بحر الشمس واللهب
كانت ذخيرة دهقان يضن بها مكسوبة من حلال غير مكتسب
كأنما ضمنت مسكاً تفوح به او عنبر الهند او طيبا من السخب
تكاد ان تتلاشى كلما مزجت في الكاس لولا بقايا الريح والحبب

مميتة لهموم القلب محيية ... للبشر نافية للفكر والوصب
يسعى بها مخطف الاحشاء مختلق ... قد تم في حسن تركيب وفي أدب
لاشيءَ أحسن منها حين نشربها ... صرفًا ونبدأُ بعد الشرب بالنخب

* * *

لاتكذبن فلا جود ولا كرم ... الا بكفيك يا ريحانة العرب
كم نعمة لك لا تنفك موجبة ... شكراً ومن نعمة لم تنج من عطب
إذا العدى اوقدوا ناراً لفتنتهم ... اطفأتها بزجاج الحظ والعطب
فمن يردك لحرب يجتني عطباً ... ومن اتاك لبذل العرف لم يخب
مستذعنين ومستجدين يجمعهم ... رجا اليك دعاهم غير منشعب
بعثت فضلاً وجوداً فيهم فمضى ... لم يتركا كربة تبقى لذي كرب
وفي عدوهم سيفاً يحاكمهم ... فقد أبدتهم بالقتل والهرب
انت الامين الذي عمت مكارمه ... من حل في الارض من عجم ومن عرب
فاسلم على الدهر والايام محتفظاً ... من الكريهات محجوباً من الريب
يازين آل قصي وابن سيدهم ... خليفة الله يا ابن السادة النجب
اني انا الناصح المبدي نصيحته ... ما شبت نصحاً بابطال ولا كذب
فاقبل مديحي فيهم واستمع نسقاً ... في وصف اغلب من اشعار منتخب
ما كابن عمك في نصح ولا ادب ... من ذي قرابتكم او غير مقترب
يهوى هواك فما تكره فمطرح ... ماقد كرهت الي مستنبت القصب

فتى اذا هز في نصح أصيب له　　صدق السريرة فيما كان من سبب
ان زدته رتبة تبقى زيادته　　في النصح اعطاكم عشرا من الرتب
لو كان تبتاع او تشرى مودته　　لابتاعها منكم المأمون بالرغب
فاشدد بهاشم كفًا ان فضلهم　　فضل الدَّرور على منزورة الحلب
ما مثلهم في جميع الناس كلهم　　لالا وكيف يكون الرأس كالذنب

* * *

وقال يمدح غيره :

هجر الصبا وأناب وهو طروب　　ولقد يكون وما يكاد ينيب
درجت غضارته لأول نكبة　　ومشى على روق الشباب مشيب
قذفت به الأيام بين قوارع　　تأتي بهن حوادث وخطوب
لله أنت اذ الصبى بك مولع　　واذ الهوى لك جالب مجلوب
حلت حباك صبابة مكتومة　　نطقت بها من مقلتيك غروب
هلا عجلت على الدموع بعزمة　　بل لم يكن لك في العزاء نصيب
عطفته بعد جماحه في سلوة　　ذكر يعطفها هوى مغلوب
اغضى الزمان له على عين الرضى　　وعليه منه حارس ورقيب
حتى اذا اتسعت له اوطاره　　طفقت تطرقها اليه نكوب
خذ من شبابك للصبى أيامه　　هل تستطيع اللهو حين تشيب

* * *

يا ايهـــا الرجل المثمر ماله … وهو المسلب عرضه المسلوب
خل المكارم قد كفاك مراسها … سعدانها وسليلهـــا يعقوب
ذاك الرجاء المستجار بجوده … من نائبات الدهر حين تنوب
كالكهل مقتبل الشباب يزينه … حلم التكهل والشباب اريب
واذا الزمان عدا عليك كفاكه … من آل سعدان اغر نجيب
غمر الندى مغشية حجراته … سلس العطاء مؤمل مرهوب
يعطيك مقتدراً على امواله … لا كالذي يعطيك وهو هيوب
ملء العيون مقلص لنجاده … طبن بأنحاء الامور طبيب
متقســم اما لبذل عطيــة … او نكبــة يدعى لها فيجيب
متفاوت في الرأي مختلط به … في امره الترغيب والترهيب
قرم بهمته اذا سكن الحشا … قلق يخالسه الكرى ووجيب
يمضي الامور المشكلات عيونها … ومحل معتلج الضمير رحيب
ضمت قواصيه اليك عزيمة … تأتي وراء الامر وهو غريب
يمضي الامور بعزم رأي واحد … معلى به التبعيد والتقريب
تلقى الغيان الى الضمير اناته … حتى يبوح بسره التجريب
شكس على الآراء معتدل الهوى … شرس بما غلب الرجال غلوب
وكأنما ذرفت عليك بجوده … ديم ترنم تحتهــا شؤبوب
انف عن الوطن الجموح الى الخنا … يرمي الضمير بظنه فيصيب

من آل سعدان الذين بجدهم نيل الحفاظ واحكم التأديب
حلوا من المعروف في قلل العلى تسمو اليهم اعين وقلوب
عاودت يا يعقوب منك صنائعاً محمودة عهدي بهن قريب
اعطيتني حتى ملكت مدى الغنى بنداك والراجيك ليس يخيب
ووعدتني فقفوت وعدك بالتي لم يقفها منٌّ ولا تثريب

وقال يمدح محمد بن منصور بن زياد :

عاصى الشباب فراح غير مفند واقام بين عزيمة وتجلد
متحيراً طلعت له شمس النهى فمشى على سنن الطريق الاقصد
درج الكرى في مقلتيه وربما مني الكرى منه بليلة أُرمد
أيام يعتلج الصبي في صدره برضى المدامة والخدال النهد
ان الصبا وعرت عليك سبيله فتنكبت بك عن وصال الخرد
فعدا النهى بك عن تقاذف صبوة خطرت بريعان الشباب الاغيد
فاعمد بحزمك نحو أمر واحد وقد العزيمة بالعزيمة تنقد
لولا تثيرك عن مقامك همة ينجو بها كلب الهموم العود
جهل الزمان وعاد في عاداته فلبسته بتجمل وتغمد
حتى خرجت من الحوادث لم أنل طبعا ولم اقدح بزند مصلد
خلفت واردة الهموم وربما لحقت معرس مربعي أو مرودي
القى الدجى عن منكبيه بروحه نبذت به عن فدفد في فدفد

أمـا النهـار فانه لمضلة بيداء صادقة الهواجر صيخد
واذا الدجى التبست فأول طالع في وجهها من جيبها المتوقد
يغدو وقد اسرى السرى وكأنما غاداه بالدلجـات ليل الرفد
ركب الضحى حتى اذا اعتنق الدجى واقترها عن مغرب متوفد
حط الركاب الى جناب محمد من جنح ليل كالغمامة أربد
تخدي العرضنة قد نقسم طرفها وضح الطريق وخوف مس المحصد
نهض ابن منصور فادرك غاية قعدت مآثرهـا بكل مسود
ملك اذا الغايات مدت شأوه سبق الجياد موفات كل مقلد
اعطى فما تنفك تنزع همة املا اليه من المحل الابعد
تلك العلى حكمن في امواله فاعضنه منهـا جوار الفرقد
زاد الزياديين جود محمد شرف الحديث مع القديم الاتلد
حلوا برابية العلى وتفرعوا من هـاشم فرعاً اشم موطد
بيتاً تطنب بالنجوم بناؤه في ناطح سقف السماء مشيد
ما زالت الايام ترفع شأوه ويزيد عود السـابق المتزيد
حتى اذا بلغ المدى عارضنه فمسحن غرة سـابق لم يجهد
اغنى عن البخلاء مبتدر الغنى وكفى المقصر منحه المتجود
لا يدفع الامل القريب لعوده في حين دفع الغيث حمد الرود
يتجنب الهفوات في خلواته عف السريرة غيبه كالمشهد

اخذ الامور بعينه وضميره حتى أقام لهن قصد المورد
وله اذا فني السوءال مذاهب في الجود تبحث عن سوءال المجتدى
واذا تخوفت الامور يرى لها رأياً يشق به اعتزام الأصيد
متفنن الآراء في جمع الهوى يخرجن من نجوى ضمير اوحد
يغمصن عن رجم الظنون وتارة يأخذن بالكيد احتيال الا كيد
يتغمد الايام في نزواتها ثبت المقام على اقتراح السوءدد
لا يشتكي ألم السنين ولا يرى قنعا بمكرمة اذا لم يزدد
والناس ادنى منه أو متخلف عن شأوه متقدم في المولد
جد الكرام فلم ينالوا سعيه كثرتهم همات من لم يجدد
ما استوقف اللحظات مذهب فكرة الا وفيه صنيعة لمحمد
يستصغر الدنيا اذا عرضت له فى همة او نائل أو موعد
عمر البديهة يستعد برأيه لبديهة الحدث الذي لم يعدد
يضع العيون على المطالب جوده حتى يكون له السوأل بمرصد
ولرب مشتمل على دكانه راضي بفضل الزاد من متزود
وسن اذا غدت الوفود كانما كلأ الكواكب ليله لم يرقد
متعذر الهمات منقطع الغنى الا مقارعة الزمان الأنكد
يضحي اذا سنحت له احدى المنى قنعا بخطرتها وان لم يورد
لما رأى الآمال نحوك شرّعاً يصدرن عنك بمثل عود المبتدي

شرعت له نفس فطالع همة ... رحبته مضمونا ثناء الوفد
زدت الاكارم في المكارم شيمة ... تستل في الازمات غل الحسد
ولربما أعطيت شانئك الرضا ... فغدا بغلة حاسد لم يجحد
تاتى على هفواته عن قدرة ... بدرات راجح حلمك المستأسد
لا يبعدن مال ربيت به العلى ... فحصدت فيه وقل لعاذلك أبعد
فلأنت أمضى في اللقاء وفي الندى ... من باسل ورد وغاد مرعد
وطئت بك القصرات فهي ذليلة ... هم مددن اليك طرف الاقود
اعطيت حتى مل سائلك الغنى ... وعلوت حتى ما يقال لك ازدد
ما قصرت بك غاية عن غاية ... فاليوم مجدك مثل مجدك في غد
قصرت على الاسراف منك طبيعة ... بسقت على ذي الجود والمتجود
عكفت على الصفصاف منك عزيمة ... من رأي مكتنف بنصر أيد
اقدمت والمهجات تلفظ والردى ... متحير بين الاسنة مهتد
والخيل طاوية العجاج نواشر ... جرد تشاول في المكر الأجرد
تمضي على نهج الامام وتارة ... تستن في الغارات غير الاحيد
حتى افترعت بها السهام ودونها ... طعن باعجاز القنا المتقصد
وتنافستك رجالها ونساؤها ... من بين مسلوب وبين مصفد
واشم بطريق كأن صليفه ... عقدت مفاصله وان لم تعقد
مستسلم للموت يعلم انه ... ان لم يذقه اليوم غير مخلد

عجلت يداك له بضربة خلسة ... سبقت بجد السيف جد المجسد
فكتلك لا تلك التي ضاقت بها ... كف الفرزدق اذ يقال له قد
ما نال حمد القول بعد قيامه ... فيها وسل المشرفي المغمد
وابوك يوم القيروان وقد جرت ... مهج الملوك على سيوف الجحد
سد الثغور بها وقد فغرت له ... بالموت بين مبيض ومسود
يوماً هفت فيه الاعاجم واحتسى ... جرح الحمام الفضل غير معرد
نهضت بهم عقب الزمان فأنجدت ... سيف الدليل على الأغر الانجد
لما تمخضت المنون لثمها ... وتعضلت بالناكب المتمرد
ما غاب حتى آب تحت لوائه ... رأب الثاي وصلاح أمر المفسد
دعم الامام به قواعد ملكه ... ولقد تطرقها انتكاس الملحد
زحفت لهم آراؤه بمكيدة ... من تحت سطوة ليث غاب ملبد
يقضي على مهج النفوس وان نأت ... بصريمه من عزم رأي محصد
جنب الجياد من العراق شوازيا ... يقرعن هامات الصفا بالجلمد
من كل سامية القذال طمرة ... عجل تروحها وأن لم تطرد
حتى وردن القيروان ودونه ... مغدى الضحى ومبيت ليل الهجد
انهجن في جور السهولة منهجاً ... وعركن محزنة الطريق الاقصد
اطلقن من ايدي الخطوب اسيرها ... وشردن من جمع القلوب الشرد
لما رآه المغربي وناره ... شعواء مطفئة لنار الموقد

والخيل تشترف الحمام وبينهـا رأي تسور فيه ظباة مهند
خاف المنية فاتقاه بنفسه في الغل ملطوم السوالف باليد
طلب الأمان وما تفرق جمعه وسيوفه مشهورة لم تغمد
زحفت به الايام فانقادت له بزمامها نخوات كل مقود
وغدت به ردفاً مطالع لم تزل تجري لمنصور بطير الاسعد
لبس الامان به المخاف واطرقت همم المريب وشاب كل مشرد

وقال يمدح داود بن حاتم بن خالد بن المهلب

لاتدع بي الشوق أني غير معمود نهى النهى عن هوى الهيف الرعاديد
لوشئت لاشئت راجعت الصبا ومشت فيّ العيون وفاتتني بمجلود
سل ليلة الخيف هل امضيت معظمها بالراح تحت نسيم الخرد الغيد
شججتها بلعاب المزن فاعتزلت تسجين من بين محلول ومعقود
كلا الجديدين قد أطعمت حبرته لو آل حي الى عمر وتخليد
أهلاً بوافدة للشيب واحـدة وان تراءت بشخص غير مودود
لأجمع الحلم والصهباء قد سكنت نفسي الى الماء عن ماء العناقيد
لم ينهني فند عنهـا ولا كبر لـكن صحوت وغصني غير مخضود
اوفى بي الحلم واقتاد النهى طلقاً شأوي وعفت الصبا من غير تفنيد
اذا تجافت بي الهمات عن بلد نازعت أرضاً ولم أحفل بتمهيد
لا تطبيني المنى عن عهد مطلب ولا أحول لشيء غير موجود

ومجهل كاطراد السيف محتجز عن الادلاء مسجور الصياخيد
تمشي الرياح به حسرى مولهة حيرى تلوذ باكناف الجلاميد
موقف المتن لا تمضي السبيل به الا التخلل ريثاً بعد تجهيد
قرينة الوخد من خطارة سرج تفري الفلاة بارقال وتوخيد
اليك بادرت أسفار الصباح بها من جنح ليل رحيب الباع ممدود
وبلدة ذات غول لا سبيل بها الا الظنون والا مسرح السيد
كأن أعلامها والآل يركبها بدن توافى بها نذر الى عيد
كلفت أهوالها عيناً مؤرقة اليك لولاك لم تكحل بتسهيد
حتى أتتك بي الآمال مطلعاً لليسر عندك في سربال محسود
من بعد ما ألقت الايام لي عرضا ملقى رهين لحد السيف مصفود
وساورتني بنات الدهر فامتحنت ربعي بمحلة شهباء جارود
الى بني هاشم أدى ركائبنا خوض الدجا وسرى المهرية القود
تطوي النهار فان ليل تخمطها باتت تخمط هامات القراديد
مثل السهام بعيدات المقيل اذا التقى الهجير يداً في كل صيخود
حلت بداود فامتاحت وأعجلها حذو النعال على أين وتحريد
أعطى فافنى المنى أدنى عطيته وأرهق الوعد نجحاً غير منكود
والله اطفأ نار الحرب اذ سعرت شرقاً بموقدها في الغرب داود
لم يأت امراً ولم يظهر على حدث الا اعين بتوفيق وتسديد

موحد الرأي تنشق الظنون له … عن كل ملتبس منهـا ومعقود
تمنى الامور له من نحو اوجههـا … وان سلكن سبيلاً غير مورود
اذا اباحت حمى قوم عقوبته … غادى له العفو قوماً بالمراصيد
كالليث بل مثله الليث الهصور اذا … غنى الحديد غنـاء غير تغريد
يلقى المنية في امثال عدتهـا … كالسيل يقذف جلموداً بجلمود
ان قصر الرمح لم يمشي الخطا عددا … او عرد السيف لم يهمم بتعريد
اذا رعى بلدا دانى مناهله … وان ببين على شحط وتبعيد
جرى فادرك لم يعنف بمهلته … واستودع البهر انفاس المجاويد
آل الملهب قوم لا يزال لهم … رق الصريح واسلاب المذاويد
مظفرون تصيب الحرب انفسهم … اذا الفرار تمطى بالمحاييـد
نجل مناجيب لم يعدم تلادهم … فتى يرجى لنقد او لتوكيد
قوم اذا هدأه شامت سيوفهم … فانها عقل الكوام المقاحيد
نفسي فداؤك يا داود اذ علقت … ايدي الردى بنواصي الضمر القود
داويت من دائها كرمان وانتصفت … بك المنون لاقوام مجاهيـد
ملأتها فزعاً اخلى معاقلهـا … من كل ابلخ سامي الطرف صنديد
لما نزلت على ادنى بلادهم … القى اليك الاقاصي بالمقاليد
لمستهم بيـد للعفو متصل … به الردى بين تليين وتشديد
اتيتهم من وراء الامن مطلعا … بالخيل تردى بابطال مناجيد

وطار في اثر من طار الفرار به ... خوف يعارضه في كل اخدود
فاتوا الردى وظباة الموت تنشدهم ... وانت نصب المنايا غير منشود
ولو تلبث ريان لما رويت ... منه ولكن شآها عدو مزؤود
احرزه اجل ماكاد يحرزه ... فمر يطوي على احشاء مفئود
وراس مهران قد ركبت قلته ... لدنا كفانا مكان الليت والجيد
قد كان في معزل حتى بعثت له ... ام المنية في ابنائها الصيد
اجن ام اسلمته الفاضمات الى ... حد من السيف من يعلق به يود
الحقته صاحبيه فاستمر بهم ... ضرب يفرق ضبات القماحيد
اعذر من فر من حرب صبرت لها ... يوم الحصين شعار غير مجحود
يوم استضبت سجستان طوائفها ... عليك من طالب وترا ومحقود
ناهضتهم زائد الاسلام تقرعهم ... عنه ثلاث ومثنى بالمواحيد
تجود بالنفس اذ انت الضنين بها ... والجود بالنفس اقصى غاية الجود
تلك الازارق اذ ضل الدليل بها ... لم يخطها القصد من اسياف داود
كان الحصين يرجى ان يفوز بها ... حتى اخذت عليه بالاخاديد
مازال يعنف بالنعمى ويغمطها ... حتى استقل به عود على عود
وضعته حيث ترتاب الرياح به ... وتحسد الطير فيه اضبع البيد
تغدو الضواري فترميه بأعينها ... تستنشق الجو انفاسا بتصعيد
يتبعن افياءه طورا وموقعه ... يلغن في علق منه وتجسيد

فكان فارق قوم خان مكرعهم … بارض زاد ان شتى في الموار يد
يوم جراشة اذ شيبان موجفة … ينجون منك بشلو منه مقدود
زاحفته بابن سفيان فكان له … ثناء يوم بظهر الغيب مشهود
نجا قليلاً ووافى زجر عائفه … بيومه طير منحوس ومسعود
ولى وقد جرعت منه القنا جرعا … حي المخافة ميتا غير موءود
زالت حشاشته عن صدر معدل … داني الكعوب بعيد الصدراملود
اذا السيوف اصابته تقطع في … سرادق بحوامي الخيل ممدود
يفدي بما نحلته من خلافته … حشاشة الركب من جرداء قيدود
حل اللواء وخال الخدر عائذه … فعاذ بالخدر ترب الكاعب الرود
وان يكن شبهاً حرباً وقد خمدت … فنائيا حيث لا هيد ولا هيد
كل مثلت به في مثل خطته … قتلا وضجعته في غير ملحود
عافوا رضاك فعاقتهم بعقوتهم … عن الحياة مناياهم لموعود
وانت بالسند إذهاج الصريخ بها … واستنفدت حربها كيد المكايد
واستغزر القوم كأسا من دمائهم … واحدق الموت بالكرار والحيد
رددت اهمالها القصوى مخيسة … وشمت بالبيض عورات المراصيد
كنت المهلب حتى شك عالمهم … ثم انفردت ولم تسبق بتسويد
لم تقبل السلم الا بعد مقدرة … ولا تألفت الا بعد تبديد
حتى اجابوك من مستأمن حذر … راج ومنتظر حتفاً ومثمود

اهدى اليك على الشحناء الفتهم   موت تفرق في شتى عباديد
وفي يديك بقايا من سراتهم   هم لديك على وعد وتوعيد
ان تعف عنهم فاهل العفو انت وان   تمض العقاب فأمر غير مردود
اسمع فانك قد هيجت ملحمة   وفدت منها بارواح الصناديد
اقذف ابا مالك فيها يكنك بها   ويسع فيها بجد منك مجدود
يمضي بعزمك أو يجري بشأوك أو   يفري بجدك كل غير محدود
لا يعدمنك حمى الاسلام من ملك   اقمت قلته من بعد تأويد
كفيت في الملك حتى لم يقف احد   على ضياع ولم يحزن لمفقود
اعطيتهم منك نصحاً لا كفاء له   وايدوك بركن غير مهدود
لم يبعث الدهر يوماً بعد ليلته   الا انبعثت له بالبأس والجود
اجرى لك الله ايام الحياة على   فعل حميد وجد غير منكود
لا يفقد الدين خيلاً انت قائدها   يعهدن في كل ثغر غير معهود
محملات اذا آبت غنائمها   ومقدمات على نصر وتأييد
هناك انت مفدى كل ملتمس   جوداً وانك مأوى كل مطرود
تستأنف الحمد في دهر اوائله   موسومة بفعال منك محمود
اذا عزمت على امر بطشت به   وان انلت فنيلاً غير تصريد
عودت نفسك عادات خلقت لها   صدق الحديث وانجاز المواعيد

* * *

وبما ليس في ديوانه المطبوع في مصر قوله في مدح الفضل :

دموعها من حذار البين تنسكب وقلبها مغرم من حزنها يجب
جد الرحيل به عنها ففارقها لبينه اللهو واللذات والطرب
يهوى المسير الى مروٍ ويحزنه فراقها فهو ذو نفسين يرتقب

وقال مفتخراً

طلائع شيب سير أسرعها رسل يردن شبابي أن يقال له كهل
نجوم هي الليل الذي زال تحتها تفارط شتى ثم يجمعها أفل
فان تبقني الايام تجنبني العصا وان تغنني فكل حي لها اكل
وما ذمي الايام ان لست حامداً لعهد لياليها التي سلفت قبل
اجارتنا ما في فراقك راحة ولكن مضى قول فانت به بسل
فبيني فقد فارقت غير ذميمة قضاء دعانا للقطيعة لا الختل
اما واغتيال الدهر خلة بيننا لقد غال إلفا سا كنا بهم الشمل
فمابي الى مستطرف العيش وحشة وان كنت لا مال لديّ ولا اهل
بنا لا بك الامر الذى تكرهينه اتى الحلم بالعتبى وقد سبق الجهل
فلا شوق ان اليأس اعقب سلوة سواء نوى من لا يراجع والثكل
عليك سلام لا تحية ذي قلى حلا بعدك العيش الذي كان لا يحلو

* * *

الا رب يوم صادق العيش نلته بها وندماي العفافة والبذل

غشية آواها الحجـاب كأنها خذول من الغزلان حالية عطل
لعمر ابنها لو لا احتراق الحشا له لمات الجوى او لا تستقيد بها مثل
سلوت وان قال العواذل لا يسلو واقسمت لا يرقى الى سمعي العذل
و باينت حتى صرت للبين راكباً قرى العزم فرداً مثل ما انفرد النصل
سعت السن الواشين فيما يعيبني وهل كنت الا ماجدا عابه وغل
وكم عائب لي ود اني ولدته ولو كرمت اعراقه وذكا الاصل
واني قصي الرحم مجدي لغيره فعاب وما آلى ومن دونه سدل

* * *

جزأت عن الفضل الحميد وقلصت لنابيك في المرعى مشافرك الهدل
فأقسم لولا حاجز الود بيننا وكان مع العتبى المودة والوصل
وأنملة قدمتهـا لك لا يد لساءك مني ما سررت به قبل
هبلتك حيـا لم تصبك منية خلا ان ودا مات ليس له عقل
فهلا أمالى مذهب عنك واسع موطأة في كل وجه له السبل
الا ربما اقتدت الرجاء الى المنى بوعدك حتى يستبد به المطل
وابتعث الآمال ثم اردهـا اليك ليوم ما ومضربه محل
فلا سلم حتى تستقيد الى الرضى ويحترش الغل المودة والبذل
لعمري لقد اعطيت للجود أهبة ثراء وهل يجرى اذا أضمر البغل
وقفت لساني عنك والقول مفصح وما بالقوافي عنك لو اهملت مهل

عليك سلام لم أقل فيك ريبة ولكن ثناء كان أفسده البخل

قال يمدح يزيد بن مزيد الشيباني

طيف الخيال حمدنا منك الماما داويت سقما وقد هيجت اسقاما
لله واش رعى زوراً ألمّ بنـا لو كان يمنعنا في النوم احلاما
بتنا هجودا وبات الليل حارسنا حتى اذا الفلق استعلى له ناما
قدقلت والصبح عندي غير مغتبط ما كان اطيب هذا الليل لو داما
ولائم فى الهوى اروى وصلت له حبل الخليع بحبل اللهو اذ لاما
عندي سرائر حب ما يزال لها تذكار عهد وما يقرفن آثاما
لولا يزيـد وأيام له سلفت عاش الوليد مع الغاوين اعواما
سل الخليفة سيفا من بني مطر يمضى فيخترق الاجساد والهاما
كالدهر لا ينثني عمن يهم به قد اوسع الناس إنعاما وإرغاما
حمى الخلافة والاسلام فامتنعا كالليث يحمي مع الاشبال آجاما
اكرم به وبآباء له سلفوا ابقو من المجد اياما واياما
ترى العفاة وقوفا حول حجرته يرجون اروع رحب الباع بساما
يقول لا ونعم في وجه حمدهما كلتاهما منه قد تمضى لما راما
منية في يدي هرون يتبعها على اعاديه ان سامى وان حامى
خير البرية اباءً اذا ذكروا واكرم الناس اخوالا واعماما
تظلم المال والاعداء من يده لا زال للمال والاعداء ظلاما

اردى الوليد همام من بني مطر يزيده الزوع يوم الروع إقداما
صمصامة ذكر يعدو به ذكر في كفه ذكر يفرى به الهاما
تمضى المنايا كما تمضى أسنتــه كأن في سرجه بدرا وضرغاما
أروى بجدواه ظمأ السائلين كما اروى نجيع دم رمحا وصمصاما
لا يستطيع يزيد من طبيعته عن المنية والمعروف احجاما
خيل له ما يزال الدهر يقحمها في غمرة الموت يوم الروع اقحاما
اذا بدا رفع الأستار عن ملك تكسي الشهور به نورا واظلاما
اقسمت ما نمت عن قهر الملوك ولا كان الخليفه عن نعماك نواما
اذكرت سيف رسول الله سنته وبأس أول من صلى ومن صاما
ان يشكر الناس ما أوليت من حسن فقد وسعت بني حواء انعامـا
قطعت في الله ارحام القريب كما وصلت في الله ارحاما وارحاما
اذا الخلافة عدت كنت انت لها عزاً وكان بنو العباس حكاما
ما من عظيم قد انقاد الملوك له الا يرى لك اجلالا واعظاما
يصيب منك مع الامال صاحبها حلما وعلمـا ومعروفا واسلاما
كم بلدة بك حل الركب جانبها وما يلم بها الركبان المدما
اذا علوا مهمهاً كان النجاء لهم انشاد مدحك افصاحا وترناما
لو كان يفقه رجع القول طائرها غنى بمدحك فيها يومها الهاما
لو لم تجبك جنود الشام طائعة اضرمت فيهاشهاب الموت اضراما

ووقعة لك ظل الملك مبتهجاً فيها ومات لها الحساد ارغاما
رددت فيها الى الاسلام مظلمة سوّى الأله بها قهرا وهماما
لو لم تكونوا بني شيبان من بشر كنتم رواسى اطواد واعلاما

وقال يمدح امير المؤمنين هرون الرشيد :

قد اطلعت على سري واعلاني فاذهب لشأنك ليس الجهل من شاني
ان التي كنت أنحو قصد شرتها أعطت رضى واطاعت بعد عصيان
حسبي بما أدت الأيام تجربة سعى عليّ بكأسيها الجديدان
دلت على عيبها الدنيا وصدقها ما استرجع الدهر مما كان أعطاني
أما تريني أزجي العيش منتظراً وعد المنى ارتعى في غير اوطاني
فقد أروح نديم الدهر يمزج لي كأس الهوى ويحييني بريحان
سائل جديد الهوى هل كنت أخلقه اذ للصبى مهجة تمشي بجثماني
ايام للعذل اكثار ومعصية والراح تسرع في عقلي وأحزاني
لا اوحش الخدر من شخصي وبيضته ولا أوحد بالصهباء ندماني
وليلة ما يكاد النجم يسهرها سامرتها بقتول الدل مفتان
اذا اطاعت عصاها ثقل رادفها كالدعص يفرعه غصن من البان
كانها بعد ما قام الصباح بها وسنى تمشت بها أعطاف نشوان
ولت كما انساب ثعبان وقد نهضت الا توقيذة ارداف واركان
ادركت في الدهر اياما بلغت بها رضى الشباب الذي قد كان عاصاني

سعت عليّ لياليهــا بزائرة زف الكرى طيفها وهنًا لخياني
باتت تأبىّ وما تدري بما صنعت بنائم ورثته سـول يقظان
فالآن اقصرت اذ مد الزمان يدي ونافرتني الليــالي بعد اذعان
حاشــا لعيني ان تفنى دموعها على هوى نازح أو نأي جيران
ما كنت أدخر الشـكوى لحادثـة حتى ابتلى الدهر أسراري فاشكاني
الى الامــام تهادانا بأرحلنا خلق من الريح في اشـباح ظلمان
كأن إفلاتها والفجر يأخذها افلات صادرة عن قوس حسبان
نستودع الليل اسرار الهموم اذا باح النعاس بعجز الصاحب الواني
تهوى باشعث لو يسطيع اعقبها تفرى مجاهل غيطـان بغيطان
قضت على الليل بالادلاج همته فقـده بسؤور الليل مذعان
تلوم الصبح فيه ثم قوضه وارتد وجه النهار الفاقع القاني
ينساب في الليل لا يرعي لهاجسة كأنه راكب في رأس ثعبان
لم يغمد السيف منذ نيطت حمائله يومــا ولا سله الى على جان

وقال يمدح محمد بن هرون الامين

شغلى عن الدار ابكيها وارثيها اذا خلت من حبيب لي مغانيها
دع الروامس تسفى كلما درجت ترابها ودع الامطار تبليهــا
ان كان فيها الذي اهوى اقمت بها وان عداها فما لى لا أعديها
احق منزلة بالترك منزلة تعطلت من هوى نفسي نواديها

مكنت عاذلتي في الخمر من اذن | صماء يعيى صداها من يناديها
وقلت حين أدار الكأس لي قمر | الان حين تعاطى القوس باريها
يا أملح الناس كفاً حين يمزجها | وحين يأخذها صرفاً و يعطيها
قد قمت منها على حد يلائمها | فهكذا فأدرها بيننا إيها
ان كانت الخمر للالباب سالبة | فان عينيك تجري في مجاريها
سيان كاس من الصهباء اشربها | ونظرة منك عندي حين تصبيها
في مقلتيك صفات السحر ناطقة | بلفظ واحدة شتى معانيها
فاشرب لعلك ان تحظى بسكرتها | فتصدق الكاس نفسا ما تمنيها
ومخطف الخصر في اردافه عمم | يميس في خامة رقت حواشيها
اذا نظرت اليه تاه عن نظري | وان شكوت اليه زادني تيها
لولا الامين الذي في الارض ما اختلست | بنات لهوي اذا عنت غواشيها
خليفة الله قد ذلت بطاعته | صعر الخدود برغم من مراقيها
احيت يداه الندى والجود فانتشرا | في الارض طرا وجالا في نواحيها
عمت مكارمه الدنيا فأولها | تهدى نداه الى أخرى أقاصيها
كم من يد لامين الله لو شكرت | لقصر النفس عن ادنى ادانيها
فتى تهين رقاب المال راحته | اذا أتاها مريد المال يبغيها
يمنى يديك لنا جدوى مطبقة | هذا السحاب باعلى الافق يحكيها
حلت قريش العلى من كل مكرمة | وحل بيتك في أعلى أعاليها

فقت البرية من كهل ومن حدث وفاق آباؤك الماضون ماضيها
شيدت بيتك في علياء مكرمة يقصر النجم عن ادنى مراقيها
ما اسبق الناس في غايات مكرمة الا و كفك دون الخلق يحويها
خليفه الله لو عــدت فضائله اذن لقل من الحساب محصيها
نالت مكارمك العيوق فاتصلت به وقصر عنها من يساميهـا
يا اكرم الناس اذ ترجى لنائبة جاءت بها حادثات الدهر تهديها
لسنا نخاف صروف الدهر ما علقت اكفنا بحبال منك تمريهـا
كافى الامام الورى طرا باجمعها وفاقهم ببيوت المجد يبنيهـا
احيي المكارم هرون واثبتها وانت في الناس يا ابن الغر تمضيها
يا مثبت الملك اذ زالت دعائمه وثار بالفتنة العمياء باغيهـا
كم طعنة لك في الاعداء مهلكة نجلاء تعجلهم عن نفث راقيها
لما غدوت الى الاعداء مطلعا غير الجبان عليها لا تباليهـا
قسمت فيها منايا غير مبقية وقمت عند نفوس الحق تحييها
أخمدت بالشرق نيرانا مؤججة قد كان عز على الاسلام مخبيها
حتى بعثت عليهـا رحمة نخبت نيرانها بك فانفثت افاعيهـا
ما ضيع الله قوما صرت تملكهم ولا اضاع بلادا انت واليها

جدول لبعض ما ورد في الكتاب من الاخطاء

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٩	٢	او	ام
١٠	٢	ايام	الايام
١٣	١٠	دخل كبير	دخلاً كبيراً
١٤	٩	فتحتار	فتحار
١٧	٩	تَصَبَّرَ	يُصَبَّرُ
١٧	١١	لهجر	الهجر
٢٤	٣	قر	قل
٣٥	١٣	وهجره ،	وهجره دعبل ،
٣٧	٥	وحجزو	وحجزوا
٣٨	٦	حا	حال
٣٨	٧	علمه	مُعْلَمَةً
٣٨	١٠	تفلِل	تفلَل
٣٩	١	فَلَّت	فَعَلَتِ
٣٩	٩	سر يع	صر يع
٤٠	١٤	و موا	وسُمّوا
٤١	٣	ايبدل	ايُعْدَل
٧٢	٦	وما زالت	يعتقدون وما زالت
٩٩	٩	شهرة الانسان	شخصية الانسان
١٠٠	١٢	سيئًا	شيئًا
١٠١	٩	وكان شاعرنا قد كان	وقد كان شاعرنا

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١١٣	١	والنشأه	نجدي النشأة
١٢٣	٧	لغة	لغة هذا
١٢٢	٩	أُن	أَن
١٢٧	٥	كلامهم وتفكيرهم في	كلامهم في
١٣٠	٥	المذكر والهجاء	المذكر في بعض الأحيان ومثل ذلك يقال في الهجاء
١٣٠	٧	الشعراء	الشعراء حتى في غزل المذكر والهجاء
١٣٥	١٤	بن	يزيد بن
١٣٦	١٦	الشعراء	الشعراء فهلا ترى شيئًا بديعًا
١٤٠	٥	فكيف	فكيف اذا
١٥١	٥	ينال في المديح الالاف	ينال الآلاف
١٥١	٦	المحال دونه	المجال في المديح دونه
١٥١	١٦	الحرس	الجرس
١٥٢	٩	والمدح الخمرة	ولمدح الخمرة
١٥٢	١٧	ان	اني
١٥٣	٢	حزن	فحزن
١٥٤	٢	بتات الهوى	بنات لهوي
١٥٥	٣	ان من	من
١٧٨	١٨	شيء	شيء رائع
١٨٠	٩	به	به الي حد بعيد

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٢٠٥	٦	تتسأل	تتساءل
٢٠٥	١٢	الاوق	الاولى
٢٠٧	٢	خضيد	خضير
٢٢٦	٧	حينما	حيثما
٢٣٠	١	غارة	اغارة

للمؤلف (قيد الطبع)

نهج البلاغة

تحقيق خاص فيه ما للنهج وما عليه

قلب الشاعر

قسم من ديوان المؤلف فيه صورة للشباب المتوقد

تنتخبه مكتبة عرفه

(المطبوع)

منهل الآداب: فيه اقرب الطرق لنجاح المبتدئين في الآداب

القراءة الادبية (بالاشتراك مع السيد سليم الزركلي): فيها اجمل القصص الادبية المختارة